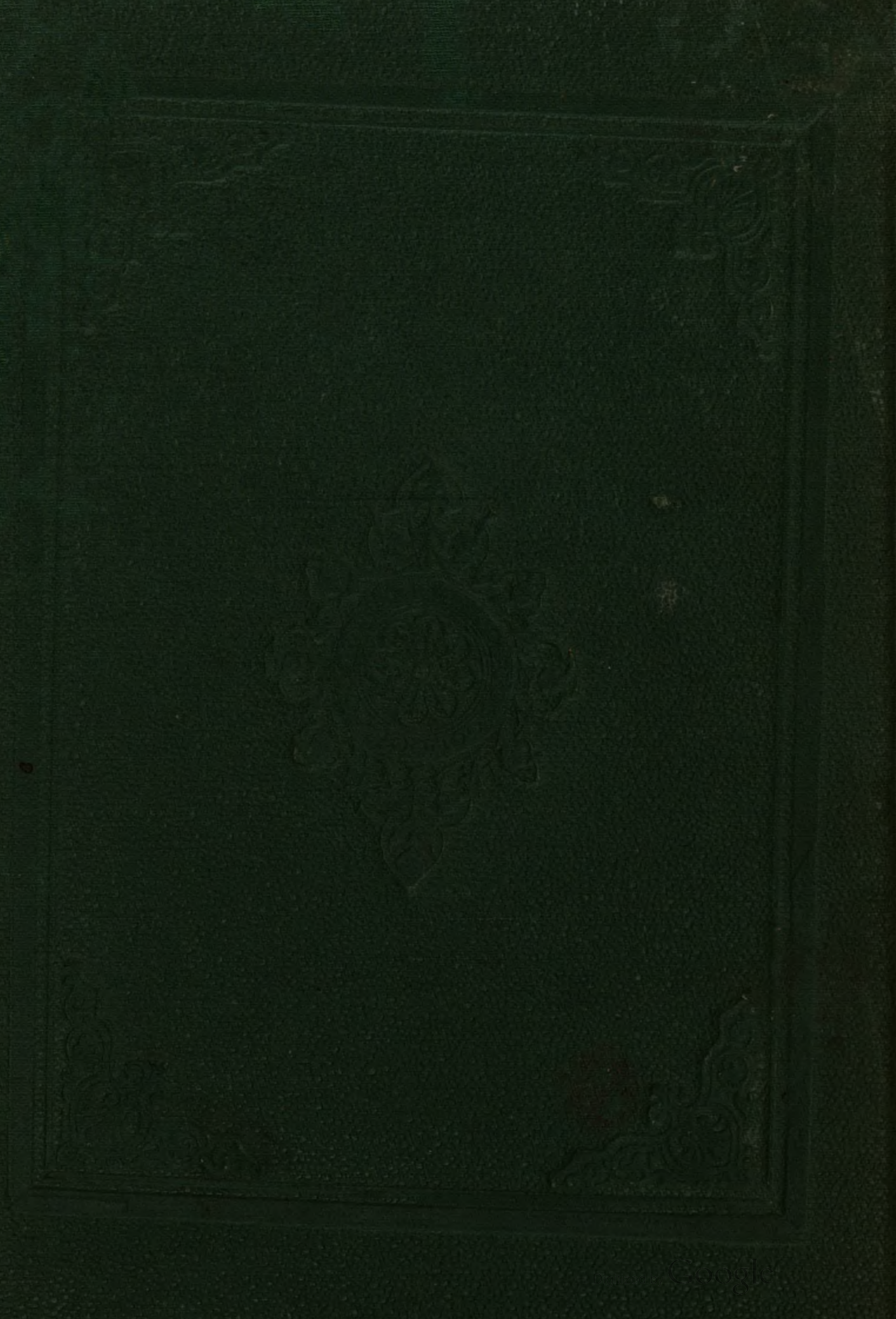
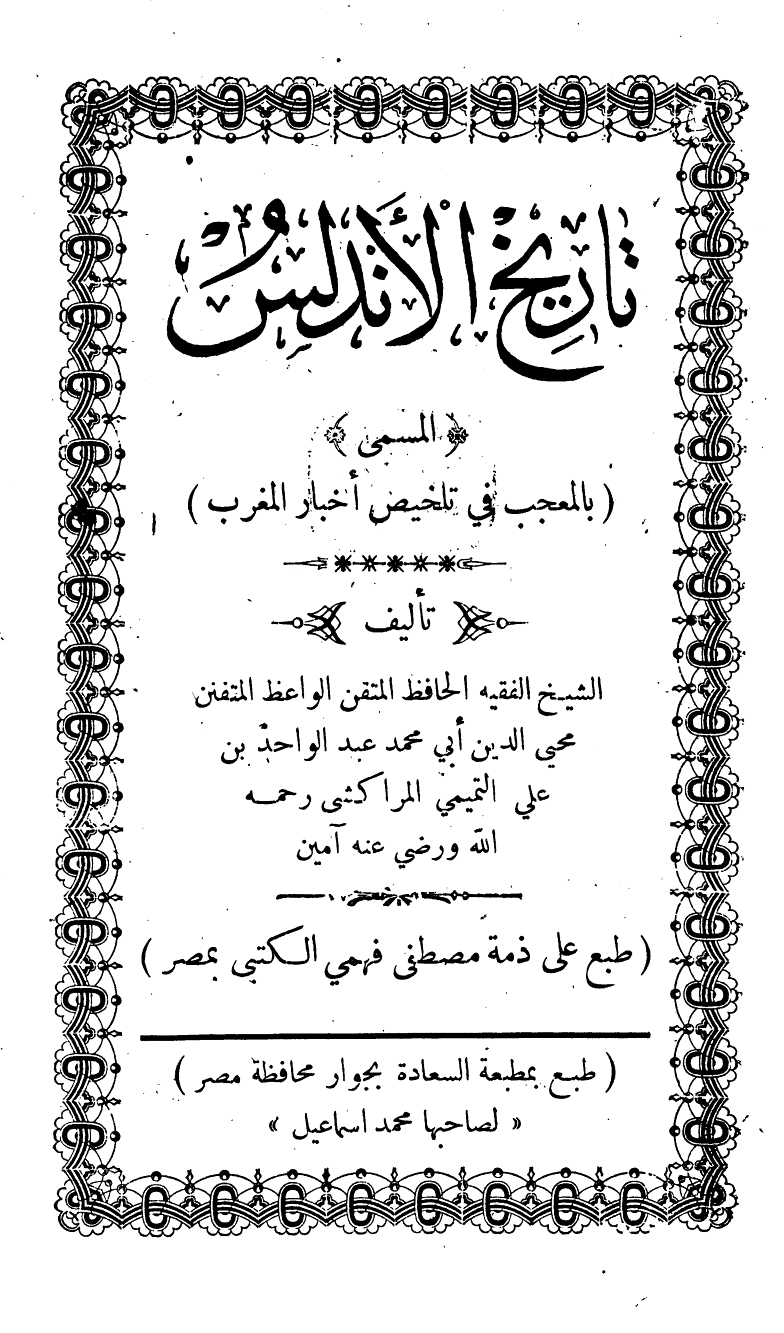






تاريخ الأندلس

المسمى

(بالمعجب في تلخيص أخبار المغرب)

تأليف

الشيخ الفقيه الحافظ المتقن الواعظ المتفنن
محيي الدين أبي محمد عبد الواحد بن
علي التميمي المراكشي رحمه
الله ورضي عنه آمين

(طبع على ذمة مصطفى فهمي الكتبي بمصر)

(طبع بمطبعة السعادة بجوار محافظة مصر)
« لصاحبها محمد اسماعيل »

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله مغني الأمم وباعث الرمم • وواهب الحكم ذي البقاء والقدم • الذي لا مطمع في ادراكه لثواقب الاذهان •ونوافذ الهمم • احمده على ما علم وألهم وسوغ وأنعم • وصل الله على كاشف الظلم • ورافع التهم • وموضح الطريق الأمم • المخصوص بجوامع الكلم • والمبعوث الي كافة العرب والعجم وعلى آله وصحبه أهل الفضل والكرم • وسلم عليه وعليهم وشرف وعظم

﴿ وبعد ﴾ أيها السيد الذي توالت عليّ نعمه • وأخذ بضبعي من حضيض الفقر والخمول اعتناؤه وكرمه • وقضي احسانه إلي ومحبته التي جبلت عليها بأن ألتزم من بره و طاعته ما أنا ملتزمه • فانك سألتني بوأك الله أعلى الرتب • كما عمر بك أندية الادب • ومنحك من سعادتي الدنيا والآخرة أوفر القسم • كما جمع لك فضيلتي التدبير والقلم • املاء أوراق تشتمل على بعض أخبار المغرب وهيأته وحدود أقطاره وشيء من سير ملوكه وخصوصاً ملوك المصامدة بني عبد المؤمن من لدن ابتداء دولتهم الي وقتنا هذا وهو سنة ٦٢١ وأن ينضاف الى

ذلك نبذة من ذكر من اقيته .أو لقيت من لقيه أو رويت عنه بوجه ما من وجوه الرواية من الشعراء والعلماء وأنواع أهل الفضل. فلم أرَ بدًّا من إسعافك والمسارعة الى ما فيه رضاك إذ هي الغاية التي أجري اليها • والبغية التي أثابر أبداً عليها • ولوجوب طاعتك عليّ من وجوه يكثر تعدادها فاستخرت الله عز وجل فيما ندبتني اليه • واستعنته واعتمدت في كل ذلك عليه • فهو المؤئل والملجأ وهو حسبنا ونعم الوكيل هذا مع اني أعتذر الى مولانا فسح الله في مدته من تقصير ان وقع بثلاثة أوجه من الاعذار فأولها ضعف عبارة المملوك وغلبة العي على طباعه فهما وقع في هذا الاملاء من فتور لفظ أو اخلال بسرد فهو خليق بذلك والوجه الثاني انه لم يصحبني من كتب هذا الشأن شيء اعتمد عليه واجعله مستنداً كما جرت عادة المصنفين .وأما دولة المصامدة خصوصاً فلم يقع إلي لأحد فيهما تأليف أصلا خلا اني سمعت بعض أصحابنا جمع اخبارها واعتني بسيرها وهذا المجموع لا أعرفه الا سماعا والوجه الثالث ان محفوظاتي فى هذا الوقت على غاية الاختلال والتشتت أوجبت ذلك هموم تزدحم على الخاطر وغموم تستغرق الفكر فرغبة المملوك الأصغر اجراء مولانا إياه على جميل عادته وحميد خلقه من التسامح والتغاضى لا زال مجده العالي يرفع الهمم • ويعقد الذمم • ويوصل النعم • ويعمر ربوع الفضل والكرم ••

﴿ فصل في ذكر جزيرة الاندلس وحدودها ﴾

فأول ما يقع الابتداء به ذكر جزيرة الاندلس وتحديدها والتعريف بمدنها ونبذ من أخبارها وسير ملوكها من لدن فتحها الى وقتنا هذا وهو سنة ٦٢١ اذ هي كانت معتمد المغرب الاقصى والمعتبرة منه والمنظور اليها فيه وهي كانت كرسي المملكة ومقر التدبير وأم قري تلك البلاد لم يزل هذا معروفا من أمرها الي أن تغلب عليها يوسف ابن تاشفين اللمتوني فصارت اذ ذاك تبعاً لمراكش من بلاد العدوة ثم تغلب عليها المصامدة بعده فاستمر الامر على ذلك الي وقتنا هذا فأقول وبالله التوفيق

أما حدود جزيرة الاندلس فان حدها الجنوبي منتهي الخليج الرومي الخارج من بحر مانطس وهو البحر الرومى مما يقابل طنجة في موضع يعرف بالزقاق سعة البحر هنالك أثنا عشر ميلا وهذا الخليج هو ملتقى البحرين أعني بحر مانطس وبحر اقنابس وحدّاها الشمالى والمغربي البحر الاعظم وهو بحر اقنابس المعروف عندنا بحر الظلمة وحدها المشرقي الجبل الذي فيه هيكل الزهرة الواصل ما بين البحرين بحر الروم وهو مانطس والبحر الاعظم ومسافة ما بين البحرين في هذا الجبل قريبة من ثلاث مراحل وهو الحد الاصغر من حدود الاندلس وحداها الاكبران الجنوبي والشمالي مسافة كل واحد منهما نحواً من ثلاثين مرحلة وهذا الجبل الذي ذكرنا فيه هيكل الزهرة الذي هو الحد المشرقي من الاندلس هو الحاجز ما بين بلاد الاندلس وبين بلاد أفرنسة من الارض الكبيرة ارض الروم التي

هي بلاد أفرنجة العظمي والاندلس آخر المعمور في المغرب لأنها كما ذكرنا منتهية الي بحر اقنابس الذي لا عمارة وراءه ومسافة ما بين طليطلة التي هي قريبة من وسط الاندلس ومدينة رومية قاعدة الارض الكبيرة قريبة من أربعين مرحلة ووسط الاندلس كما ذكرنا مدينة طليطلة العتيقة التي كانت قاعدة القوطا من قبائل الإفرنج ثم ملكها المسلمون زمان الفتح على ما سيأتي بيانه وعرضها تسع وثلاثون درجة وخمسون دقيقة وطولها ثمان وعشرون درجة بالتقريب فصارت بذلك قريبة من وسط الاقليم الخامس وأقل بلاد الاندلس عرضا المدينة المعروفة بالجزيرة الخضراء البحر الجنوبي منها وعرضها ست وثلاثون درجة وأكثر مدنها عرضا بعض المدائن التي على ساحلها الشمالى وعرض ذلك الموضع ثلاث وأربعون درجة فتبين بما ذكرنا ان معظم الاندلس في الاقليم الخامس أميل الي الشمال فلذلك اشتد بردها وطالت مدة الشتاء فيها وعظمت جسوم أهل ذلك الميل وابيضت ألوانهم وكانت أذهانهم الى الغايظ ماهي فنبت عن كثير من الحكمة وطائفة من الاندلس في الاقليم الرابع كاشبيلية ومالقة وقرطبة وغرناطة والمرية ومرسية فهذه البلاد التي ذكرنا في الاقليم الرابع أعدل هواء وأطيب أرضاً وأعذب مياهاً من البلاد التي في الاقليم الخامس وأهلها أحسن ألوانا وأجمل صوراً وأفصح لغة من أولئك اذ كان للميول والسموت فى اللغات تأثير بين لمن استقري ذلك وفهم عاته وجملة مدن الاندلس التي هي أمهات قراها ومراكز اعمالها ومواضع مخاطبات أولى الامر منها أولها في الحد الشمالي مدينة شلب ثم مدينة اشبيلية ثم قرطبة ثم جيان ثم غرناطة ثم المرية ثم مرسية ثم بلنسية ثم مالقة وهي على البحر الرومي

فالذي على البحر الاعظم من هذه المدائن شلب واشبيلية وبينهما قريب من خمس مراحل والذي على البحر الرومي المدينة المعروفة بالجزيرة الخضراء وهي من اعمال اشبيلية ثم مالقة وهي مستقلة ثم المرية ثم دانية هذه كلها على البحر الرومي ثم سائر ما ذكرنا من المدن ليست على ساحل ولما استقر أمر المسلمين بالاندلس في غرة المائة الثانية تخيروا مدينة قرطبة فجعلوها كرسي المملكة ومقر الامارة فلم تزل على ذلك الي أن انقرضت دولة بني أمية بالاندلس فتغلب على كل جهة من الجزيرة متغلب على ما سيأتى بيانه وهذه المدن التي ذكرت هي التي يملكها المسلمون اليوم وقد كانوا يملكون قبلها مدنا كثيرة لم أذكرها في هذا الموضع الا ان ذكرها سيرد فيما يأتي من تفصيل أخبار الاندلس تعرف ذلك بقولى أعادها الله للمسلمين فهذه جملة من أخبار الاندلس وحدودها وبلادها الكائنة بأيدي المسلمين

ذكر فتح جزيرة الاندلس

ولمع من تفصيل أخبارها وسير ملوكها

ومن كان فيها من الفضلاء منها ومن غيرها

ثم نعود الى افتتاحها فنقول والله الموفق افتتح المسلمون جزيرة الاندلس فى شهر رمضان سنة ٩٢ من الهجرة وكان فتحها على يدي طارق قيل بن زياد وقيل ابن عمرو وكان والياً على طنجة مدينة من المدن المتصلة ببرّ القيروان فى أقصي المغرب بينها وبين الاندلس الخليج المذكور المعروف بالزقاق وبالمجاز رتبه موسي بن نصير أمير

القيروان وقيل أن مروان بن موسي بن نصير خلف طارقاً هناك على العساكر وانصرف الى أبيه لامر عرض له فركب طارق البحر الى الاندلس من جهة مجاز الجزيرة الخضرا منتهزا لفرصة أمكنته وذلك أن الذي كان يملك ساحل الجزيرة الخضرا وأعمالها من الروم خطب الي الملك الاعظم ابنته فاغضب ذلك الملك ونال منه وتوعده فلما بلغه ذلك جمع جموعاً عظيمة وخرج يقصد بلد الملك فبلغ طارقا خلو تلك الجهة فهذه الفرصة التي انتهزها وقيل أن العاج كتب اليه بالعبور لسبب أنا ذاكره وهو أن لذريق ملك الجزيرة لعنه الله كان له رسم يوجه اليه أعيان قواده و .... ببناتهم فيربيهن عنده في قصوره ويؤدبهن بالآداب الملوكية حسبما كانوا يرونه .... فاذا بلغت الجارية منهن وحسن أدبها زوجها من قصره لمن يرى كفؤ أبيها فوجه اليه صاحب الجزيره الخضرا وأعمالها بابنته على الرسم المذكور فكانت عنده الي أن بلغت مبلغ النساء فرآها يوما فأعجبته فدعاها فأبت عليه وقالت لا والله حتي تحضر الملوك والقواد وأعيان البطارقة وتتزوجني هذا بعد مشورة أبي فغلبته نفسه واغتصبها على نفسها فكتبت الى أبيها تعلمه بذلك فهذا كان السبب الذي بعثه على مكاتبة طارق والمسلمين فكان الفتح فالله أعلم أى ذلك كان فأول موضع نزله فيما يقال منها المدينة المعروفة بالجزيرة الخضرا اليوم نزلها قبيل الفجر فصلى بها الصبح بموضع منها وعقد الرايات لاصحابه فبني بعد ذلك هناك مسجد وعرف بمسجد الرايات وهو باق الي وقتنا هذا أسأل الله ابقاءه الي أن تقوم الساعة ثم دخل طارق هذا الاندلس وأمعن فيها واستظهر على العدو بها وكتب الي موسي بن نصير موليه بخبر الفتح وغلبته على ماغلب عليه

من بلاد الاندلس وما حصل له من الغنائم فحسده موسي على الانفراد بذلك وكتب الي الوليد بن عبد الملك بن مروان يعلمه بالفتح وينسبه الي نفسه وكتب الى طارق يتوعده اذ دخلها بغير اذنه ويأمره أن لا يجاوز مكانه الذي ينتهي اليه الكتاب فيه حتي يلحق به وخرج متوجها الى الاندلس واستخلف على القيروان ابنه عبد الله وذلك في رجب من سنة ٩٣ وخرج معه حبيب بن أبى عبدة الفهري ووجوه العرب والموالى وعرفاء البربر في عسكر ضخم ووصل من جهة المجاز الى الاندلس وقد استولى طارق على قرطبة دار المملكة وقتل لُذُريق الملك لعنه الله بالاندلس فتلقاه طارق وترضاه ورام أن يستل ما في نفسه من الحسد له وقال له انما أنا مولاك ومن قبلك وهذا الفتح لك وبسببك وحمل طارق اليه ما كان غنم من الاموال فلذلك نسب الفتح الى موسى ابن نصير لان طارقا من قبله ولانه أتم من الفتح ما كان بقى على موسي وأقام موسي بالاندلس مجاهداً وجامعا للاموال ومرتبا للامور بقية سنة ٩٣ وسنة ٩٤ وأشهرا من سنة خمس وقبض على طارق ثم استخلف على الاندلس ابنه عبدالعزيز بن موسي وترك معه من العساكر ووجوه القبائل من يقوم بحماية البلاد وسد الثغور وجهاد العدو ورجع الى القيروان ثم سار منها بما حصل له من الغنائم وأعده من الهدايا الى الوليد بن عبد الملك وكان مما وجد بمدينة طايطلة حين فتحها مائدة سليمان بن داود عليهما السلام فيقال انها طوق ذهب وطوق فضة مكللة باللؤلؤ والياقوت ومعه فيما يقال طارق فمات الوليد وقد وصل موسي الى طبرية في سنة ٩٦ فحمل ما كان معه الى سليمان بن عبدالملك ويقال انه وصل وأدرك الوليد حيا فالله أعلم وأقام عبدالعزيز بن موسى

ابن نصير أميراً على الاندلس الى أن ثار عليه من الجند جماعة فيهم حبيب بن أبي عبدة الفهري وزياد بن النابغة التميمي فقتله بعضهم وخرجوا برأسه الى سليمان بن عبد الملك وذلك في صدر سنة ٩٨ بعد أن أمّروا على الاندلس أيوب بن أخت موسي بن نصير ويقال أنهم كتبوا الى سليمان بما أنكروا من أمره فأمرهم بما فعلوه فالله أعلم . ثم اختلف الامر هنالك ومكث أهل الاندلس بعد ذلك زمانا لا يجمعهم وال ثم ولى عليها السمح بن مالك الخولاني قبل المائة واجتمع عليه الناس ثم ولى عليها الغمر بن عبد الرحمن بن عبد الله ثم وليها عنبسة ابن سحيم الكلبي وعزل الغمر بن عبدالرحمن ثم وليها عبد الرحمن بن عبدالله العكي نحوا من العشر ومائة وكان رجلا صالحاً ثم وليها عبدالملك ابن قطن الفهري ثم عقبة بن الحجاج فهلك عقبة بالاندلس ورد عبد الملك بن قطن ثم جاء بلج بن بشر فادعى ولايتها من قبل هشام بن عبد الملك وشهد له بعض ما كان معه ووقعت فتن من أجل ذلك وافترق أهل الاندلس فيها على أربعة أمراء حتى أرسلوا اليهم واليا أبو الخطار حسام بن ضرار الكلبي لحسم مواد الفتن وجمعهم على الطاعة بعد الفرقة وفي تقديم بعض هؤلاء الامراء على بعض اختلاف الا أن هؤلاء المذكورين كانوا أمراءها وولاة الحروب فيها أيام بني أمية قبل ذهاب دولتهم من المشرق

﴿ ذكر من دخل الاندلس من التابعين ﴾

وأنا ذاكر ها هنا من دخل الاندلس من التابعين للجهاد والرباط فمنهم محمد بن أوس بن ثابت الانصاري يروى عن أبي هريرة ومنهم

حنش بن عبـدالله الصنعاني يروي عن على بن أبي طالب وفضالة بن
عبيد ومنهم عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي يروى عن عبـد الله بن
عمر بن الخطاب ومنهـم يزيد بن قاصط وقيـل بن قصيط السكسكي
المصري يروى عن عبد الله بن عمرو بن العاص ومنهم موسي بن نصير
الذى ينسب الفتح اليه يروي عن تميم الدارى

﴿فصل﴾ وقد جاء في فضل المغرب غير حديث فمن ذلك ماحدثني
الفقيه الامام المتقن المتفنن أبو عبد الله محمد بن أبي الفضـل الشيباني
سماعا عليه بمكة في شهر رمضان من سنة ٦٢٠ قال حدثني المؤيد بن عبد
الله الطوسي قراءة عليه بنيسابور قال حدثنا الامام كمال الدين محمد بن
أحمد بن صاعد القراوي قراءة عليه قال حدثنا بن عبد الغافر الفارسي
حدثنا محمد بن عيسي بن عمرويه الجلودى حـدثنا أبو اسحق ابراهيم
بن سفيان حدثنا أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيرى النيسابورى قال
حدثنا يحي بن يحي عن هشام بن بشر الواسطي عن داود ابن ابي هند
ابن ابي عثمان النهدى عن سعد بن ابي وقاص ان رسول الله صـلى الله
عليه وسلم قال لا يزال أهل المغرب ظاهرين على الحق لا يضرهم من
خذلهم حتي تقوم الساعة ومن فضل الاندلس انه لم يذكر قط أحـد
على منابرها من السـلف الا بخـير وما زالت الولاة بالاندلس تليها
من قبل بني أمية أو من قبل من يقيمونه بالقيروان او بمصر
فلما اضـطرب أمرهم في سـنة ١٣٦ بقتـل الوليـد بن يزيد بن
عبـد الملك اشتغلوا عن مراعاة اقاصي البلاد ووقع الاضطراب
بأفريقية والاختلاف بالاندلس أيضا بين القبائل ثم اتفقوا بالاندلس
على تقديم قرشي يجمع الكلمة الى أن تستقر الامور بالشام لمن يخاطب

ففعلوا وقدموا يوسف بن عبد الرحمن الفهري فسكنت به الامور واتفقت عليه القلوب واتصلت امارته الى سنة ١٣٨ بعد ذهاب دولة بني أمية بست سنين

﴿ ذكر خبر دخول عبد الرحمن بن معاوية الاندلس ﴾

وفي هذه السنة دخل عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان الاندلس الملقب بالداخل فقامت معه اليمانية وحارب يوسف بن عبد الرحمن بن أبي عبدة بن عقبة بن نافع الفهري الوالى على الاندلس المذكور أنفا فهزمه واستولى عبد الرحمن على قرطبة دار الملك وكان دخوله اياها يوم الاضحي من السنة المذكورة فاتصلت ولايته الي أن مات سنة ١٧٢ وكان مولده بالشام سنة ١١٣ أمه أم ولد اسمها راح ويكني أبا المطرف دخل الاندلس في ذي القعدة واستولي على قرطبة دار ملكها فى التاريخ المذكور وذلك أنه هرب من الشام لما انتشرت دولة بني العباس فلم يزل مستترا ينتقل في بلاد المغرب حتي دخل الاندلس ودخل حين دخلها طريدا وحيداً لا أهل له ولا مال فلم يزل يصرف حيله ويسمو بهمته والقدر مع ذلك يوافقه الى أن احتوى على ملكها وملك بعض بلاد العدوة وكان أبو جعفر المنصور اذا ذكر عنده قال ذاك صقر قريش وكان عبد الرحمن بن معاوية من أهل العلم وعلى سيرة جميلة من العدل ومن قضاته معاوية بن صالح الحضرمي الحمصي وله أدب وشعر ومما أنشد وقاله يتشوق الى معاهده بالشام قوله

أيها الراكب الميمم ارضي أقر من بعضي السلام لبعضي

أن جسمي كما علمت بأرض وفؤادي ومالكيه بأرض
قدر البين بيننا فافترقنا وطوى البين عن جفوني غمضي
قد قضي الله بالفراق علينا فعسي باجتماعنا سوف يقضي

وله شعر كثير أبرع من هذا أورده المؤرخون في كتبهم وكانت مدة ولايته منذ استولي على قرطبة دار الملك الى أن توفي اثنتين وثلاثين سنة

﴿ ولاية الامير هشام بن عبد الرحمن ﴾

ثم ولى بعد عبد الرحمن ابنه هشام يكني أبا الوليد وسنه حينئذ ثلاثون سنة واتصلت ولايته سبعة أعوام الى أن مات في صفر سنة ١٨٠ وكان حسن السيرة متحريا للعدل يعود المرضي ويشهد الجنائز ويتصدق بالصدقات الكثيرة وربما كان يخرج في الليالى المظلمة الشديدة المطر ومعه صرر الدراهم يتحرى بها المساتير وذوى البيوتات من الضعفاء لم يزل هذا مشهوراً من أمره الى أن مات في التاريخ المذكور أمه أم ولد اسمها حوراء

﴿ ولاية الحكم بن هشام الملقب بالربضى ﴾

ثم ولى بعده ابنه الحكم وله اثنتان وعشرون سنة يكني أبا العاص أمه أم ولد اسمها زخرف وكان طاغيا مسرفا وله آثار سوء قبيحة وهو الذي أوقع بأهل الربض الوقعة المشهورة فقتلهم وهدم ديارهم ومساجدهم وكان الربض محلة متصلة بقصره فاتهمهم في بعض أمره ففعل بهم ذلك فسمي الحكم الربضى لذلك وفي أيامه احدث الفقهاء انشاد اشعار الزهد والحض على قيام الليل في الصوامع اعني صوامع

المساجد وأمروا ان يخاطوا مع ذلك شيئاً من التعريض به مثل ان يقولوا يا أيها المسرف المتمادي في طغيانه المصر على كبره المتهاون بامر ربه أفق من سكرتك وتنبه من غفلتك وما نحا هذا النحو فكان هذا من جملة ما هاجه وأوغر صدره عليهم وكان أشد الناس عليه في أمر هذه الفتنة الفقهاء هم الذين كانوا يحرضون العامة ويشجعونهم الى ان كان من أمرهم ما كان • وحكى أبو مروان بن حيان صاحب أخبار الاندلس انه لما تُسوِّرَ عليه القصرُ واحس بالشر قال لأخص غلمانه اذهب الى فلانة احدى كرائمه وقل لها تعطيك قارورة الغالية فابطأ الغلام وتلكأ فاعاد ذلك عليه فقال ياه ولاي هذا وقت الغالية فقال له ويلك ياابن الفاعلة بما يعرف رأسي اذا قطع من روس العامة ان لم يكن مضمجا بالغالية ثم انه ظهر بعد هذا عليهم وذلك انهم كانوا يقاتلون القصرَ * وخاصة الحشم والجند يشغلونهم الى ان دهمتهم الخيل من ورائهم فانهزموا وقتلوا قتلاقبيحا وأمر بديارهم ومساجدهم فهدمت وحرقت وأمر بنفي من بقي منهم عن البلاد فخرجوا حتى نزلوا جزيرة اقريطش من جزائر البحر الرومي المقابلة لبر برقة اول المغرب فلم يزالوا هنالك سنين الي ان تفرقوا فرجع بعضهم الى الاندلس واختار بعضهم سكنى صقلية وانتقل بعضهم الى الاسكندرية ومن اعجب ما حكى أبو مروان بن حيان المؤرخ مما يتصل بخبر هذه الوقعة قال كان من أشد الناس على الحكم هذا تحريضا رجل من الفقهاء اسمه طالوت كان جليل القدر في الفقهاء رحل الى المدينة وسمع من مالك بن أنس وتفقه على أصحابه وكان قويا في دينه فلما أوقع الحكم باهل الربض كما ذكرنا وأمر بتغريب من بقي منهم كان ممن أمر بتغريبه

طالوت الفقيه فعسر عليه الانتقال ومفارقة الوطن ورأى الاختفاء الى أن تتغير الاحوال فاستخفى في دار رجل يهودي سنة كاملة واليهودي في كل ذلك يكرمه ابلغ الكرامة و يعظمه أشد التعظيم فلما مضت السنة طال على الفقيه الاختفاء فاستدعى اليهودي وشكره على احسانه اليه وقال له قد عزمتُ غدا على الخروج وقصد دار فلان الكاتب لانه قرأ علي ولي عليه حق التعليم وقد بلغني ان له جاها عندهذا الرجل فعسى هو يشفع لي عنده فيومنني ويدعني في بلدي فقال له اليهودي يامولاي لا تفعل فما آمنهم عليك وجعل يحلف له بكل يمين يعتقده انه لو أقام عنده بقية عمره ما امله ذلك ولا ثقل عليه فابى الا الخروج نخلى بينه وبين ذلك نخرج حتي أتى دار ذلك الكاتب بغلس فاستأذن عليه فاذن له فلما دخل عليه رحب به وادنى مجلسه وسأله أين كان في هذه المدة فقص عليه قصته مع اليهودي ثم قال له اشفع لي عندهذا الرجل حتى يومنني في نفسي ويمن علي بتركي في بلدي فوعده بذلك وركب من فوره ودخل على الحكم

فقال وقد مضى ليل وثان ... ولم يسمعه غني ليت شعري
أجاري المونسي ليلا غناء ... لخير قطع ذلك أم لشر
فقالوا انه في سجن عيسى ... أتوه به بليل وهو يسرى
فنادى بالطويلة وهي مما ... يكون براسه لجليل أمر
ويمم جاره عيسى بن موسى ... فلاقاه باكرام وبر
وقال أحاجة عرضت فاني ... لقاضيها ومتبعها بشكر
فقال سجنت لي جارا يسمي ... بعمرو قال يطلق كل عمرو
يسجني حيث وافقه اسم جار الفقيه ... ولو سجنتهم بوتر

فاطلقهم له عيسى جميعا   لجار لا يبيت بغير سكر
فان أحببت قل لجوار جار   وان أحببت قل لطلاب اجر
فان أبا حنيفة لم يأب من   تطابـه تخاصه بوزر

وتلخيص هذه الحكاية التي نظمها أبو عمر في شعره ان أبا حنيفة رحمه الله كان يجاوره رجل كيال فكان كل ليلة يأخذ سمكة ورغيفا وشيئاً من النبيذ فاذا صلى العشاء الاخيرة اكل ثم شرب حتى اذا انتشى رفع عقيرته واندفع ينشد هذا البيت

اضاعوني وأي فتى اضاعوا   ليوم كريهة وسداد ثغر

فلا يزال يعيده حتى يغلبه النوم وكان أبو حنيفة على ما اشتهر عنه يحيي الليل كله صلاة فلما كان في بعض الليالي فقد صوت ذلك الرجل فقال لبعض من عنده ما فعل جارنا هذا الذي كان يغنى كل ليلة أهو مريض أم غائب فقالوا له انه مسجون فقال ومن سجنه فقالوا خرج في الليل لبعض حاجته فلقيه أصحاب عيسى بن موسى صاحب الشرطة فاتوا به فامر بسجنه فلما أصبح أبو حنيفة لبس ثيابه وركب دابته وقصد عيسى بن موسى في بيته فلما أعلم عيسي بمكان أبي حنيفة خرج يتلقاه مسرعا وبالغ فى تكريمه وبره وسأله عن حاجته فقال لي فى سجنك جار اسمه عمرو فقال عيسى يطلق كل من كان اسمه عمرو بسجني من أجل جار الفقيه فاطلقه وخلقا كثيراً معه فاتى الرجل أبا حنيفة يتشكر له فلما وقعت عينه عليه قال له أضعناك قال الرجل لا والله بل حفظت الجوار حفظك الله والبيت الذي نظمه أبو عمرو كان يغني به الرجل جار ابي حنيفة هو للعرجي رجل من ولد عثمان بن عفان سجنه المغيرة خال هشام بن عبد الملك وعامله على مكة فلم يزل

بسجنه الى ان مات وخرجت جنازته من السجن ولابي عمر هـذا شعر كثير جيد وهو من الطبقة الثالثـة من طبقات شعراء الاندلس فما على حفظي له اول قصـيدة يمدح بهـا أبا على القالي وهي

من حاكم بيني وبين عذولي　　الشجو شجوى والعويل عويلى

اقصر فما دين الهوى كفرولا　　اعتـد لومك لي من التنزيل

عجبا لقوم لم تكن اذهانهم　　لهوى ولا اجسادهم لنحول

دقت معانى الحب عن افهامهم　　فتـأولوه اقبـح التأويل

فى أي جارحة أصون معذبى　　سلمت من التعذيب والتنكيل

ان قلت فى عيني فثم مدامعي　　أو قلت فى قلبي فثم غليلى

هذا ما بقى في حفظي منها وكان أبو عمر هذا من مقدمي شعراء الحكم المستنصر وكان مختصا بابى الحسن المصحفى منضويا اليه وهو الذي حمله على هجو محمد بن ابي عامر فلما افضى الامر الى محمـد قبض على المصحفي واستصفى أمواله ووضعه في المطبق فلم يزل به حتي مات جوعا وهزالا واما ما كان من ابي عمر الشاعر فانه أوسعه عقوبة ونكالا وأمر بتغريبه فشفع له عنده فى ان يتركه ببلده فاذن في ذلك غير انه خرج الامر من جهته ألا يكلمه أحد من العامة ولا من الخاصة أمر مناديه ان ينادي في جميع جهات قرطبة فاقام أبو عمر هذا كالميت الى ان مات موته الوفاة في آخر أيام ابي عامر وكان الحكم المستنصر مواصلا لغزو الروم ومن خالفه من المحاربين فاتصلت ولايته الى أن مات في صفر سنة ٣٦٦ فكانت مدة ولايته منذ بويع له الى أن مات ست عشر سنة واشهراً وانقرض عقبه بعد موت ابنه هشام المويد لم يعش له ولد غير

ولاية هشام المؤيد بن الحكم المستنصر

ثم ولى بعده ابنه هشام بن الحكم يكنى أبا الوليد أمه أم ولد اسمها صبح وسنه اذ ولى عشرة أعوام وأشهر فلم يزل متغيبا لا يظهر ولا ينفذ له أمر وكان الذي تغلب على أمره أولا وتولى حجابته وتنفيذ أموره وتدبير مملكته أبو عامر محمد بن عبد الله بن أبي عامر محمد بن الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن عامر المعافري القحطاني وكان أصل ابن أبي عامر هذا من المدينة المعروفة بالجزيرة الخضراء من قرية من أعمالها تسمي طرُّش على نهر يسمي وادي آروا إلا أنه كان شريف البيت قديم التعين ورد شابا الى قرطبة فطلب العلم والادب وسمع الحديث وتميّز فى ذلك وكانت له همة يحدث بها نفسه بادراك معالي الامور وتزيّد في ذلك حتى كان يحدث من يختص به بما يقع له من ذلك وله فى ذلك أخبار عجيبة قد أورد منها الشيخ الفقيه المحدث الضابط المتقن أبو عبد الله محمد بن أبي نصر الحميدي طرفا فى كتابه المترجم بالاماني الصادقة فمن جملتها قال الحميدي حدثني أبو محمد على بن أحمد بن حزم قال أخبرني أبو عبد الله محمد بن اسحق التميمي قال كان محمد بن أبي عامر نازلا عندي فى حجرة فوق بيتي فدخلت عليه فى بعض الليالي فى آخر الليل فوجدته قاعداً على الحال التي تركته عليها أول الليل حين فصلت عنه فقلت له ما أراك نمت الليلة قال لا قلت فما أسهرك قال فكرة عجيبة قلت فيما ذا كنت تفكر قال فكرت اذا أفضي اليَّ الأمر ومات محمد بن بشير القاضي بمن استبدله ومن الذي يقوم مقامه فجات الأندلس كلها بخاطري فلم أجد إلا رجلا واحداً قلت لعله محمد بن

السليم قال هو والله هو لشذ ماتفق خاطري وخاطرك قال الحميدي وأخبرني الفقيه أبو محمد على بن أحمد قال كان ابن أبي عامر يوما جالسا مع ثلاثة من أصحابه من طلبة العلم فقال لهم ليختر كل واحد منكم خطة أوليه إياها اذا أفضي الي الأمر فقال أحدهم توليني قضاء كورة رية وهي مالقة وأعمالها فانه يعجبني هذا التين الذي يجيء منها وقال الآخر توليني حسبة السوق فاني أحب هذا الاسفنج وقال الثالث اذا أفضي اليك الأمر فأمر أن يطاف بي قرطبة كلها على حمار ووجهي الى الذنب وأنا مطلي بالعسل ليجتمع عليّ الذباب والنحل وافترقوا على هذا فلما أفضى الأمر اليه كما تمنى بلغ كل واحد منهم امنيته على نحو ماطلب ولم تزل حاله تعلو منذ ورد قرطبة الى أن تعلق بوكالة السيدة صبح أم هشام المؤيد بن الحكم والنظر في أموالها وضياعها فزاد أمره فى الترقى معها الى أن مات الحكم المستنصر وكان هشام صغيرا كما ذكرنا وخيف الاضطراب فضمن لصبح سكون الحال وزوال الخوف واستقرار الملك لابنها وكان قوى النفس وساعدته المقادير وأمدته المرأة بالأموال فاستمال العساكر اليه وجرت أحوال عات قدمه فيها حتي صار صاحب التدبير والمتغلب على الامور وحجب هشام المؤيد وتلقب هو بالمنصور فأقام الهيبة فدانت له أقطار الأندلس كلها وأمنت به ولم يضطرب عليه شيء منها أيام حياته لعظم هيبته وفرط سياسته واستوزر جماعة منهم الوزير أبو الحسن جعفر بن عثمان الملقب بالمصحفي ومنهم الوزير الكاتب أبو مروان عبد الملك بن ادريس الجزيرى ومنهم الوزير أبو بكر محمد بن الحسن الزبيدى الذى اختصر كتاب العين وقد تقدم ذكره وكان قد ولاه شرطته وكان الزبيدى هذا من بطانة الحكم المستنصر ووجوه أصحابه

واستوزر أبا العلاء صاعد بن الحسن الربعي اللغوي البغدادي وله معه أخبار مستطرفة ولعلي سأورد طرفا منها فيما بعد ان شاء الله تعالى وكان محبا للعلوم مؤثراً للأدب مفرطا في اكرام من ينسب الى شيء من ذلك ويفد عليه متوسلا به بحسب حظه منه وطلبه له ومشاركته فيه ورد عليه الأندلس فى أيام امارته أبو العلاء صاعد بن الحسن الربعي المذكور آنفا فعظمت منزلته عنده ونال منه أموالا جمة وكان وروده عليه سنة ٣٨٠ أظن أصله من بلاد الموصل دخل بغداد فقرأ بها وكان عالما باللغة والآداب والأخبار سريع الجواب حسن الشعر طيب المعاشرة فكه المجالسة ممتعا فأكرمه المنصور وأفرط فى الاحسان اليه والافضال عليه وكان مع ذلك محسناً لطريقة السؤال حاذقاً فى استخراج الأموال طباً بلطائف الشكر أخبرني بعض مشايخ الأندلس باسناد له ان أبا العلاء دخل على المنصور أبي عامر يوماً فى مجلس أنسه وقد كان تقدم له أن اتخذ قميصاً من رقاع الخرائط التى كانت تصل اليه فيها الأموال منه فلبسه تحت ثيابه فلما خلا المجلس ووجد فرصة لما أراد تجرد وبقى فى القميص المتخذ من الخرائط فقال له ماهذا يا أبا العلاء فقال هذه الخرائط التي وصلت اليَّ فيها صلات مولانا اتخذها شعاراً وبكى واتبع ذلك من الشكر فصلا كان رواه فأعجب ذلك المنصور وقال له لك عندي مزيد وكان كما قال وألّف له أبو العلاء هذا كتباً فمنها كتاب سماه كتاب الفصوص على نحو كتاب النوادر لأبي علي القالي واتفق لهذا الكتاب من عجائب الاتفاق ان أبا العلاء دفعه حين كمل لغلام له يحمله بين يديه وعبر النهر نهر قرطبة فخانت الغلام رجله فسقط فى النهر هو والكتاب فقال فى ذلك بعض الشعراء

وهو أبو عبد الله محمد بن يحيي المعروف بابن العريف بيتاً مطبوعاً بحضرة المنصور وهو

قدغاص في البحر كتاب الفصوص　　وهكذا كل ثقيل يغوص

فضحك المنصور والحاضرون فلم يرع ذلك صاعداً ولا هاله وقال مرتجلا مجيباً لابن العريف

* عاد الى معدنه انما　　توجد في قعر البحار الفصوص

وكتاب آخر على نحو كتاب الخزرجي أبي السري سهل بن أبي غالب سماه كتاب الهجفجف بن غيدقان بن يثربي مع الخنّوت بنت مخرمة ابن أنيف وكتاب آخر في معناه سماه كتاب الجواس بن قطعل المذحجي مع ابنة عمه عفراء وهو كتاب مليح جداً انخرم أيام الفتن بالأندلس فنقصت منه أوراق لم توجد بعد وكان المنصور كثير الشغف بهذا الكتاب أعني الجواس حتي رتب له من يخرجه امامه كل ليلة ويقال ان أبا العلاء لم يحضر بعد موت المنصور مجلس أنس لأحد ممن ولى الأمور بعده من ولده وادعى وجعاً لحقه في ساقه لم يزل يتوكأ منه على عصى ويعتذر به في التخلف عن الحضور والخدمة الى أن ذهبت دولتهم وفي ذلك يقول في قصيدته المشهورة في المظفر أبي مروان عبد الملك بن المنصور أبي عامر محمد بن أبي عامر وهو الذي ولى بعد أبيه وأولها

اليك حدوت ناجية الركاب　　محملة أماني كالهضاب

وبعت ملوك أهل الشرق طراً　　بواحدها وسيدها اللباب

وفيها يقول

الى الله الشكية من شكاة　　رمت ساقي فحل بها مصابي

وأقصتني عن الملك المرجي　　وكنت أرم حالي باقترابي

ومما استحسن له قوله

حسبت المنعمين على البرايا ... فألفيت اسمه صدر الحساب

وما قدمته إلا كأني ... أقدم تالياً أم الكتاب

قال أبو عبد الله الحميدي أخبرني أبو محمد علي بن الوزير أبي عمر أحمد ابن سعيد بن حزم أنه سمع أبا العلاء ينشد هذه القصيدة بين يدي المظفر في عيد الفطر سنة ٣٩٦ قال أبو محمد وهو أول يوم وصلت فيه الى حضرة المظفر ولما رآني أبو العلاء استحسنها وأصغي اليها كتبها لي بخطه وأنفذها اليَّ انتهي كلام الحميدي وكان أبو العلاء كثيراً ماتستغرب له الألفاظ ويسئل عنها فيجيب بأسرع جواب على نحو مايحكى عن أبي عمر الزاهد المطرز غلام ثعلب ولولا ان أبا العلاء كان كثير المزح لحمل على التصديق في كل مايأتي به من ذلك وقد ظهر صدقه في بعض ماقال فمما يحكى عنه من هذا المعني انه دخل على المنصور يوماً وفي يد المنصور كتاب ورد عليه من عامل له في بعض البلاد اسمه ميدمان بن يزيد يذكر فيه القلب والتزبيل وهذه عندهم أسماء لمعاناة الأرض قبل الزرع فقال له أبا العلاء قال لبيك مولانا قال هل رأيت فيما وقع اليك من الكتب كتاب القوالب والدوالب لميدمان بن يزيد قال أي والله يامولانا رأيته ببغداد في نسخة لأبي بكر بن دريد بخط كأكرع النمل فى جوانبها علامات الوضَّاع هكذا هكذا فقال له أما تستحى أبا العلاء هذا كتاب عاملي ببلد كذا وكذا واسمه كذا يذكر فيه كذا (الذي تقدم ذكره) وانما صنعت لك هذه الترجمة مولدة من هذه الألفاظ التي في هذا الكتاب ونسبته الى عاملي لأختبرك فجعل يحلف له انه ما كذب وانه أمر وافق فقال له المنصور مرة أخري وقد قدم طبق فيه تمر ياأبا العلاء

ما التمركل في كلام العرب قال يقال تمركل الرجل تمركلا اذا التف في كسائه وله من هذا كثير ولكنه مع هذا كان عالماً قال أبو عبد الله الحميدي حدثني أبو محمد على بن أحمد قال حدثني الوزير أبو عبدة حسان بن مالك بن أبي عبدة عن أبي عبد الله العاصمي النحوي قال لما قدم صاعد بن الحسن اللغوى على المنصور أبى عامر محمد بن أبي عامر جمعنا معه فسألناه عن مسائل من النحو غامضة فقصر فيها فلما رآه ابن أبي عامر كذلك قال دعوه هو من طبقتي في النحو أنا أناظره قال ثم سألنا صاعد فقال مامعني قول امرئ القيس

كأن دماء الهاديات بنحره عصارة حناء بشيب مرجَّل

فقلنا هذا واضح وانما وصف فرساً أشهب عقدت عليه الوحش فتطاير دمها على صدره فجاء هكذا فقال صاعد سبحان الله أنسيتم قوله قبل هذا

كميت يزل اللبد عن حال متنه كما زلت الصفواء بالمتنزل

قال فبهتنا كأنا لم نقرأ هذا البيت قط واضطررنا الى سؤاله عنه فقال انما عني أحد وجهين إما أنه يغشى صدره بالعرق وعرق الخيل أبيض فجاء مع الدم كالشيب وإما شيء كانت العرب تصنعه وهو انها كانت تسم باللبن الحار في صدور الخيل فيتمعط ذلك الشعر وينبت مكانه شعر أبيض فأيما عني من أحد هذين الوجهين فالوصف مستقيم قال أبو عبد الله وحدثنا أبو محمد على بن أحمد قال حدثنى أبو الخيار مسعود ابن سليمان بن مفلت الفقيه ان أبا العلاء صاعداً سأل جماعة من أهل الأدب في مجلس المنصور أبي عامر عن قول الشماخ بن ضرار

دار الفتاة التى كنا نقول لها ياظبية عطلا حسانة الجيد

يدني الحمامة منها وهي لاهية من يانع المرد قنوان العناقيد

فقالوا هي الحمامة تنزل على غصن الاراكة أو الكرمة فتنفله فتتمكن الظبية منه فترعاه فأنكر ذلك عليهم صاعد وقال ان الحمامة في هذا البيت هي المرأة وهي اسم من أسمائها فأراد أن هذه الجارية المشبهة بالظبية اذا نظرت في المرأة أدنت المرأة منها في المنظر شعرها الذي هو كعناقيد من يانع الكرم أو المرد فرأته ومن عجائب الدنيا التى لا يكاد يتفق مثلها انّ صاعد بن الحسن اللغوي هذا أهدى الى المنصور أبي عامر ايلا وكتب معه بهذه الابيات

يا حرز كل مخوف وأمان كـــل مشرد ومعز كـل مذلل
جدواك إن تخصص به فلأهله وتعم بالاحسان كل مؤمل
كالغيث طبق فاستوى في وبله شعث البلاد مع المراد المقبل
الله عونك ما أبرك بالهدى وأشدّ وقعك بالضلال المشعل
ما إن رأت عيني وعلمك شاهد شروي علائك في معم مخول
أندى بمقربة كسرحان الغضا ركضاً وأوغل في مثار القصطل
مولاي مؤنس غربتي متخطفي من ظفر أيامي ممنع معقلي
عبد نشلت بضبعه وغرسته في نعمة أهدى اليك بايّل
سميته غرسية وبعثته في حبله ليتاح فيه تفاؤلى
فلئن قبلت فتلك أسنى نعمة أسدى بها ذو منحة وتطول
صبحتك غادية السرور وجللت ارجاء ربعك بالسحاب المخضل

فقضي الله فى سابق علمه ان غرسية بن شانجه من ملوك الروم وكان امنع من النجم أسر في ذلك اليوم بعينه الذي بعث فيه صاعد بالايل وسماه غرسية متفائلا باسره وهكذا فليكن الجد للصاحب والمصحوب وكان أسر غرسية هذا في ربيع الآخر سنة ٣٨٥ خرج

أبو العلاء صاعد هذا من الاندلس أيام الفتن وقصد صقلية فمات بها في قريب من سنة ٤١٠ فيم بلغني عن سن عالية ولم يزل المنصور أبو عامر محمد بن أبي عامر طول أيام مملكته مواصلا لغزو الروم مفرطاً في ذلك لا يشغله عنه شيء وكان له مجلس في كل أسبوع يجتمع فيه أهل العلم للمناظرة بحضرته ما كان مقيما بقرطبة وبلغ من افراط حبه للغزو انه ربما خرج للمصلي يوم العيد فحدثت له نية في ذلك فلا يرجع الى قصره بل يخرج بعد انصرافه من المصلى كما هو من فوره الى الجهاد فتتبعه عساكره وتلحق به أولا فأولا فلا يصل الى أوائل بلاد الروم الا وقد لحقه كل من أراده من العساكر غزا في أيام مملكته نيفاً وخمسين غزوة ذكرها أبو مروان بن حيان كلها في كتابه الذي سماه (بالمآثر العامرية) وإستقصاها كلها بأوقاتها وذكر آثاره فيها وفتح فتوحا كثيرة ووصل الى معاقل قد كانت امتنعت على من كان قبله وملأ الاندلس غنائم وسبيا من بنات الروم وأولادهم ونسائهم وفي أيامه تغالى الناس بالاندلس فيما يجهزون به بناتهم من الثياب والحلى والدور وذلك لرخص أثمان بنات الروم فكان الناس يرغبون في بناتهم بما يجهزونهن به مما ذكرنا ولولا ذلك لم يتزوج أحد حرة بلغني انه نودي على ابنة عظيم من عظماء الروم بقرطبة وكانت ذات جمال رائع فلم تساو أكثر من عشرين ديناراً عامرية وكان في أكثر زمانه لا يخل بأن يغزو غزوتين في السنة وكان كلما انصرف من قتال العدو الي سرادقه فيأمر بأن ينفض غبار ثيابه التى حضر فيها معمعة القتال وان يجمع ويتحفظ به فلما حضرته المنية أمر بما اجتمع من ذلك ان ينثر على كفنه اذا وضع فى قبره وكانت وفاته بأقصي ثغور المسلمين بموضع يعرف بمدينة

سالم مبطونا فصحت له الشهادة وتاريخ وفاته سنة ٣٩٣ فكانت مدة امارته نحواً من سبع وعشرين سنة وكان معافري النسب وأمه تميمية اسمها بريهة بنت يحيي ابن زكريا التميمي كان يعرف بابن برطل ولذلك قال فيه أبو عمر أحمد بن محمد بن دراج الشاعر المعروف بالقسطلي من قصيدة له

تلاقت عليه من تميم ويعرب شموس تلالا في العلا وبدور

من الحميريين الذين أكفهم سحائب تهمي بالندي وبحور

أبو عمر هذا من فحول شعراء الاندلس والمجيدين منهم ذكره أبو منصور الثعالبي في كتاب اليتيمة وقال فيه القسطلي عندهم كأبى الطيب بصقع الشام هذا قول أبى منصور أو معناه وكنت أنا في أيام شبيبتي مولعا بشعره كثير الدراسة له فلم يبق اليوم على خاطري منه شيء أصلا خلا بيتين هما ما ارتجل في بعض مجالسه وهما

أجد الكلام اذا نطقت فانما عقل الفتى في لفظه المسموع

كالمرء يختبر الاناء بصوته فيرى الصحيح به من المصدوع

ثم تقلد الوزارة والحجابة بعد ابن أبي عامر هذا ابنه أبو مروان عبد الملك بن أبي عامر وتلقب بالمظفر فيجري في الغزو والسياسة عن هشام المؤيد على سنن أبيه وكانت أيامه أعيادا في الخصب والامان دامت سبع سنين الى ان مات وسارت الفتن بعده ثم تقلد ما كان يتقلده من بعده أخوه عبد الرحمن وتلقب بالناصر فخلط وتسمى ولي العهد ولم يزل مضطرب الامور مدة أربعة أشهر الي أن قام عليه محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر لثمان عشرة ليلة خلت من جمادي الآخر سنة ٣٩٩ فخلع هشاما المؤيد وأسلمت الجيوش عبد الرحمن بن محمد بن

أبي عامر فقتل وصلب وكان محمد بن هشام بن عبد الجبار المقدم ذكره لما قام تلقب بالمهدي وبقي الامر كذلك الي أن قتل * محمد بن هشام ابن عبد الجبار ورد هشام المؤيد الي الامر وذلك يوم الاحد السابع من ذي الحجة سنة ٤٠٠ وبقي كذلك وجيوش البربر تحاصره مع سليمان بن الحكم بن سليمان واتصل ذلك الى خمس خلون من شوال سنة ٤٠٣ فدخل البربر مع سليمان قرطبة وأخلوها من أهلها حاشي المدينة وبعض الربض الشرقي وقتل هشام المؤيد بن الحكم المستنصر وكان كما ذكرنا في طول دولته متغلباً عليه لاينفذ له أمر وغلب عليه في هذا الحصار أعني حصار البربر واحد بعد واحد من العبيد بعد محمد ابن أبي عامر المنصور وولديه عبد الملك الظافر وعبد الرحمن الناصر

﴿ولاية محمد بن هشام بن عبد الجبار المهدي﴾

ثم قام محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر على هشام بن الحكم في جمادي الآخرة كما تقدم فخلعه وتسمي بالمهدى وكان يكني أبا الوليد أمه أم ولد اسمها مزنة وكان له ولد اسمه عبيد الله وكان مولد المهدي في سنة ٣٦٦ وقتل وله من العمر سبع وثلاثون سنة ولم يزل والياً الى أن قام عليه يوم الخميس لخمس خلون من شوال سنة ٣٩٩ هشام بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر مع البربر فحاربه بقية يومه والليلة الآتية وصبيحة اليوم الثاني فقام عامة أهل قرطبة مع محمد المهدي فانهزم البربر وأسر هشام بن سليمان فأتي به الى المهدى فضرب عنقه واجتمع البربر عند ذلك فقدموا على أنفسهم سليمان بن الحكم بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر وهو ابن أخي هشام القائم المذكور فنهض بالبربر

الى الثغر واستجاش النصاري وأتي بهم الى باب قرطبة فبرز اليه جماعة أهل قرطبة فلم تكن الا ساعة حتي قتل من أهل قرطبة نيف وعشرون ألف رجل في جبل هنالك يعرف بجبل قنطش وهي الوقعة المشهورة ذهب فيها من الخيار والفقهاء وأئمة المساجد والمؤذنين خلق كثير واستتر محمد بن هشام المهدي أياماً ثم لحق بطايطلة وكانت الثغور كلها من طرطوشة الى الاشبونة باقية على طاعته ودعوته واستجاش بالافرنج وأتى بهم الى قرطبة فبرز اليه سليمان بن الحكم مع البربر الي موضع يقرب قرطبة على نحو بضعة عشر ميلا يدعي دار البقر فانهزم سليمان والبربر واستولي المهدي على قرطبة ثم خرج بعد أيام الى قتال جمهور البربر وكانوا قد عاثوا بالجزيرة فالتقو بموضع يعرف بوادى أره فكانت الهزيمة على محمد بن هشام المهدى وانصرف الى قرطبة فوثب عليه العبيد مع واضح الصقلي فقتلوه وردوا هشاماً المؤيد كما تقدم قبل فكانت مدة ولاية المهدى منذ قام الى أن قتل*عشرة أشهر من جملتها الستة الأشهر التي كان فيها سليمان بقرطبة وكان هو بالثغر وانقرض عقبه فلا عقب له

﴿ ولاية سليمان بن الحكم بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر المتلقب بالمستعين بالله ﴾

قام سليمان بن الحكم يوم الجمعة لست خلون من شوال سنة ٣٩٩ وتلقب بالمستعين بالله ثم دخل قرطبة كما تقدم في ربيع الآخر سنة ٤٠٠ فتلقب حينئذ بالظافر بحول الله مضافا الي المستعين بالله ثم خرج عنها في شوال من السنة بعينها فلم يزل يجول بعساكر البربر معه في بلاد

الاندلس يفسد وينهب ويقفر المدائن والقري بالسيف والغارة لايبقي البربر معه على صغير ولا كبير ولا امرأة الى أن دخل قرطبة في صدر شوال سنة ٤٠٣ وكان من جملة جنده رجلان من ولد الحسن بن علي ابن أبي طالب يسميان القاسم وعليا ابنا حمود بن ميمون بن احمد بن علي بن عبيد الله بن عمر بن ادريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن ابن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم فجعلهم قائدين على المغاربة ثم ولي أحدهما سبتة وطنجة وهو علي الاصغر منهما وولي القاسم الجزيرة الخضراء وبين الموضعين المجاز المعروف بالزقاق وسعة البحر هنالك اثنا عشر ميلا وقد ذكر فيما قبل وافترق العبيد اذ دخل البربر مع سليمان قرطبة فملكوا مدنا عظيمة وتحصنوا فيها فراساهم على بن حمود المذكور وقد حدث له طمع في ولاية الاندلس فكتب اليهم يذكر لهم أن هشام بن الحكم اذ كان محاصراً بقرطبة كتب اليه يوليه عهده فاستجابوا له وبايعوه فزحف من سبتة الي مالقة وفيها عامر بن فتوح الفائقي مولى فائق مولي الحكم المستنصر فاستجاب له وأدخله مالقة فتملكها على ابن حمود وأخرج عنها عامر بن فتوح ثم زحف بمن معه من البربر وجمهور العبيد الي قرطبة فخرج اليه محمد بن سليمان في عساكر البربر فانهزم محمد بن سليمان ودخل قرطبة على ابن حمود وقتل سليمان بن الحكم صبراً ضرب عنقه بيده يوم الأحد لتسع بقين من المحرم سنة ٤٠٧ وقتل أباه الحكم بن سليمان بن الناصر أيضاً في ذلك اليوم وهو شيخ كبير له اثنتان وسبعون سنة وكانت مدة ولاية سليمان منذ دخل قرطبة الى ان قتل ثلاثة أعوام وثلثة أشهر وأياما وكان قد ملكها قبل ذلك ستة أشهر على ماتقدم وكانت مدته منــذ قام مع البربر الى ان قتل سبعة

أعوام وثلثة أشهر وأياماً وانقطعت دولة بني أمية في هذا الوقت وذكرهم على المنابر في جميع أقطار الاندلس الى ان عادت بعد ذلك في الوقت الذى نذكره ان شاء الله تعالى وكانت ام سليمان هـذا أم ولد اسمها ظبية ومولده سنة ٣٥٤ ترك من الولد ولى عهده محمداً لم يعقب والوليد ومسلمة وكان سليمان أديباً شاعراً قال الحميدى أنشدني أبو محمد على ابن أحمد قال أنشدني فتي من ولد اسمعيل ابن اسحاق المنادى الشاعر كان يكتب لابي جعفر أحمـد بن سعيد بن الدب قال أنشـدنى أبو جعفر قال أنشدني أمير المؤمنين سليمان الظافر لنفسه قال أبو محمد وأنشدنيها قاسم بن محمد المرواني قال أنشدنيها وليد ابن محمد الكاتب لسليمان الظافر أمير المؤمنين

عجباً يهاب الليث حد سناني	وأهاب لحظ فواتر الاجفان
وأقارع الاهوال لا متهيباً	منهاسوي الاعراض والهجران
وتملكت نفسي ثلاث كالدما	زهر الوجوه نواعم الابدان
ككواكب الظلماء لحن لناظر	من فوق أغصان على كثبان
هذى الهلال وتلك بنت المشتري	حسناً وهذي أخت غصن البان
حاكمت فيهن السلو الى الصبي	فقضي بسلطان على سلطان
فأبحن من قلبي الحمى وثنينني	فى عز ملكي كالاسير العانى
لاتعذلوا ملـكاتذلل للهوى	ذل الهوى عز وملك ثان
ماضر انى عبدهن صبابة	وبنوا الزمان وهن من عبدانى
ان لم أطع فيهن سلطان الهوى	كلفا بهن فلست من مروان
واذا الكريم أحب أمن الفه	خطب القلى وحوادث السلوان
واذا تجارى في الهوى أهل الهوى	عاش الهوى فى غبطة وأمان

وانما قصد المستعين بهذه الابيات معارضة الابيات التي عملها العباس بن الاحنف على لسان هرون الرشيد فنسبت اليه وهي

ملك الثلاث الآنسات عناني　　وحللن من قلبي بكل مكان

مالى تطاوعنى البرية كلها　　وأطيعهن وهن في عصياني

ماذاك الا أن سلطان الهوى　　وبه قوين أعز من سلطاني

أبو محمد الذى يحدث عنه الحميدى هو أبو محمد على بن أحمد بن سعيد ابن حزم بن غالب بن صلح بن خلف بن معدان بن سفيان بن يزيد الفارسي مولى يزيد بن أبي سفيان بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف القرشي قرئ على نسبه هذا بخطه على ظهر كتاب من تصانيفه أصل أبائه الادنين من قرية من اقليم لبلة من غرب الاندلس سكن هو وأبوه قرطبة وكان أبوه من وزراء المنصور محمد بن أبي عامر ووزراء ابنه المظفر بعده وكان هو المدبر لدولتيهما وكان ابنه ابو محمد الفقيه وزيرا لعبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار بن الناصر الملقب بالمستظهر بالله أخي المهدى المذكور أنفا ثم انه نبذالوزارة واضطرحها اختيارا وأقبل على قراءة العلوم وتقييد الآثار والسنن فنال من ذلك مالم ينل أحد قبله بالاندلس وكان على مذهب الامام أبي عبد الله الشافعى رحمه الله أقام على ذلك زمانا ثم انتقل الي القول بالظاهر وأفرط فى ذلك حتى أربي على أبي سليمان داود الظاهرى وغيره من أهل الظاهر وله مصنفات كثيرة جليلة القدر شريفة المقصد في أصول الفقه وفروعه على مهيعه الذى يسلكه ومذهبه الذى يتقلده وهو مذهب داود بن على بن خلف الاصبهاني الظاهرى ومن قال بقوله من أهل الظاهر ونفاة القياس والتعليل بلغني عن غير واحد من علماء

الاندلس ان مبلغ تصانيفه في الفقه والحديث والاصول والنحل والملل وغير ذلك من التاريخ والنسب وكتب الادب والرد على المخالفين له نحو من أربع مائة مجلد تشتمل على قريب من ثمانين ألف ورقة وهذا شيء ما علمناه لاحد ممن كان في مدة الاسلام قبله الا لابي جعفر محمد ابن جرير الطبري فانه أكثر أهل الاسلام تصنيفا فقد ذكر أبو محمد عبد الله بن محمد بن جعفر الفرغاني في كتابه المعروف بالصلة وهو الذي وصل به تاريخ أبي جعفر الطبري الكبير ان قوما من تلاميذ أبي جعفر لخصوا أيام حياته منذ بلغ الحلم الي أن توفي في سنة ٣١٠ وهو ابن ست وثمانين سنة ثم قسموا عليها أوراق مصنفاته فصار لكلا يوم أربع عشرة ورقة وهذا لا يتهيأ لمخلوق الا بكريم عناية الباري تعالي وحسن تأييده له ولأبى محمد بن حزم بعد هذا نصيب وافر من علم النحو واللغة وقسم صالح من قرض الشعر وصناعة الخطابة فمن شعره

هل الدهر الا ما عرفنا وأدركنا　　فجائعه تبقي ولذته تفنا
اذا أمكنت فيه مسرة ساعة　　تولت كمر الطرف واستخلفت حزنا
الي تبعات في المعاد وموقف　　نود لديه اننا لم نكن كنا
حصلنا على هم واثم وحسرة　　وفات الذي كنا نقر به عينا
حنين لما ولى وشغل بما أتى　　وغم لما يرجي فعيشك لا يهنا
كأن الذى كنا نسر بكونه　　اذا حققته النفس لفظ بلا معنا

وله من قصيدة طويلة

انا الشمس في جو العلوم منيرة　　ولكن عيبي أن مطلعي الغرب
ولو انني من جانب الشرق طالع　　لجد على ما ضاع من ذكري النهب
ولي نحوا كناف العراق صبابة　　ولا غرو ان يستوحش الكلف الصب

فان ينزل الرحمن رحلي بينهم فحينئذ يبدو التأسف والكرب
فكم قائل أغفلته وهو حاضر واطلب ما عنه تجيء به الكتب
هنالك يدري ان للبعد قصة وان كساد العلم آفته القرب

ومنها في الاعتذار عن مدحه لنفسه

ولكن لي في يوسف خير اسوة وليس على من بالنبي ائتسي ذنب
يقول وقال الحق والصدق انني حفيظ عليهم ما على صادق عتب

ومن المختار له قوله

لا يشمتن حاسدي ان نكبة عرضت فالدهر ليس على حال بمترك
ذو الفضل كالتبر طورا تحت ميقعة وتارة في ذري تاج على ملك

ومن ذلك قوله

لئن أصبحت مرتحلا بشخص فروحي عندكم أبداً مقيم
ولكن للعيان لطيف معنى له سأل المعاينة الكليم

ومن أجود ما احفظ له بيتان قالهما في رجل نمام

انم من المرآة في كل ما درى واقطع بين الناس من قضب الهند
كان المنايا والزمان تعلما تحيله في القطع بين ذوي الود

وجد بخطه انه ولد يوم الاربعاء بعد صلاة الصبح وقبل طلوع الشمس آخر يوم من شهر رمضان سنة ٣٨٤ توفي رحمه الله في سلخ شعبان من سنة ٤٥٦ وانما أوردت هذه النبذة من أخبار هذا الرجل وان كانت قاطعة للنسق مزيحة عن بعض الغرض لانه أشهر علماء الاندلس اليوم وأكثرهم ذكراً في مجالس الرؤساء وعلى ألسنة العلماء وذلك لمخالفته مذهب مالك بالمغرب واستبداده بعلم الظاهر ولم يشتهر به قبله عندنا أحد ممن علمت وقد كثر أهل مذهبه واتباعه عندنا بالاندلس اليوم

ولاية على بن حمود الناصر

ثم ولي على بن حمود على ماتقدم وتسمي بالخلافة وتلقب بالناصر ثم خالف عليه العبيد الذين كانوا بايعوه وقدموا عبد الرحمن بن محمد بن عبد الملك بن عبد الرحمن الناصر ولقبوه بالمرتضى وزحفوا به الى أغرناطة وهي من البلاد التي تغلب عليها البربر ثم ندموا على تقديمه لما رأوا من صرامته وحدة نفسه وخافوا من عواقب تمكنه وقدرته فانهزموا عنه ودسوا عليه من قتله غيلة وخفي أمره وبقي على بن حمود بقرطبة مستمر الامر عامين غير شهرين الى أن قتله صقالبة له في الحمام سنة ٤٠٨ وكان له من الولد يحيي وادريس

ولاية القاسم بن حمود المأمون

ثم ولي بعده أخوه القاسم بن حمود وكان أسن منه بعشرة أعوام وكان وادعاً أمن الناس معه وكان يذكر عنه انه تشيع ولكنه لم يظهر ذلك ولا غير على الناس عادة ولا مذهبا وكذلك سائر من ولي منهم بالاندلس فبقي القاسم كذلك الى شهر ربيع الاول سنة ٤١٢ فقام عليه ابن أخيه يحيي بن على بن حمود بمالقة فهرب القاسم عن قرطبة بلا اقتتال وصار بأشبيلية وزحف ابن أخيه المذكور من مالقة بالعساكر ودخل قرطبة بلا اقتتال وتسمى بالخلافة وتلقب بالمعتلي فبقي كذلك الى أن اجتمع للقاسم أمره واستمال البربر وزحف بهم الى قرطبة فدخلها سنة ٤١٣ وهرب يحيي بن على الى مالقة فبقي القاسم بقرطبة شهوراً واضطرب أمره وغلب ابن أخيه يحيي على المدينة المعروفة بالجزيرة الخضراء وهي كانت معقل القاسم وبها كانت امرأته وذخائره وغلب ابن أخيه الثاني ادريس

ابن علي صاحب سبتة على طنجة وهي كانت عدة القاسم يلجأوا اليها ان رأي مايخافه بالاندلس وقام عليه جماعة أهل قرطبة بالمدينة وغلقوا أبوابها دونه وحاصرهم نيفا وخمسين يوما وأقام الجمعة في مسجد خارج قرطبة يعرف بمسجد بن ابي عثمان أثره باق الى اليوم ثم ان أهل قرطبة زحفوا الى البربر فانهزم البربر عن القاسم وخرجوا من الارباض كلها في شعبان سنة ٤١٤ ولحقت كل طائفة من البربر ببلد غلبت عليه وقصد القاسم أشبيلية وبها كان ابناه محمد والحسن فلما عرف أهل أشبيلية خروجه عن قرطبة ومجيئه اليهم طردوا ابنيه ومن كان معهما من البربر وضبطوا البلد وقدموا على أنفسهم ثلاثة من أكابر البلد أحدهم القاضي أبو القاسم محمد بن اسمعيل ابن عباد اللخمي ومحمد بن يريم الالهاني ومحمد بن الحسن الزبيدي ومكثوا كذلك أياما مشتركين في سياسة البلد وتدبيره ثم استبد القاضى أبو القاسم محمد بن اسمعيل بن عباد بالامر والتدبير وصار الآخران من جملة الناس ولحق القاسم بشريش واجتمع البربر على تقديم ابن أخيه يحيي فزحفوا الى القاسم فتحصروه حتى صار في قبضه ابن أخيه وانفرد ابن أخيه يحيي بولاية البربر وبقى القاسم أسيراً عنده وعند أخيه ادريس بعده الى ان مات ادريس فقتل القاسم خنقاً سنة ٤٣١ وحمل الي ابنه محمد ابن القاسم بالجزيرة فدفنه هناك فكانت ولاية القاسم منذ تسمي بالخلافة بقرطبة الى أن أسره ابن أخيه ستة أعوام ثم كان مقبوضاً عليه ست عشرة سنة عند ابني أخيه يحيي وادريس الى أن قتل كما ذكرنا في أول سنة ٤٣١ ومات وله ثمانون سنة وله من الولد محمد والحسن أمهما أميرة بنت الحسن بن قنون بن ابراهيم بن محمد ابن القاسم بن ادريس بن ادريس بن عبد الله بن الحسن بن على بن

ولاية يحيي بن على المعتلى

اختلف في كنيته فقيل أبو القاسم وقيل أبو محمد وأمه لبونة بنت محمد ابن الحسن ابن القاسم المعروف بكنون بن ابراهيم بن محمد بن القاسم بن ادريس ابن ادريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبي طالب وكان الحسن بن كنون من كبار ملوك الحسنيين وشجعانهم ومردتهم وطغاتهم المشهورين فتسمي يحيي بالخلافه بقرطبة سنة ٤١٣ كما ذكرنا ثم هرب عنها الى مالقة سنة ٤١٤ كما وصفنا ثم سعي قوم من المفسدين في رد دعوته الى قرطبة في سنة ١٦ فتم لهم الامل الا انه تأخر عن دخولها باختياره واستخلف عليها عبد الرحمن ابن عطاف اليفرني فبقي الامر كذلك الي سنة ١٧ ثم قطعت طاعته جماعة البربر وسلموا اليه الحصون والقلاع والمدن وعظم أمره بقرمونة فصار محاصرا لاشبيلية طامعاً في أخذها فخرج يوما وهو سكران الى خيل ظهرت من أشبيلية بقرب قرمونة فلقيها وقد كمنوا له فلم يكن بأسرع من ان قتلوه وذلك يوم الاحـد لسبع خلون من المحرم سنة ٤٢٧ وكان له من الولد الحسن وادريس لامي ولد

ولاية عبد الرحمن بن هشام المستظهر

ولما انهزم البرابر عن قرطبة مع أبي القاسم كما ذكرنا اتفق رأي أهل قرطبة على رد الامر الي بني أمية فاختاروا منهم ثلاثة وهم عبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر أخو المهدي المذكور أنفاً وسليمان بن المرتضى المذكور أنفاً ومحمد بن عبد الرحمن بن هشام

ابن سليمان القائم على المهدي بن الناصر ثم استقر الامر لعبد الرحمن ابن هشام بن عبد الجبار فبويع بالخلافة لثلاث عشرة ليلة خلت لرمضان سنة ٤١٤ وله اثنتان وعشرون سنة وتلقب بالمستظهر وكان مولده سنة ٣٩٢ في ذي القعدة يكنى أبا المطرف وأمه أم ولد اسمها غاية ثم قام عليه أبو عبد الرحمن محمد بن عبد الرحمن بن عبيد الله بن عبد الرحمن الناصر مع طائفة من أراذل العوام فقتل عبد الرحمن ابن هشام وذلك لثلاث بقين من ذي القعدة سنة ٤١٤ المؤرخة ولا عقب له وكان في غاية الادب والبلاغة والفهم ورقة النفس كذا قال أبو محمد على بن أحمد وكان خبيراً به لانه وزر له وقال الوزير أبو عامر أحمد بن عبد الملك بن شهيد كان المستظهر شاعراً ويستعمل الصناعة فيجيد وهو القائل في ابنة عمه

حمامة بيت العبشميين رفرفت	فطرت اليها من سراتهم صقراً
تقل الثريا أن تكون لها يداً	ويرجو الصباح أن يكون لها نحراً
واني لطعان اذا الخيل أقبلت	جوانبها حتى ترى جونها شقراً
ومكرم ضيفي حين ينزل ساحتي	وجاعل وفري عند سائله وفراً

وهي طويلة قالها أيام خطبته لابنة عمه أم الحكم بنت سليمان المستعين. قال أبو عامر وكان متهماً في أشعاره ورسائله حتى كتب أبياتاً ليعلى بن أبي زيد حين وفد عليه ارتجالا فعجب أهل التمييز منه وأما أنا فقد كنت بلوته وكان ورود يعلى فجأة ولم يبرح من مجلسه حتى ارتجلا الامان وانا والله اخاف ان يزل فأجاد وزاد هذا آخر كلام أبي عامر

﴿ولاية محمد بن عبد الرحمن المستكفي بالله﴾

ولي محمد بن عبد الرحمن المذكور وله ثمان وأربعون سنة وأشهر

لان مولده في سنة ٣٦٦ وكنيته أبو عبد الرحمن أمه أم ولد اسمها حوراء وكان أبوه قد قتله ابن أبي عامر في أول دولة هشام المؤيد لسعيه في القيام وطلبه للأمر وكان محمد بن عبد الرحمن هذا يلقب بالمستكفي بالله وكانت ولايته ستة أشهر وأياماً وكان في غاية السخف وركاكة العقل وسوء التدبير وزر له رجل حائك يعرف بأحمد بن خالد هو كان المدبر لأمره والمدبر لدولته فقل في دولة يديرها حائك ولم يزل كذلك الى ان خلع وقتل وزيره المذكور في داره دخل عليه عوام أهل قرطبة نهاراً فتولوه بالحديد الي ان برد وخلعوا المستكفي بالله وأخرجوه عن قرطبة بعد ان أقام ثلاثة أيام مسجوناً لا يصل اليه طعام ولا شراب ثم نفوه كما ذكرنا فلحق بالثغور ورجع الأمر الي يحيي بن على الفاطمي وانتهي المستكفي المذكور من الثغر الى قرية تعرف بشمنت بالقرب من مدينة سالم ومعه أحد قواده وهو عبد الرحمن بن محمد بن السليم من ولد سعيد بن المنذر القائد المشهور ايام عبد الرحمن الناصر فكره هذا القائد التمادي معه فاستدعى المستكفي غداءه فعمد القائد الي دجاجة فدهنها له بعصارة نبت يقال له البيش وهو كثير ببلاد الاندلس وخصوصاً بتلك الجهة فلما اكلها المستكفي مات مكانه فغسله وكفنه وصلى عليه ودفنه فقبره هناك ولا عقب له ثم أقام يحيي بن علي الفاطمي في الولاية نافذ الأمر الا انه لم يدخل قرطبة وانما كان مقامه بقرمونة كما قدمنا الي ان قتل في التاريخ الذي تقدم ذكره

﴿ ولاية هشام المعتد بالله ﴾

ولما انقطعت دعوة يحيي بن على الفاطمي عن قرطبة في التاريخ

الذى ذكرنا أجمع رأي أهل قرطبة على رد الامر الى بني أمية وكان عميدهم فى ذلك والذى تولى معظمه وسعي فى تمامه الوزير أبو الحزم جهور بن محمد بن جهور بن عبيد الله بن محمد بن الغمر بن يحيي بن عبد الغافر بن أبي عبدة وقد كان ذهب كل من ينافس فى الرياسة ويحب فى الفتنة بقرطبة فراسل جهور من كان معه على رأيه من أهل الثغور والمتغلبين هنالك على الامور وداخلهم فى هذا الامر فاتفقوا بعد مدة طويلة على تقديم أبي بكر هشام بن محمد بن عبد الملك بن عبد الرحمن الناصر وهو أخو المرتضى المذكور آنفاً وكان هشام هذا مقيما بحصن يدعي البنت من الثغور عند أبي عبد الله محمد بن عبد الله بن قاسم القائد المتغلب بها فبايعوه فى شهر ربيع الاول سنة ٤١٨ وتلقب بالمعتد بالله وكان مولده فى سنة ٣٦٤ وكان أسن من أخيه المرتضى بأربعة أعوام وسنه يوم بويع له أربع وخمسون سنة أمه أم ولد اسمها عاتب فبقي ينتقل في الثغور ثلاثة أعوام لا يستقر بموضع ودارت هنالك فتن عظيمة بين الرؤساء المتغلبين واضطراب شديد الى أن اتفق أمرهم واجتمع رأيهم على ان يسير الى قرطبة قصبة الملك فسار اليها ودخلها في الثامن من ذي الحجة سنة ٤٢٠ فلم يقم بها الا يسيراً حتي قامت عليه طائفة من الجند فخلع وجرت أمور يطول شرحها من جملتها اخراج المعتد بالله هذا من قصره هو وحشمه والنساء حاسرات عن أوجههن حافية أقدامهن الى أن أدخلوا الجامع الاعظم على هيئة السبايا فاقاموا هنالك أياما يتعطف عليهم بالطعام والشراب الى ان أخرجوا عن قرطبة ولحق هشام ومن معه بالثغور بعد اعتقال بقرطبة فلم يزل يجول في الثغور الي ان لحق بابن هود المتغلب على

مدينة لاردة وسرقسطة وافراغة وطرطوشة وما والى تلك الجهات فاقام عنده هشام الى أن مات في سنة ٤٢٧ ولا عقب له فهشام هذا آخر ملوك بني أمية بالاندلس نسبه هو هشام بن محمد بن عبد الملك بن عبد الرحمن الناصر بن محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن الحكم ابن هشام بن عبد الرحمن الداخل بن معاوية بن هشام بن عبد الملك ابن مروان بن الحكم وبخلعه انقطعت الدعوة لبني أمية وذكرهم على المنابر بجميع أقطار الاندلس والعدوة الى الآن فهذا آخر ما انتهى الينا من أخبار بني أمية بالاندلس على شرط التلخيص

﴿ ذكر أخبار الاندلس بعد انتقال الدعوة الاموية عنها ومن ملكها من الملوك الى وقتنا هذا وهو سنة ٦٢١ ﴾

ولما انقطعت دعوة بني أمية كما ذكرنا بالاندلس ولم يبق من عقبهم من يصلح للامارة ولا من تليق به الرياسة استولى على تدبير ملك قرطبة جهور بن محمد بن جهور ويكنى أبا الحزم وقد تقدم ذكر نسبه في ترجمة هشام المعتد وأبو الحزم هذا قديم الرياسة شريف البيت كان أباؤه وزراء الدولة الحكمية والعامرية وهو موصوف بالدهاء وبعد الغور وحصافة العقل وحسن التدبير ولم يدخل من دهائه في الفتن الكائنة قبل ذلك كان يتصاون عنها ويظهر النزاهة والتدين والعفاف فلما خلا له الجو وأصفر الفناء وأقفر النادي من الرؤساء وأمكنته الفرصة وثب عليها فتولى أمرها واضطلع بحمايتها ولم ينتقل الى رتبة الامارة ظاهراً جريا على ما قدمنا من اظهار سنن العفاف بل دبرها تدبيراً لم يسبق اليه وذلك أنه جعل نفسه ممسكا للموضع الى أن يجيء

من يتفق الناس على امارته فيسلم اليه ذلك ورتب البوابين والحشم على تلك القصور على ما كانت عليه أيام الدولة ولم يحول عن داره اليها وجعل ما يرتفع من الاموال السلطانية بأيدي رجال رتبهم لذلك وهو المشرف عليهم وصير أهل الاسواق جندا له وجعل ارزاقهم رؤس أموال تكون بايديهم محصاة عليهم يأخذون ربحها ورؤس الاموال باقية محفوظة يؤخذون بها ويراعون في كل وقت كيف حفظهم لها وفرق السلاح عليهم وأمرهم بتفرقته فى الدكاكين والبيوت حتى اذا دهمهم أمر فى ليل أو نهار كان سلاح كل واحد معه حيث كان من بيته أو دكانه وكان أبو الحزم هذا يشهد الجنائز ويعود المرضى جاريا على طريقة الصالحين وهو مع ذلك يدبر الامور تدبير الملوك المتغلبين وكان آمنا وادعا وقرطبة فى أيامه حرما يأمن فيه كل خائف واستمر امره على ذلك الي أن مات في غرة صفر سنة ٤٣٥ فكانت مدة تدبيره منذ استولى الى أن مات أربع عشرة سنة وأشهراً ثم ولي ما كان يتولي من أمر قرطبة بعده ابنه أبو الوليد محمد بن جهور فجري في السياسة وحسن التدبير على سنن أبيه غير مخل بشيء من ذلك الي ان مات أبو الوليد المذكور في سلخ شوال من سنة ٤٤٣ فغلب عليها بعد أمور جرت الامير الملقب بالمامون ابن ذي النون صاحب طايطلة فدبرها مدة يسيرة الى أن مات وخلف فيها بعده من البربر رجل يعرف بابن عكاشة اظن اسمه موسى فكان بها الي ان غلبه عليها وأخرجه منها الامير الظافر بحول الله أبو القسم محمد بن عباد على ما يأتي بيانه ان شاء الله تعالي فهذا آخر اخبار قرطبة وكونها داراً للملك وبعد غلبة المعتمد عليها صارت تبعاً لاشبيلية

فصل وأما أحوال الحسنيين فانه لما قتل يحيي بن على كما ذكرنا لسبع خلون من المحرم سنة ٤٢٧ رجع أبو جعفر أحمد بن موسى المعروف بابن بقنة ونجا الخادم الصقلبي وهما مدبرا دولة الحسنيين فأتيا مالقة وهي دار مملكتهم فخاطبا أخاه ادريس بن على وكان بسبتة وكان يملك معها طنجة واستدعياه فأتي امالقة وبايعاه بالخلافة على أن يجعل حسن بن يحيي المقتول مكانه بسبتة ولم يبايعا واحداً من ابني يحيي وهما إدريس وحسن لصغرهما فأجابهما الي ذلك ونهض نجا مع حسن هذا الي سبتة وطنجة وكان حسن أصغر ابني يحيي ولكنه اسدّهما رأيا وتلقب ادريس بالمتأيد فبقى كذلك الي سنة ٣٠ أو ٣١ فتحركت فتنة وحدث للقاضي أبي القاسم محمد بن اسمعيل بن عباد صاحب اشبيلية أمل في التغلب على تلك البلاد فأخرج ابنه اسمعيل في عسكر مع من أجابه من قبائل البربر ونهض الي قرمونة فحاصرها ثم نهض الي حصن يدعي اشونة وحصن آخر يدعي استجة فاخذهما وكانا بيد محمد بن عبد الله رجل من قواد البربر من بني برزال فاستصرخ محمد بن عبد الله ادريس بن على الحسني وقبائل صنهاجة فامده صاحب صنهاجة بنفسه وأمده ادريس بعسكر يقوده ابن بقنة احمد بن موسى مدبر دولته فاجتمعوا مع محمد بن عبد الله ثم غلبت عليهم هيبة اسمعيل بن محمد بن اسمعيل بن عباد قائد عسكر أبيه القاضي أبي القاسم فافترقوا وانصرف كل واحد منهم الي بلده فبلغ ذلك اسمعيل بن محمد فقوى أمله ونهض بعسكره قاصداً طريق صاحب صنهاجة وقدر صاحب صنهاجة انه سيلحقه فوجه الي ابن بقنة يسترجعه وانما كان فارقه قبل ذلك بساعة فرجع اليه والتقت العساكر فما كان الا ان تراءى الجمعان فولي عسكر ابن عباد منهزما

واسلموا اسمعيل فكان أول مقتول وحمل راسه الي ادريس بن على الحسنى وقدكان ادريس استشعر بالهلاك فنزل عن مالقه الي جبل بباشتر وهو الذى قام فيه ابن حفصون المتقدم الذكر فتحصن به وهو مريض مدنف فلم يعش الا يومين ومات وترك من الولد يحي قتل بعده ومحمداً الملقب بالمهدى وحسنا المتلقب بالسامي وكان له ابن هو أكبر بنيه اسمه على مات في حياة أبيه وترك ابنا اسمه عبد الله أخرجه عمه ونفاه لماولي وقد كان يحي بن على المذكور قبل قد اعتقل ابني عمه محمداً والحسن ابني القاسم بن حمود بالجزيرة وكان الموكل بهما رجلا من المغاربة يعرف بأبى الحجاج فحين وصل اليه خبر قتل يحي جمع من كان في الجزيرة من المغاربة والسودان وأخرج محمداً والحسن وقال هذان سيداكم فسارع أجمعهم الي الطاعة لهما لشدة ميل أبيهما الى السودان قديماً وايثاره لهم وانفرد محمد بالامر دون الحسن وملك الجزيرة الا أنه لم يتسم بالخلافة وبقى معه أخوه الحسن مدة الي أن حدث له رأي في التنسك فلبس الصوف وتبرأ عن الدنيا وخرج الى الحج مع أخته فاطمة بنت القاسم زوجة يحي بن على المعتل فلما مات ادريس كما تقدم رام ابن بقنة احمد بن موسي ضبط الأمر لولده يحي بن ادريس المعروف بحيين ثم لم يجسر على ذلك الجسر التام وتحير وتردد ولما وصل خبر قتل اسمعيل بن عباد وموت ادريس ابن على الي نجا الخادم الصقابي وكان بسبتة استخلف عليها من وثق به من الصقالبة وركب البحر هو وحسن بن يحي الى مالقة ليرتب الامر له فلما وصلا الي مرسي مالقة خارت قوي ابن بقنة وهرب الي حصن كمارش على ثمانية عشر ميلا من مالقة ودخل حسن ونجا مالقة واجتمع اليهما من بها من البربر فبايعوا حسن بن يحي بالخلافة وتسمى المستعلى

ثم خاطب ابن بقنة وآمنه فلما رجع اليه قبض عليه وقتله وقتل ابن عمه
يحيي بن ادريس ورجع نجا الي سبتة وطنجة وترك مع الحسن رجلا
كان من التجار يعرف بالسطيفى كان نجا كثير الثقة به فبقى الأمر كذلك
نحو من عامين وكان الحسن بن يحيي متزوجا بابنة عمه ادريس فقيل انها
سمته أسفا على أخيها فلما مات احتاط الصطيفى على الامر واعتقل
ادريس بن يحيي وكتب الى نجا بالخبر وكان حسن بن صغير عند نجا
فقيل انه اغتاله أيضا فقتله فالله أعلم ولم يعقب حسن بن يحيي فاستخلف
نجا على سبتة وطنجة من وثق به من الصقالبة عند وصول الخبر اليه
وركب البحر الى مالقة فلما وصل اليها زاد في الاحتياط على ادريس بن يحيي
وأكد اعتقاله وعزم على محو أمر الحسنيين جملة وأن يضبط تلك
البلاد لنفسه فدعا البربر الذين كانوا جند البلد وكشف الامر اليهم
علانية ووعدهم بالاحسان فلم يجدوا لمساعدته بدأ فوافقوه في الظاهر
وعظم ذلك في أنفسهم باطناً ثم جمع عسكره ونهض الى الجزيرة ليستأصل
محمد بن القاسم فحاربه أياما ثم أحس بفتورنيات الذين معه فرأى أن
يرجع الي مالقة فاذا حصل فيها نفي من يخاف غائلته منهم واستصلح
سائرهم واستدعي الصقالبة من حيث ماأمكنه ليقوي بهم على غيرهم
وأحس البربر بهذا منه فاغتالوه في الطريق من قبل أن يصل الي مالقة
فقتل وهو على دابته في مضيق صار فيه وقد تقدمه اليه الذى أراد
الفتك به وفر من كان معه من الصقالبة بانفسهم ثم تقدم فارسان من
الذين غدروا به يركضان حتى وردا مالقة فدخلا وهما يقولان البشري
البشرى فلما وصلا الى السطيفي وضع سيفيهما عليه فقتلاه ثم وافي العسكر
فاستخرجوا ادريس بن يحيي من محبسه فقدموه وبايعوه بالخلافة وتسمي

بالعالى فظهرت منه أمور متناقضة منها أنه كان أرحم الناس قلباً كثير الصدقات يتصدق كل يوم بخمسمائة ورد كل مطرود عن وطنه اليه ورد عليهم ضياعهم وأملاكهم ولم يسمع بغياً فى أحد من الرعية وكان أديب اللقاء حسن المجلس يقول من الشعر الأبيات الحسان ومع هذا فكان لا يصحب ولا يؤثر الأكل ساقط رذل ولا يحجب حرمه عنهم وكل من طلب منه حصناً من حصون بلاده ممن يجاوره من صنهاجة أو بني يفرن أعطاه اياه وكتب اليه أمير صنهاجة أن يسلم اليه وزيره ومدبر أمره وصاحب أبيه وجده موسى بن عفان السبتى فلما أخبره بأن الصنهاجي كتب اليه يطلبه منه وانه لابد من تسليمه اليه قال له موسى بن عفان افعل ماتؤمر ستجدنى ان شاء الله من الصابرين فبعث به الى الصنهاجي فقتله وكان قد اعتقل ابنى عمه محمداً وحسناً ابني ادريس بن على فى حسن ايرش فلما رأى ثقته الذى في الحصن اضطراب أرائه خالف عليه وقدم ابن عمه محمد بن ادريس فلما بلغ ذلك السودان المرتبين في قصبة مالقه نادوا بدعوة ابن عمه محمد بن ادريس وراسلوه بالمجيء اليهم وامتنعوا بالقصبة واجتمعت العامة الي ادريس بن يحيي واستأذنوه في حرب القصبة والدفاع عنه ولو أذن لهم ماثبت السودان فواق ناقة فأتى فقال لهم الزموا منازلكم ودعونى فتفرقوا عنه وجاء بن عمه فسلم عليه وبويع بالخلافة وتسمي بالمهدى وولى أخاه عهده وسماه السامي واعتقل ابن عمه ادريس ابن يحيي في الحصن الذى كان هو معتقلا فيه وظهرت من محمد بن ادريس هذا شهامة وجرأة شديدة هابه بها جميع البربر وأشفقوا منه وراسلوا المرتب في الحصن الذى فيه ادريس بن يحيي هذا واستمالوه فأجابهم وقام بدعوة ادريس وقد كان ادريس أول ولايته بعد قتل نجا كما تقدم قد ولي سبتة وطنجة رجلين

من برغواطة قبيلة من قبائل البربر من عبيد أبيه اسم أحدهما رزق الله والآخر سكات فلما خلع ادريس كما تقدم بقيا حافظين لمكانيهما فلما قام كما ذكرنا بدعوته صاحب حصن أيرش لم يظهر محمد مبالاة بذلك بل ثبت ثباتاً شديداً وكانت والدته تشجعه وتقوي منته وتشرف على الحرب بنفسها فتحسن الى من أبلى فلما رأي البربر شدة عزمه وثباته فتّ ذلك في أعضادهم وتخلوا عن ادريس بن يحيي ورأوا أن يبعثوا به الي سبتة وطنجة الى البرغواطيين اللذين ذكرنا وقد كان ادريس جعل ابنه عندهما في حضانتهما فلما وصل اليهما أظهرا تعظيمه ومخاطبته بالخلافة الا أنهما حجباه حجابا شديداً ولم يدعا أحداً من الناس يصل اليه فتلطف قوم من أكابر البربر حتى وصلوا اليه وقالوا له ان هذين العبدين قد غلبا عليك وحالا بينك وبين أمرك فأذن لنا نكفيكهما فأبى ثم أخبرهما بذلك فنفيا أولئك القوم وأخرجا ادريس بن يحيي وبعثا به الي الاندلس وتمسكا بولده لصغره الا أنهما في كل ذلك يخطبان لادريس بالخلافة ثم ان محمد بن ادريس أنكر من أخيه الملقب بالسامي أمرا فنفاه الي العدوة فصار في جبال غمارة وهي بلاد تنقاد لهؤلاء الحسنيين وأهلها يعظمونهم تعظيما مفرطاً ثم ان البرابرة خاطبوا محمد بن القاسم الكائن بالجزيرة الخضراء واجتمعوا اليه ووعدوه بالنصر فاستفزه الطمع وخرج اليهم فبايعوه بالخلافة وتسمي بالمهدى وصار الأمر في غاية الأخلوقة والفضيحة أربعة كلهم يتسمي بأمير المؤمنين في رقعة من الأرض مقدارها ثلاثون فرسخاً في مثلها فأقاموا معه أياما ثم افترقوا عنه الي بلادهم ورجع محمد خاسئاً الي الجزيرة ومات لايام فقيل أنه مات غما وترك نحواً من ثمانية ذكور فتولى أمر الجزيرة بعده ابنه القاسم بن محمد بن القاسم الا أنه لم يتسم بالخلافة وبقى

محمد بن ادريس بمالقة الي أن مات سنة ٤٤٥ وكان ادريس بن يحيي
المعروف بالعالي عند بني يفرن بتاكرونه فلما توفي محمد بن ادريس بن يحيي
ردت العامة ادريس العالي الى مالقة واستولي عليها وهو آخر من
ملكها من الحسنيين فلما مات أجمع البربر رأيهم على نفي الحسنيين عن
الأندلس الي العدوة والاستبداد بضبط ما كانوا يملكونه من البلاد
ففعلوا ذلك وتم لهم ماأرادوا منه فكانت الجزيرة الخضراء وما والاها
من القري الي تاكرونة ومالقة وما والاها أيضاً الي حصن منكب
واغرناطة وأعمالها فى ملك البربر وملكوا مع ذلك بعض اعمال اشبيلية
كحصن اشونة وقرمونة وشلبر ولم يزالوا كذلك الي أن خرج من أيديهم
ما كانوا يملكونه من أعمال اشبيلية المعتضد بالله أبو عمرو عباد بن محمد
ابن اسمعيل بن عباد اللخمي ثم أتم ابنه أبو القاسم المعتمد على الله ما ابتدأه
أبوه من ذلك وهذا آخر أخبار الحسنيين وما يتعلق بها حسب ماأورده
أبو عبد الله محمد بن أبى نصر الحميدى عليه عولت فى أكثر ذلك ومن
كتابه نقلت خلا مواضع تبينت غلطه فيها أصلحتها جهد ماأقدر وعلى
الله قصد السبيل وهو المسؤل فى الهداية قولاً وعملاً

﴿فصل يتضمن ذكر أحوال الاندلس بعد انقطاع الدعوة الاموية عنها على الاجمال لا على التفصيل﴾

وأما حال سائر الأندلس بعد اختلال دعوة بنى أمية فان أهلها تفرقوا
فرقاً وتغلب فى كل جهة منها متغلب وضبط كل متغلب منهم ماتغلب عليه
تقسموا ألقاب الخلافة فمنهم من تسمي بالمعتضد وبعضهم تسمي بالمأمون

وآخر تسمى بالمستعين والمقتدر والمعتصم والمعتمد والموفق والمتوكل الي غير ذلك من الالقاب الخلافية وفي ذلك يقول أبو على الحسن بن رشيق

مما يزهدني في أرض أندلس　　سماع مقتدر فيها ومعتضد
القاب مملكة في غير موضعها　　كالهر يحكي انتفاخا صولة الاسد

وأنا ذاكر ان شاء الله في هذا الفصل أسماءهم والجهات التي تغلبوا عليها على نحو ما شرطت من الاجمال اذ لكل منهم أخبار وسير ووقائع لو بسطت القول فيها خرج هذا التصنيف عن حد التلخيص الي حيز الاسهاب وأيضاً فالذي منعني عن استيفاء أخبارهم أو أخبار أكثرهم قلة ما صحبني من الكتب واختلال معظم محفوظاتي فأولهم في الربع الجنوبي رجل اسمه سليمان بن هود تلقب بالمؤتمن وتلقب ابنه بالمقتدر وتلقب ابن ابنه بالمستعين كانوا ابنو هود هؤلاء يملكون من مدن هذه الجهة الجنوبية طرطوشة وأعمالها وسرقسطة وأعمالها وأفراغة ولاردة وقلعة أيوب هذه اليوم كلها بأيدي الافرنج يملكها صاحب برشنونة لعنه الله وهي البلاد التي تسمي أرغن حد هذا الاسم آخر مملكة البرشنوني مما يلي بلاد أفرنسة وتجاور بني هود هؤلاء رجل آخر اسمه عبد الملك بن عبد العزيز يكني أبا مروان قديم الرياسة هو أحق ملوك الاندلس بالتقدم لشرف بيته لا أعلم له لقباً كان يملك بلنسية وأعمالها وكان يلي الثغر رجل آخر يقال له أبو مروان ابن رزين كان يملك الي أول أعمال طليطلة وكان الذى يملك طليطلة وأعمالها الأمير أبو الحسن يحيي بن اسمعيل بن عبد الرحمن بن اسمعيل ابن عامر بن مطرف بن موسي بن ذى النون وأبو الحسن هذا أقدم ملوك الأندلس رياسة وأشرفهم بيتاً وأحقهم بالتقدم تلقب بالمأمون كان أبوه اسمعيل هو الذى تغلب على طليطلة من قبل واستبد بملكها أول

الفتنة ولم يزل أبو الحسن هذا يملك طليطلة وأعمالها كما ذكرنا الي أن
أخرجه عنها الادفنش لعنه الله واستولي عليها النصاري في شهور سنة ٣٧٦
فهي قاعدة ملك النصاري الي وقتنا هذا وكان يملك قرطبة وأعمالها الي
أول الثغر جهور بن محمد بن جهور المتقدم ذكره ونسبه الي أن غلبه
عليها صاحب طليطلة اسمعيل ابن ذى النون والد أبي الحسن المذكور
آنفا وكان يملك أشبيلية وأعمالها القاضي أبو القاسم محمد بن اسمعيل بن
عباد اللخمي تغلب عليها بعد أن أخرج عنها القاسم بن حمود وابنيه محمدا
والحسن على ماسيأتي الايماء اليه ان شاء الله عز وجل وكان يملك مالقة
والجزيرة واغرناطة وما والي ذلك البربر بنو برزال الصنهاجيون على
ما قدمناه وتغلب على المرية وأعمالها زهير العامرى الخادم ثم ملكها
بعده خيران العامري أيضا الخادم ثم تغلب عليها بعدهما أبو يحيي محمد
ابن معن بن صمادح المتلقب بالمعتصم فلم يزل فيها الى أن أخرجه عنها
يوسف بن تاشفين اللمتونى في شهور سنة ٤٨٤ وكان يملك دانية وأعمالها
مجاهد العامرى أصله رومي مولى لابى عامر محمد بن أبى عامر ثم ملكها
بعده ابنه علىّ بن مجاهد وتلقب بالموفّق لاأعلم في المتغلبين على جهات
الاندلس أصون منه نفسا ولا أطهر عرضا ولاأنقي ساحة كان لا يشرب
الخمر ولا يقرب من يشربها وكان مؤثراً للعلوم الشرعية مكرما لاهلها
توفي قبل فتنة المرابطين بيسير لا أحقق تاريخ وفاته وكان يملك الثغر
الذي من الجهة الشمالية من الاندلس وبعض المدن المجاورة للبحر الاعظم
ابن الافطس المتلقب بالمظفر ذهب عنى اسمه ثم كان له ابن اسمه عمر
يكنى أبا محمد تلقب بالمتوكل على الله كان يملك بطايوس وأعمالها ويابرة
وشنترين والأشبونة كان المظفر هذا أحرص الناس على جمع علوم الأدب

خاصة من النحو واللغة والشعر ونوادر الاخبار وعيون التاريخ
انتخب مما اجتمع له من ذلك كتاباً كبيراً ترجمه باسمه على نحو الاختيارات
للروحي وعيون الاخبار لأبي محمد بن قتيبة جاء هذا الكتاب في نحو
من عشرة أجزاء ضخمة وقفت على أكثره ترجمته المظفري وكان لابنه
المتوكل قدم راسخة في صناعة النظم والنثر مع شجاعة مفرطة وفروسية
تامة وكان لا يغب الغزو ولا يشغله عنه شيء واتصلت مملكته الى أن
قتله المرابطون أصحاب يوسف بن تاشفين وقتلوا ولديه الفضل والعباس
صبراً ضربوا أعناقهم فى غرة سنة ٤٨٥ وكانت أيام بني المظفر بغرب
الاندلس أعياداً ومواسم وكانوا ملجأ لأهل الآداب خلدت فيهم ولهم
قصائد شادت مآثرهم وأبقت على غابر الدهر حميد ذكرهم وفيهم يقول
الوزير الكاتب الابرع ذو الوزارتين أبو محمد عبد المجيد بن عبدون
من أهل مدينة يابرة قصيدته الغرا ، لا بل عقيلته العذرا ، التى أزرت
على الشعر وزادت على السحر ، وفعلت فى الألباب فعل الخمر • فجلت
عن أن تسامى • وأنفت من أن تضاهى • فقل لها النظير • وكثر اليها
المشير • وتساوي فى تفضيلها وتقديمها بأقل وجرير • فلله هي من عقيلة
خدر قربت بسهولتها حتى أطمعت • وبعدت حتى عزت فامتنعت •
أوردتها فى هذا المصنف وان كان فيها طول مخرج عن الحد الذى
رسمته • مخل بالتلخيص الذي شرطته لصحة مبانيها • ورشاقة ألفاظها
وجودة معانيها • سلك فيها أبو محمد رحمه الله طريقة لم يسبق اليها •
وورد شريعة لم يزاحم عليها • فلذلك قل مثلها لا بل عدم • وعز نظيرها
فما توهم ولا علم • وهي

الدهر يفجع بعد العين بالأثر فما البكاء على الأشباح والصور

أنهاك أنهاك لا آلوك موعظة ... عن نومة بين ناب الليث والظفر
فالدهر حرب وأن أبدي مسالمة ... والبيض والسود مثل البيض والسمر
ولا هوادة بين الرأس تأخذه ... يد الضراب وبين الصارم الذكر
فلا تغرنك من دنياك نومتها ... فما صناعة عينيها سوي السهر
ما لليالي أقال الله عثرتنا ... من الليالي وخانتها يد الغير
في كل حين لها في كل جارحة ... منا جراح وان زاغت عن النظر
تسر بالشيء لكن كي تغر به ... كالأيم ثار الى الجاني من الزهر
كم دولة وليت بالنصر خدمتها ... لم تبق منها وسل ذكراك من خبر
هوت بدارا وفات غرب قاتله ... وكان عضباً على الأملاك ذا أثر
واسترجعت من بني ساسان ما وهبت ... ولم تدع لبني يونان من أثر
وألحقت أختها طسما وعاد على ... عاد وجرهم منها ناقض المرر
وما أقالت ذوي الهيآت من يمن ... ولا أجارت ذوي الغايات من مضر
ومزقت سبأ في كل قاصية ... فما التقى رائح منهم بمبتكر
وأنفذت في كليب حكمها ورمت ... مهلهلا بين سمع الارض والبصر
ولم ترد على الضايل صحته ... ولا ثنت أسداً عن ربها حجر
ودوخت آل ذبيان وأخوتهم ... عبساً وغضت بني بدر على النهر
وألحقت بعدى بالعراق على ... يد ابنه أحمر العينين والشعر
وأهلكت أبرويزا بابنه ورمت ... بيزدجرد الى مرو فلم يحر
وبلغت يزدجرد الصين واختزلت ... عنه سوي الفرس جمع الترك والخزر
ولم ترد مواضي رستم وقنا ... ذي حاجب عنه سعداً في أبنة الغير
يوم القليب بنو بدر فنوا وسعي ... قليب بدر بمن فيه الى سقر
ومزقت جعفراً بالبيض واختلست ... من غيله حمزة الظلام للجزر

وأشرفت بخبيب فوق فارعة ... وألصقت طلحة الفياض بالعفر
وخضبت شيب عثمان دما وخطت ... الى الزبير ولم تستحي من عمر
ولا رعت لأبي اليقظان صحبته ... ولم تزوده الا الضيح في الغمر
وأجزرت سيف أشقاها أبا حسن ... وأمكنت من حسين راحتي شمر
وليتها اذ فدت عمراً بخارجة ... فدت علياً بمن شاءت من البشر
وفي ابن هند وفي ابن المصطفى حسن ... أتت بمعضلة الألباب والفكر
فبعضنا قائل ما اغتاله أحد ... وبعضنا ساكت لم يؤت من حصر
وأردت ابن زياد بالحسين فلم ... يبؤ بشسع له قد طاح او ظفر
وعممت بالظبي فودى أبي أنس ... ولم ترد الردى عنه قنا زفر
وأنزلت مصعباً من رأس شاهقة ... كانت بها مهجة المختار في وزر
ولم تراقب مكان ابن الزبير ولا ... راعت عياذته بالبيت والحجر
وأعملت في لطيم الجن حيلتها ... واستوسقت لأبي الذبان ذي البخر
ولم تدع لأبي الذبان قاضبه ... ليس اللطيم لها عمرو بمنتصر
وأحرقت شلو زيد بعد ما احترقت ... عليه وجداً قلوب الآي والسور
وأظفرت بالوليد بن اليزيد ولم ... تبق الخلافة بين الكأس والوتر
حبابة حب رمان أتيح لها ... وأحمد قطرته نفحة القطر
ولم تعد قطب السفاح نابئة ... عن رأس مروان أو أشياعه الفجر
وأسبلت دمعة الروح الأمين على ... دم بفخ لآل المصطفى هدر
وأشرقت جعفراً والفضل ينظره ... والشيخ يحيي بريق الصارم الذكر
وأخفرت في الأمين العهد وانتدبت ... لجعفر بابنه والأعبد الغدر
وما وفت بعهود المستعين ولا ... بما تأكد للمعتز من مرر
وأوثقت في عراها كل معتمد ... وأشرقت بقذاها كل مقتدر

وروعت كل مأمون ومؤتمن ... وأسلمت كل منصور ومنتصر
وأعثرت آل عباد لعا لهم ... بذيل زباء لم تنفر من الذعر
بني المظفر والأيام لانزلت ... مراحل والوري منها على سفر
سحقا ليومكم يوما ولا حملت ... بمثله ليلة فى غابر العمر
من للاسرة أو من للاعنة أو ... من للاسنة يهديها الى الثغر
من للظبي وعوالى الخط قدعقدت ... أطراف ألسنها بالعي والحصر
وطرقت بالمنايا السود بيضهم ... فأعجب بذاك ومامنهاسوي الذكر
من لليراعة أو من للبراعة أو ... من للسماحة أو للنفع والضرر
أو دفع كارثة أو ردع رادفة ... أو قمع حادثة تعيي على القدر
ويب السماح وويب البأس لو سلما ... وحسرة الدين والدنيا على عمر
سقت ثري الفضل والعباس هامية ... تعزى اليهم سماحا لا الي المطر
ثلاثة ما رأي السعدان مثلهم ... وأخبر ولو عززا فى الحوت بالقمر
ثلاثة ما ارتقي النسران حيث رقوا ... وكل ماطار من نسر ولم يطر
ثلاثة كذوات الدهر منذ نأوا ... عنى مضى الدهر لم يربع ولم يحر
ومر من كل شيء فيه أطيبه ... حتي التمتع بالآصال والبكر
أين الجلال الذي غضت مهابته ... قلوبنا وعيون الأنجم الزهر
أين الاباء الذى أرسوا قواعده ... على دعائم من عز ومن ظفر
أين الوفاء الذي أصفو شرائعه ... فلم يرد أحد منها على كدر
كانوا رواسى أرض الله منذ مضوا ... عنها استطارت بمن فيها ولم تقر
كانوا مصابيحها فمذ خبوا عثرت ... هذى الخليقة يا ألله فى سدر
كانوا اشجي الدهر فاستهوتهم خدع ... منه باحلام عاد فى خطى الحضر
ويل امه من طلوب الثار مدركه ... منهم بأسد سراة في الوغي صبر

من لى ولا من بهم ان أظلمت نوب ... ولم يكن ليلها يفضي الى سحر

من لى ولا من بهم أن عطلت سنن ... وأخفت ألسن الآثار والسير

من لى ولا من بهم ان طبقت محن ... ولم يكن وردها يدعو الى صدر

على الفضائل الا الصبر بعدهم ... سلام مرتقب للأجر منتظر

يرجو عسي وله فى أختها أمل ... والدهر ذو عقب شتى وذو غير

قرطت آذان من فيها بفاضحة ... على الحسان حصى الياقوت والدرر

سيارة فى أقاصي الارض قاطعة ... شقاشقا هدرت فى البدو والحضر

مطاعة الأمر في الالباب قاضية ... من المسامع مالم يقض من وطر

وكان أبو محمد هذا يكتب للمتوكل على الله ونمت حاله معه وهو أحد كتاب المغرب وممن جمع منهم فضيلتى الكتابة والشعر على انه مقل من النظم لم يثبت له منه الا يسير بالنسبة الى غزارة آدابه ونباهة قدره وسيمر من مختار رسائله في موضعه من هذا الكتاب ما يدل على ما وصفناه به حكي عن نفسه رحمه الله انه كان بين يدى مؤدبه وسنه اذ ذاك ثلاث عشرة سنة فعن للمؤدب ان قال

* الشعر خطة خسف * وجعل يردد هذا القول قال الوزير أبو محمد رحمه الله فكتبت فى لوحي مجيزاً له * لكل طالب عرف *

ثم خطر لى بيت ثان وهو

للشيخ عيبة عيب ... وللفتى ظرف ظرف

قال فنظر الى المؤدب وقال ياعبد المجيد ما الذى تكتب فاريته اللوح فلما رآه لطمني وعرك أذني وقال لا تشتغل بهذا وكتب البيتين عنده

ومن غزارة حفظه رحمه الله ما حدث الوزير الاجل أبو بكر محمد بن الوزير أبي مروان عبد الملك بن أبي العلاء زهر بن عبد الملك بن زهر

وكان أبو بكر هذا قد مات عن سن عالية نيف على الثمانين قال بينا أنا قاعد فى دهليز دارنا وعندى رجل ناسخ أمرته أن يكتب لى كتاب الاغانى فجاء الناسخ بالكراريس التى كتبها فقلت له أين الاصل الذى كتبت منه لأقابل معك به قال ما أتيت به معى فبينا أنا معه فى ذلك أن دخل الدهليز علينا رجل بذ الهيئة عليه ثياب غليظة أكثرها صوف وعلى رأسه عمامة قد لاثها من غير اتقان لها فحسبته لما رأيته من بعض أهل البادية فسلم وقعد. وقال لي يابنى استأذن لى على الوزير أبي مروان فقلت له هو نائم هذا بعد أن تكلفت جوابه غاية التكلف حملنى على ذلك نزوة الصبى وما رأيت من خشونة هيئة الرجل ثم سكت عنى ساعة وقال ماهذا الكتاب الذى بأيديكما فقلت له ما سؤالك عنه فقال أحب أن أعرف اسمه فانى كنت أعرف أسماء الكتب فقلت هو كتاب الاغانى فقال الى أين بلغ الكاتب منه قلت بلغ موضع كذا وجعلت أتحدث معه على طريق السخرية به والضحك على قالبه فقال وما لكاتبك لا يكتب قلت طلبت منه الاصل الذى يكتب منه لأعارض به هذه الاوراق فقال لم أجيء به معى فقال يابنى خذ كراريسك وعارض قلت بماذا وأين الاصل قال كنت احفظ هذا الكتاب فى مدة صباي قال فتبسمت من قوله فلما رأى تبسمى قال يا بنى أمسك علىّ قال فأمسكت عليه وجعل يقرأ فوالله ان أخطأ واواً ولا فاء قرأ هكذا نحواً من كراسين ثم اخذت له فى وسط السفر وآخره فرأيت حفظه فى ذلك كله سواء فاشتد عجبى وقمت مسرعا حتى دخلت على أبي فأخبرته بالخبر ووصفت له الرجل فقام كما هو من فوره وكان ملتفا برداء ليس عليه قميص وخرج حاسر الرأس حافى القدمين لا يرفق على نفسه وانا بين

يديه وهو يوسعني لوما حتي ترامي على الرجل وعانقه وجعل يقبل رأسه ويديه ويقول يا مولاى أعذرني فوالله ما أعلمني هذا الخلف الا الساعة وجعل يسبني والرجل يخفض عليه ويقول ما عرفني وأبي يقول هبه ما عرفك فما عذره في حسن الادب ثم أدخله الدار وأكرم مجلسه وخلا به فتحدثنا طويلا ثم خرج الرجل وأبي بين يديه حافياً حتي بلغ الباب وأمر بدابته التي يركبها فأسرجت وحلف عليه ليركبنها ثم لا ترجع اليه أبداً فلما انفصل قلت لابي من هذا الرجل الذي عظمته هذا التعظيم قال لي اسكت ويحك هذا أديب الاندلس وامامها وسيدها في علم الآداب هذا أبو محمد عبد المجيد بن عبدون أيسر محفوظاته كتاب الاغاني وما حفظه في ذكاء خاطره وجودة قريحته سمعت هذه الحكاية من أبي بكر بن زهر رحمه الله حين دخلت عليه وقد وفد عن مراكش لتجديد بيعة أمير المؤمنين أبي عبد الله محمد بن أبي يوسف في شهور سنة ٥٩٥ وأنشدني الوزير أبو بكر المذكور في هذا التاريخ لنفسه بعد أن سألني عن اسمي وعن نسبي فتسميت وانتسبت وتسمى لي هو رحمه الله وانتسب من غير استدعاء تواضعا منه وشرف نفس وتهذيب خلق قدس الله روحه وسامحه

لاح المشيب على رأسي فقلت له ... الشيب والعيب لا والله ما اجتمعا
يا ساقي الكاس لا تعدل الي بها ... فقد هجرت الحميا والحميم معا

وأنشدني رحمه الله وقال احفظ عني

اني نظرت الي المرآة اذ جليت ... فأنكرت مقلتاى كلما رأتا
رأيت فيها شييخا لست أعرفه ... وكنت أعرف فيها قبل ذاك فتاً

هذا ما أنشدني لنفسه بلفظه رحمه الله وله شعر كثير أجاد في أكثره

وأما الموشحات خاصة فهو الامام المقدم فيها وطريقته هى الغاية القصوى التي يجرى كل من بعده اليها هو آخر المجيدين فى صناعتها ولولا أن العادة لم تجر بايراد الموشحات فى الكتب المجلدة المخلدة لأوردت له بعض ما بقى على خاطرى من ذلك

ثم رجع بنا القول الي ذكر أحوال الأندلس فهؤلاء الرؤساء الذين ذكرنا اسماء هم هم الذين ملكوا الاندلس بعد الفتنة وضبطوا نواحيها واستبد كل رئيس منهم بتدبير ما تغلب عليه من الجهات وانقطعت الدعوة للخلافة وذكر اسمها على المنابر فلم يذكر خليفة أموي ولا هاشمي بقطر من أقطار الاندلس خلا أيام يسيرة دعي فيها لهشام المؤيد ابن الحكم المستنصر بمدينة اشبيلية وأعمالها حسب ما اقتضته الحيلة واضطر اليه التدبير ثم انقطع ذلك حسب ما يأتي بيانه ان شاء الله تعالي فاشبهت حال ملوك الاندلس بعد الفتنة حال ملوك الطوائف من الفرس بعد قتل دارا بن دارا ولم يزالوا كذلك وأحوال الاندلس تضعف وثغورها تختل ومجاوروها من الروم تشتد أطماعهم ويقوى تشوفهم الي أن جمع الله الكلمة ورأب الصدع ونظم الشمل وحسم الخلاف وأعز الدين وأعلى كلمة الاسلام وقطع طمع العدوّ بيمن نقيبة أمير المسلمين وناصر الدين أبي يعقوب يوسف بن تاشفين اللمتونى رحمه الله ثم استمر على ذلك ابنه عليّ وأعادا الى الاندلس معهود أمنها وسالف نضارة عيشها فكانت الاندلس فى أيامهما حرما آمناً وأول دعاء دعي للخلافة العباسية أبقاها الله على منابر الاندلس فى أيامهما ولم تزل الدعوة العباسية وذكر خلفائها على منابر الاندلس والمغرب الي أن انقطعت بقيام ابن تومرت مع المصامدة فى بلاد السوس على ما يأتي بيانه ان شاء الله عز وجل

(فصل) واذ ذكرنا أحوال ملوك الأندلس المتغلبين عليها بعد الفتنة على ما شرطنا من الاجمال فلنرجع الي ذكر مملكة اشبيلية خصوصا من جزيرة الاندلس وذكر من ملكها فبذلك يتصل نسق الاخبار عما نريده ويتطرق لنا القول فيما نقصده لان ملك اشبيلية هو كان السبب في دخول يوسف بن تاشفين مع المرابطين الاندلس على ما سيذكر ان شاء الله تعالي فنقول أما أحوال اشبيلية فانها كانت في طاعة الفاطميين أعني علي بن حمود والقاسم بن حمود ويحيي بن علي بن حمود أيام كان الأمر دائراً بينهم على ماتقدم ذكره فلما زحف يحيي بن على بالبرابر الى قرطبة وهرب القاسم بن حمود منها وقصد اشبيلية وقد كان ابناه محمد والحسن مقيمين بها أجمع أمر أهل أشبيلية واتفق رأيهم على اخراج محمد والحسن عنها قبل وصول القاسم أبيهما فاخرجوهما وجاء القاسم فمنعوه دخول البلد أيضاً واتفقوا على تقديم رجل منهم يرجع اليه أمرهم وتجتمع به كلمتهم فتواردا اختيارهم بعد محض الراي وتنقيح التدبير على القاضي أبي القاسم محمد بن اسمعيل بن عباد اللخمي لما كانوا يعلمونه من حصافة عقله وسعة صدره وعلو همته وحسن تدبيره فعرضوا عليه ماراوه من ذلك فتهيب الاستبداد وخاف عاقبة الانفراد أولا وأبى ذلك الا على أن يختاروا له من انفسهم رجالا سماهم لهم يكونوا له أعواناً ووزراء وشركاء لا يقطع امرا دونهم ولا يحدث حدثاً الا بمشورتهم وهؤلاء المسمون هم الوزير ابو بكر محمد بن الحسن الزبيدي ومحمد بن يريم الالهاني وأبو الأصبغ عيسي بن حجاج الحضرمي وأبو محمد عبد الله بن على الهوزني في رجال آخرين ذهبت عني أسماؤهم الا أني أعرف قبائلهم وبيوتهم ففعلوا ذلك وأجابوه الي ماأراد ولم يزل يدبر أمر أشبيلية وهؤلاء

المذكورون وزراؤه وكان له من الولد اسمعيل وهو الأكبر يكنى أبا الوليد وعباد يكنى أباعمرو فأمااسمعيل فخرج الى لقاء البربر بعدأن حدثت لأبيه أمل فى التغلب على ما كان البربر يملكونه من الحصون القريبة من أشبيلية بعسكر من جند اشبيلية فالتقي هو وصاحب صنهاجة فأسلمت اسمعيل عساكره وكان اول قتيل وقطع راسه وسير به الى مالقة الى ادريس بن على الفاطمى كما تقدم وبقى الأمر كذلك والقاضى ابوالقاسم يدبر الأمور أحسن تدبير وكان صالحاً مصاحاً الى أن مات فى شهور سنة ٤٣٩

ولاية المعتضد بالله العبادى

ثم ولي ما كان يليه بعده من أمور اشبيلية وأعمالها ابنه أبو عمرو عباد ابن محمد بن اسمعيل بن عباد فجري على سنن أبيه فى ايثار الاصلاح وحسن التدبير وبسط العدل مدة يسيرة ثم بدا له أن يستبد بالأمور وحده وكان شهماً صارماً حديد القلب شجاع النفس بعيد الهمة ذادهاء وواتته مع هذا المقادير فلم يزل يعمل فى قطع هؤلاء الوزاء واحداً واحداً فمنهم من قتله صبراً ومنهم من نفاه عن البلاد ومنهم من أماته خمولا وفقراً الى أن تم له ما أراده من الاستبداد بالأمر وتلقب بالمعتضد بالله وقيل انه ادعي أنه وقع اليه هشام المؤيد بالله ابن الحكم المستنصر بالله وكان الذي حمله على تدبير هذه الحيلة ماراه من اضطراب أهل اشبيلية وخاف قيام العامة عليه لأنهم سمعوا بظهور من ظهر من أمراء بنى أمية بقرطبة كالمستظهر والمستكفى والمعتد فاستقبحوا بقاءهم بغير خليفة وبلغه انهم يطلبون من أولاد بنى أميــة من يقيمونه فادّعى ما ادعاه من ذلك وذكر أن هشاماً عنده بقصره وشــهد له خواص من حشمه وأنه في

صورة الحاجب له والمنفذ لأموره وأمر بالدعاء له على المنابر فاستمر ذلك من أمره سنين الي أن أظهر موته ونعاه الي رعيته فى سنة ٤٥٥ واستظهر بعهد عهده له هشام المذكور فيما زعم وانه الامير بعده على جميع جزيرة الاندلس ولم يزل المعتضد هذا يدوخ الممالك وتدين له الملوك من جميع أقطار الأندلس وكان قد اتخذ خشباً فى ساحة قصره جللها برؤس الملوك والرؤساء عوضاً عن الاشجار التي تكون فى القصور وكان يقول فى مثل هــذا البستان فليتنزه وجملة أمر هــذا الرجل أنه كان أوحد عصره شهامة وصرامة وشجاعة قلب وحدة نفس كانوا يشبهونه بأبى جعفر المنصور من مــلوك بنى العباس كان قد استوي فى مخافته ومهابته القريب والبعيد لا سيما منذ قتل ابنه وأكبر ولده المرشح لولاية عهده صبراً وكان سبب ذلك ان ولده المذكور وكان اسمه اسمعيل كان يبلغه عنــه أخبار مضمونها استطالة حياته وتمنى وفاته فيتغافل المعتضد ويتغافل تغافل الوالد الى أن أدى ذلك التغافل الي ان سكر اسمعيل المذكور ليلة وتسور سور القصر الذي فيه أبوه فى عبداء وأراذل معه ورام الفتك بأبيه فانتبه البوابون والحرس فهرب أصحاب اسمعيل واخذ بعضهم فأقر وأخبر بالكائنة على وجهها وقيل ان اسمعيل لم يكن معهم وانما بعثهم على ذلك وجعل لمن قتل أباه المعتضد جعلا سنيا فالله أعلم فقبض المعتضد على ابنه اسمعيل هذا واستصفي أمواله وضرب عنقه فلم يبق أحد من خاصته الا هابه من حينئذ وبلغنى أنه قتل رجلا أعمى بمكة كان يدعو عليه بها كان هذا الرجل من بادية أشبيلية كان المعتضد قد وضع يده على بعض مال لهذا الرجل الأعمى وذهب باقى ماله حتي افتقر ورحل الى مكة فلم يزل يدعو على المعتضد بها الى أن بلغه عنه

ذلك فاستدعى بعض من يريد الحج وناوله حقا فيه دنانير مطلية بالسم وقال لا تفتح هذا حتى تدفعه الى فلان الاعمي بمكة وسلم عليه عنا فاتفق أن سلم الرجل ومعه الحق فحين وصل مكة لقي الأعمى ودفع اليه الحق وقال هذا من عند المعتضد فأنكر ذلك الاعمي وقال كيف يطلبني بأشبيلية ويتصدق على بالحجاز فلم يزل الرجل يخنضه الي أن سكن وأخذ الحق فكان أول شئ فعله ان فتح الحق وعمد الى دينار من تلك الدنانير فوضعه في فمه وجعل يقلب سائرها بيده الى أن تمكن منه السم فما جاء الليل حتي مات فاعجب لرجل بقاصية المغرب يعتنى بقتل رجل بالحجاز وقتل على هذه الصورة رجلا من المؤذنين من أهل أشبيلية فر منه الى طليطلة فكان يدعو عليه بها فى الأسحار مقدراً أنه قد أمن غائلته اذ صار في مملكة غيره فلم يزل يعمل فيه الحيلة الى أن بعث من قتله وجاءه برأسه وكان أكبر من يناويه من المتغلبين المجاورين له وأشدهم عليه البربر صنهاجة وبنو برزال الذين بقرمونة وأعمالها من نواحي أشبيلية فلم يزل يصرف الحيلة تارة ويجهز الجيوش أخري الى أن استنزلهم ففرق كلمتهم وشتت منتظم أمرهم ونفاهم عن جميع تلك البلاد وصفت له أموره كان له عين بقرمونة يكتب له بأخبار البربر فبلغ من لطف حيلة المعتضد وقد أراد أن يكتب الى ذلك الرجل الذي جعله عينا له بقرمونة كتابا في بعض أمره ان استدعي رجلا من بادية اشبيلية شديد البله كثير الغفلة وقال له اخلع ثيابك والبسه جبة جعل فى جيبها كتابا وخاط عليه وقال له اخرج الى قرمونة فاذا وصلت بقربها فاجمع حزمة حطب وادخل بها البلد وقف حيث يقف اصحاب الحطب ولا تبعها الا لمن يشتريها منك بخمسة دراهم وكان قد قرر هذا كله مع

صاحبه الذي بقرمونة فخرج البدوى كما أمره المعتضد . فلمـا قرب من قرمونة جمع حزمة من الحطب ولم يكن قبل هذا يعاني جمعه فجمع حزمة صغيرة ودخل بها البلد ودخل ووقف في موقف الحطابين فجعل الناس يمرون عليه ويسومون منه حزمته فاذا قال لا أبيعها الا بخمسة دراهم ضحك من يسمع هذا القول منه ومر عنه فلم يزل كذلك الى أن اجنه الليل والناس يسخرون منه فبعضهم يقول هذا أبنوس ويقول الآخر لا بل هو عود هندي وماأشبه هذا حتى مر به صاحب المعتضد فقال له بكم تبيع حزمتك هذه فقال بخمسة دراهم فقال قد اشتريتها فأحملها الى البيت فقام يحملها والرجل بين يديه حتي بلغ بيتــه فوضع الحزمة ودفع اليه الخمسة الدراهم فلما أخذها وهم بالانصراف . قال له اين تريد في هذا الوقت وقد علمت خوف الطريق فبت الليلة عندي فاذا اصبحت رجعت الى منزلك فأجابه فأدخــله الى بيت وقدم له طعاماً وسأله كأنه لا يعـــرفه من أين أنت فقال أنا من بادية أشبيلية قال يا أخي مالذى جاء بك الي هذا الموضع وقد علمت نكد البربر وشؤمهم وهوان الدماء عليهم فقال حملتني على هذا الحاجة ولم يظهر له أن المعتضد أرسله فلم يزل الرجل يحادثه الى أن أخذه النوم فلما رأي غلبة النوم عليه قال له تجرد من ثوبك هذا فهو أهنأ لنومك وأروح لجسمك فتجرد الرجل ونام وأخذ صاحب المعتضد الجبة فنتــق جيبها واستخرج الكتاب فقرأه وكتب جوابه وجعله في جيب الجبة وخاط عليه كما كان فلمـا أصبح الرجل لبس جبته ورجع الى أشبيلية وقصد باب دار الامارة واستأذن فأدخل على المعتضد فقال له اخلع تلك الجبـة .وكساه ثيابا حسانا فرح بها البدوي وخرج من عنده فرحا يري أنه قد خلع عليه

ولم يعلم فيم ذهب ولا بما جاء وأخذ المعتضد الكتاب من جيب الجبة فقرأه وتمم ماأراد من امره وله في تدبير ملكه واحكام امره حيل وآراء عجيبة لم يسبق الى اكثرها يطول تعدادها ويخرج عن حد التلخيص بسطها ولما قتل ابنه اسمعيل كما تقدم وكان قد لقبه المؤيد عهد بعده الى ابنه ابي القاسم محمد بن عباد بن محمد بن اسمعيل بن عباد ولقبه بالمعتمد على الله فحسنت سيرة ابي القاسم هذا في حياة ابيه وبعد وفاته وفي امارة المعتضد بالله هذا نزل لمتونة ومسوفة قبيلتان عظيمتان من البربر رحبة مراكش فتخيروها دار ملكهم لتوسطها البلاد وكانت اذ نزلوها غيضة لاعمران بها وانما سميت بعبد اسود كان يستوطنها يخيف الطريق اسمه مراكش فاستوطنها البربر كما ذكرنا وقدموا عليهم رجلا منهم اسمه تاشفين بن يوسف وكان المعتضد في كل وقت يستطلع اخبار العدوة هل نزل البربر رحبة مراكش وذلك لما كان يراه في ملاحمه كانت عنده ان هؤلاء القوم خالعوه او خالعوا ولده ومخرجوه من ملكه فلما بلغه نزولهم جمع ولده وجعل ينظر اليهم مصعداً ومصوبا ويقول ياليت شعرى من تناله معرة هؤلاء القوم أنا او انتم فقال له ابو القاسم من بينهم جعلني الله فداك وانزل بي كل مكروه يريد ان ينزله بك فكانت دعوة وافقت المقدار وكان نزول لمتونة ومسوفه قبيلتي المرابطين رحبة مراكش في صدر سنة ٤٦٣ وانفصالهم عنها جملة واحدة في وسط سنة ٥٤٠ فكانت مدة اقامتهم في الملك منذ نزلوا رحبة مراكش الى ان انفصلوا عنها وأخرجهم عنها المصامدة نحواً من ست وسبعين سنة ثم توفى المعتضد بالله فى شهر رجب من سنة ٤٦٤ واختلف فى سبب وفاته فقيل ان ملك الروم سمه فى ثياب أرسل بها اليه وقيل انه مات حتف أنفه فالله أعلم

﴿ ولاية ابى القاسم بن عباد المعتمد على الله ﴾

ثم قام بالأمر من بعده ابنه أبوالقاسم محمد بن عباد بن محمد بن اسمعيل ابن عباد وزاد الي المعتمد على الله الظافر بحول الله وكان المعتمد هذا يشبه بهرون الواثق بالله من ملوك بنى العباس ذكاء نفس وغزارة أدب وكان شعره كأنه الحلل المنشرة واجتمع له من الشعراء وأهل الأدب مالم يجتمع لملك قبله من ملوك الأندلس وكان مقتصراً من العلوم على علم الأدب وما يتعلق به وينضم اليه وكان فيه مع هذا من الفضائل الذاتية مالا يحصي كالشجاعة والسخاء والحياء والنزاهة الى مايناسب هذه الأخلاق الشريفة وفى الجملة فلا أعلم خصلة تحمد فى رجل الا وقد وهبه الله منها أوفر قسم وضرب له فيها بأوفى سهم واذا عدت حسنات الأندلس من لدن فتحها الي هذا الوقت فالمعتمد هذا أحدها بل أكبرها ولى أمر اشبيلية بعد أبيه وله سبع وثلاثون سنة واتفقت له المحنة الكبرى بخلعه واخراجه عن ملكه في شهر رجب الكائن في سنة ٤٨٤ فكانت مدة ولايته الى أن خلع وأسر عشرين سنة كانت له فى اضعافها مآثر اعيا على غيره جمعها فى مائة سنة او اكثر منها كانت له رحمه الله همة في تخليد الثناء وابقاء الحمد كان من جملة شعرائه رجل من اهل مدينة مرسية اسمه عبد الجليل بن وهبون كان حسن الشعر لطيف المأخذ حسن التوصل الى دقيق المعانى انشد يوماً بين يدي المعتمد رحمه الله بعد الحاضرين بيتين لعبد الجليل بن وهبون هذا قالهما قديماً قبل وصوله الى المعتمد وهما

قل الوفاء فما تلقاه في احد ولا يمر لمخلوق على بال

وصار عندهم عنقاء مغربة　　　او مثل ماحدثوا عن الف مثقال

فأعجب المعتمد بهما وقال لمن هذان البيتان فقالوا هما لعبد الجليل بن وهبون احد خدم مولانا فقال المعتمد عند ذلك هذا والله االوم البحت رجل من خدامنا والمنقطعين الينا يقول او مثل ماحدثوا عن الف مثقال وهل يحدث احد عنا بأسوء من هذه الأحدوثة وامر له بألف مثقال فلما دخل عليه يتشكر له قال له ياأبا محمد هل عاد الخبر عياناً قال أي والله يامولاي ودعاله بطول البقاء فلما هم بالانصراف قال له ياعبد الجليل الآن حدث بها لا عنها يعني الف مثقال وله رحمه الله شعر كثير برز في اكثره واجاد ما اراد وسيمر منه في اضعاف اخباره مايشهد له بالتبريز عند ذوى التميز فمما اختاره من شعره قوله

علل فؤادك قد ابل عليل　　　واغنم حياتك فالبقاء قليل

لو ان عمرك الف عام كامل　　　ما كان حقاً ان يقال طويل

اكذا يقود بك الاسى نحو الردى　　　والعود عود والشمول شمول

لا يستبيك الهم نفسك عنوة　　　والكاس سيف في يديك صقيل

بالعقل تزدحم الهموم على الحشا　　　فالعقل عندى ان تزول عقول

ومن شعره السيار لا بل الطيار قوله في مملوك له صغير كان يتصرف بين يديه أهداه له صاحب طليطلة اسم المملوك سيف

سموه سيفاً وفي عينيه سيفان　　　هذا لقتلى مسلول وهذان

أما كفت قتلة بالسيف واحدة　　　حتى أتيح من الأجفان ثنتان

أسرته وثناني غنج مقلته　　　أسيره فكلانا آسر عاني

ياسيف امسك بمعروف أسير هوى　　　لا يبتغي منك تسريحاً باحسان

ومن شعره الرشيق المليح الخفيف الروح الذي حكى اثناء سلاسه

والصخر ملاسه قوله في هذا المملوك وقد عذر .

تم له الحسن بالعذار واقترن الليل بالنهار
أخضر فى أبيض تبدي ذلك آسي وذا بهاري
فقد حوى مجلسي تماما ان كان من ريقه عقاري

وبينا هو يوما في قبة له يكتب شيئا أو يطالع وعنده بعض كرائمه فدخلت عليه الشمس من بعض الكوى الكائنة فيها فقامت دونه تستره من الشمس فقال رحمه الله بديها

قامت لتحجب ضوء الشمس قامتها عن ناظرى حجبت عن ناظر الغير
علماً لعمرك منها انها قمر هل تكسف الشمس الا صورة القمر

وبينا جارية من كرائمه قائمة على رأسه تسقيه والكأس فى يدها اذا لمع البرق فارتاعت فقال رحمه الله بديهاً

ريعت من البرق وفى كفها برق من القهوة لماع
عجبت منها وهي شمس الضحى كيف من الأنوار ترتاع

وله مع هذا مقاطيع حسان كان يرتجلها في مجالس أنسه ولاستدعاء خاصة جلسائه منعنى من استيفائها قلة ماعلق خاطري منها وسيمر من شعره الذي قاله فى أيام محنته مايفجر الصم ويزعزع الشم

وكان لايستوزر وزيراً الا أن يكون أديبا شاعرا حسن الادوات فاجتمع له من الوزراء الشعراء مالم يجتمع لاحد قبله فمن جملة وزرائه الوزير الأجل ذو الرياستين أبو الوليد احمد بن عبد الله بن احمد بن زيدون ذو الأدب البارع والشعر الرائع أحد شعراء الاندلس المجيدين وفحولها المبرزين كان اذا نسب أنساك كثيرا واذا مدح أزرى بزهير واذا فخر اناف على أمرئ القيس فمن جملة مقاطعه التى تشهد له بجودة الطبع

واتقان الصنعة قوله

بيني وبينك مالو شئت لم يضع ... سر أذا ذاعت الاسرار لم يذع
ياباًئعا حظه مني ولو بذلت ... لي الحياة بحظي منه لم أبع
يكفيك أنك ان حملت قلبي ما ... لا تستطيع قلوب الناس يستطع
ته أحتمل واستطل أصبر وعز أهن ... وول أقبل وقل أسمع ومر أطع

وهو القائل رحمه الله يخاطب بني جهور وكان قد وزر لهم قبل وزارته للمعتمد لان أصله من مدينة قرطبة فنالته منهم محنة فخرج عن قرطبة الي أشبيلية وافداً على المعتمد فعلت رتبته عنده فكان يبلغه عن بني جهور مايسوءه في نفسه وقرابته بقرطبة فقال يخاطبهم

بني جهورٍ أحرقتموا بجفائكم ... فؤادي فما بال المدائح تعبق
تعدونني كالعنبر الورد انما ... تفوح لكم أنفاسه حين يحرق

ومن نسيبه الذي يختلط بالروح رقة ويمتزج باجزاء الهواء لطافة قصيدته التي قالها يتشوق ابنة المهدي ولادة وهي بقرطبة وهو بأشبيلية

بنتم وبنا فما ابتلت جوانحنا ... شوقا اليكم ولا جفت مآقينا
نكاد حين تناجيكم ضمائرنا ... يقضي علينا الأسى لولا تأسينا
حالت لفقدكم أيامنا فغدت ... سودا وكانت بكم بيضاً ليالينا
اذ جانب العيش طلق من تألفنا ... ومورد اللهو صاف من تصافينا
واذ هصرنا غصون الانس دانية ... قطوفها فجنينا منه ماشينا
ليسق عهدكم عهد السرور فما ... كنتم لأرواحنا الا رياحينا
من مبلغ ملبسينا بانتزاحهم ... حزناً مع الدهر لايبلى ويبلينا
أن الزمان الذي مازال يضحكنا ... أنساً بقربهم قد عاد يبكينا
غيظ العدى من تساقينا الهوي فدعوا ... بأن نغص فقال الدهر آميناً

فانحل ما كان معقودا بانفسنا　　وأنبت ما كان موصولا بايدينا
وقد نكون وما يخشي تفرقنا　　فاليوم نحن وما يرجي تلاقينا
ياساري البرق غاد القصر فاسق به　　من كان صرف الهوي والود يسقينا
ويا نسيم الصبا بلغ تحيتنا　　من لو على البعد حيا كان يحيينا
لا تحسبوا نأيكم عنا يغيرنا　　اذ طال ماغير النأى المحبينا
والله ما طلبت أهواؤنا بدلا　　منكم ولا انصرفت عنكم أمانينا
ياروضة طال ماأجنت لواحظنا　　وردا جناه الصبا غضاً ونسرينا
ويا حياة تملأنا بزهرتها　　منى ضروباً ولذات أفانينا
لسنا نسميك اجلالا وتكرمة　　فقدرك المعتلى عن ذاك يغنينا
اذا انفردت فما شوركت فى صفة　　فحسبك الوصف ايضاحا وتبيينا
كأننا لم نبت والوصل ثالثنا　　والسعد قد غض من أجفان واشينا
سران فى خاطر الظلماء يكتمنا　　حتي يكاد لسان الصبح يفشينا
ياجنة الخلد أبدلنا بسلسها　　والكوثر العذب زقوما وغسلينا
اناقرأنا الاسي يوم النوي سورا　　مكتوبة وأخذنا الصبر تلقينا

أوردتها على الاختيار لا على النسق ولعل في كثير مما تركت منها أحسن مما أوردت وانما منعني من استيفائها الوفاء بشرط التلخيص ومن شعره رحمه الله مما قاله فى مدة صباه

أخذت ثلث الهوى غصبا ولي ثلث　　وللمحبين فيما بينهم ثلث
تالله لو حلف العشاق انهم　　موتي من الوجد يوم البين ماحنثوا
قوم اذا هجروا من بعد ماوصلوا　　ماتوا فان عاد من يهوونه بعثوا
تري المحبين صرعي في عراصهم　　كفتية الكهف ما يدرون مالبثوا

ومما قال رحمه الله يتشوق ابنة المهدي المذكورة ومعاهده بقرطبة وضمنها

بيت أبي الطيب في أول قصيدته الكافورية

بما التعلل لا أهل ولا وطن ... ولا نديم ولا كأس ولا سكن

قصيدة أولها

هل تذكرون غريباً عاده شجن ... من ذكركم وجفاً أجفانه الوسن

يخفي لواعجه والشوق يفضحه ... فقد تساوى لديه السر والعلن

ياويلتاه أيبقى في جوانحه ... فؤاده وهو بالأطلال مرتهن

وأرق العين والظلماء عاكفة ... ورقاء قد شفها أو شفني حزن

فبت أشكو وتشكو فوق أيكتها ... وبات يهفو ارتياحا بيننا الغصن

يا هل أجالس أقواما أحبهم ... كنا وكانوا على عهد فقد ظعنوا

أو تحفظون عهوداً لا أضيعها ... أن الكرام بحفظ العهد تمتحن

ومنها

ان كان عادكم عيد فرب فتى ... بالشوق قد عاده من ذكركم حزن

وأفردته الليالي من أحبته ... فبات ينشدها مما جني الزمن

بما التعلل لا أهل ولا وطن ... ولا نديم ولا كأس ولا سكن

ومنهم الوزير أبو بكر محمد بن عمار ذو النفس العصامية والآداب الأهتمية كان أحد الشعراء المجيدين على طريقة أبي القاسم محمد بن هاني الأندلسي وربما كان أحلا منزعا منه في كثير من شعره ولشعره ديوان يدور بين أيدي أهل الأندلس ولم القَ أحداً ممن أدركته سنى من أهل الآداب الذين أخذت عنهم الارأيته مقدما له مؤثراً لشعره وربما تغالى بعضهم فشبهه بابي الطيب وهيهات فمن قصايده المشهورة التى أجاد فيها ما أراد قصيدته التى كتب بها من سر قصطة حين فرق المعتضد بالله بينه وبين المعتمد لانه شغله عن كثير من أمره فنفاه وهي

على والا مابكاء الغمائم وفى والا مانياح الحمائم
وعنى أثار الرعد صرخة طالب لثار وهز البرق صفحة صارم
وما لبست زهر النجوم حدادها لغيرى ولاقامت له فى مآتم

وفى هذه القصيدة يقول يمدح المعتضد بالله

أبى أن يراه الله الا مقلدا خميلة سيف أو حمالة غارم

ومن جيد نسيبه قوله فى قصيدة يمدح بها المعتضد بالله

جاه الهوى فاستشعروه عاره ونعيمه فاستعذبوه أواره
لا تطلبوا فى الحب عزا انما عبد انه فى حكمه أحراره
قالوا أضر بك الهوى فاجبتهم ياحبذاه وحبذا اضراره
قلبى هو اختار السقام لجسمه زيا نخلوه وما يختاره
عيرتمونى بالنحول وانما شرف المهند أن ترق شفاره
وشمتم لفراق من آلفته ولربما حجب الهلال سراره
أحسبتم السلوان هب نسيمه أو ان ذاك النوم عاد غراره
ان كان أعيا القلب من حرب الجوى خذلته من دمعي اذا أنصاره
من قد قلبى اذ تثنى قده وأقام عذرى اذ أطل عذاره
أم من طوى الصبح المنير نقابه وأحاط بالليل البهيم خماره
غصن ولكن النفوس رياضه رشأ ولكن القلوب عراره
سخرت ببدر التم غرته كما أزرت على أفاقه أزراره
مازال ليل الوصل من فتكاته تسري الى بعرفه أسحاره
ويجود روض الحسن من وجناته دمعي فيندي رنده وبهاره
حتى سقانى الدهر كأس فراقه فسكرت سكر الايفيق خماره
ووقفت فى مثل المحصب موقفا للبين من حب القلوب جماره

حيران أعمى الطرف وهو سماؤه	وآذاب فيه القلب وهو قراره
ولئن يذبه وهو مثـواه فكم	قد أحرقت عود العفارة ناره
أن يهنه انى أضعت لحبه	قلبي وذاعت عنده أسراره
فايهن قلبي ان شكاه وشاحه	لسواوه فاقتص منـه سواره
فوحسنه لقد انتدبت لوصفه	بالنجـل لولا ان حمصا داره
بلد رمتـنى بالمنى أغصانه	وتفجرت لي بالندى أنهاره

ولابن عمار هذا مع المعتمد أخبار عجيبة عنى بجمعها أهل الأندلس وانا ان شاء الله مورد منها مالا يخل بالشرط الذي التزمته ولايخرج عن الحد الذى رسمته حسب مابقي على خاطرى من ذلك لأنى كنت في حداثة سني قد صرفت عنايتى الى أخبار ابن عمار هذا مع المعتمد لما تضمنته من الآداب وقد فتشت خزانة حفظي فلم ألف فيها الا نبذة يسـيرة وانا موردها انشاء الله عزوجل فابن عمار هذا هو محمد بن عمار يكنى أبا بكر أصله من شلب من قرية من أعمالها يقال لها شنبوس مولده ومولد أبائه بها كان خامل البيت ليس له ولالأسلافه فى الرياسة في قديم الدهر ولا حديثه حظ ولا ذكر منهم بها أحد ورد مدينة شلب طفلا فنشأ بها وتعلم علم الأدب على جماعة منهم أبو الحجاج يوسف بن عيسى الأعلم ثم رحل الى قرطبة فتأدب بها ومهر في صناعة الشعر فكان قصاراه التكسب به فلم يزل يجول في الأندلس مسترفداً لايخص بمدحه الملوك دون غيرهم بل لايبالى ممن أخذ ولا من استعطف من ملك أو سوقة وله في ذلك خبر ظريف وذلك أنه ورد فى بعض سفراته شلب لايملك الا دابة لايجد علفها فكتب بشعر الى رجل من وجوه أهل السوق فكان قدره عند ذلك الرجل ان ملأ له المخلاة شعيراً ووجه

بها اليه فرآها بن عمار من أجل الصلاة وأسنى الجوائز ثم اتفق ان علت
حال ابن عمار وساعده الجد ونهض به البخت وانتهى أمره أن ولاه
المعتمد على الله مدينة شلب وأعمالها أول ماأفضي الامر اليه فدخلها
ابن عمار فى موكب ضخم وجملة عبيد وحشم وأظهر نخوة لم يظهرها
المعتمد على الله حين وليها أيام أبيه المعتضد بالله فكان أول شيء سأل
عنه الرجل صاحبه صاحب الشعير فقال ماصنع فلان أهو حي قالوا نعم
فأرسل اليه بمخلاته بعينها بعد أن ملاها دراهم وقال لرسوله قل له لو
ملأتها برا لملاناها تبرا ولم يزل ابن عمار على الحال التى ذكرناها من
التقلب في بلاد الاندلس للاستجداء والاستعطاف الى أن ورد على
المعتضد بالله أبى عمرو فامتدحه بقصيدته المشهورة التي أولها

أدر الزجاجة فالنسيم قد انبرى ... والنجم قد صرف العنان عن السرا
والصبح قد أهدى لنا كافوره ... لما استرد الليل منا العنبرا

وفيها يقول يمدح المعتضد

عباد المخضر نائل كفه ... والجو قد لبس الرداء الاغبرا
قداح زند المجد لاينفك من ... نار الوغي الا الى نار القرا
يختار أن يهب الخريدة كاعباً ... والطرف أجرد والحسام مجوهرا

وفى هذه القصيدة يقول فى وصف وقعة أوقعها المعتضد بالبربر

شقيت بسيفك أمة لم تعتقد ... الا اليهود وان تسموا بربراً
أثمرت رمحك من رؤوس كماتهم ... لما رأيت الغصن يعشق مثمرا
وخضبت سيفك من دماء نحورهم ... لما عهدت الحسن يلبس أحمرا

ومن أبيات هذه القصيدة بيت لم أسمع لمتقدم ولا متأخر بمثله وهو قوله

السيف أفصح من زياد خطبة ... فى الحرب ان كانت يمينك منبرا

ولما أنشد المعتضد هذه القصيدة استحسنها وأمر له بمال وثياب ومركب وأمر أن يكتب في ديوان الشعراء فكان كذلك ثم تعلق بالمعتمد على الله وهو اذ ذاك شاب فلم تزل حاله معه تتزيد وموات خدمته له تقوى وتتأكد الى ان صار ابن عمار الزق بالمعتمد من شعرات قصه وأدنى اليه من حبل وريده كان المعتمد لايستغنى عنه ساعة من ليل ولا نهار ثم اتفق ان ولي المعتمد على الله شلب من قبل أبيه فاستوزر ابن عمار هذا فى تلك الولاية وسلم اليه جميع أموره فغلب عليه ابن عمار غلبة شديدة وساءت السمعة عنهما فاقتضي نظر المعتضد التفريق بينهما ونفي ابن عمار عن بلاده حسب ما تقدم الايماء اليه فلم يزل ابن عمار مغترباً في أقاصي بلاد الأندلس الى ان توفى المعتضد بالله فاستدعاه المعتمد وقربه أشد تقريب حتى كان يشاركه فيما لايشارك فيه الرجل أخاه ولا أباه وله معه أيام كونهما بشلب خبر عجيب وذلك ان المعتمد استدعاه ليلة الى مجلس أنسه على ما كانت العادة جارية به الا انه فى تلك الليلة زاد فى التحفى به والبر له على المعتاد فلما جاء وقت النوم أقسم المعتمد عليه لتضعن رأسك معى على وساد واحد فكان ذلك قال ابن عمار فهتف بي هاتف في النوم يقول لاتغتر أيها المسكين انه سيقتلك ولو بعد حين قال فانتبهت من نومي فزعا وتعوذت ثم عدت فهتف بى الهاتف على حالته الأولى فانتبهت ثم عدت فسمعته ثالثة فانتبهت فتجردت من أثوابي والتففت في بعض الحصر وقصدت دهليز القصر مستخفيا به وقد أزمعت على أني اذا أصبحت خرجت مستخفيا حتى آتي البحر فأركبه وأقصد بلاد العدوة فأكون فى بعض جبال البربر حتى أموت فانتبه المعتمد فافتقدني فلم يجدنى فأمر بطابى فطلبت له في نواحي القصر

وخرج هو بنفسه يتوكأ على سيفه والشمعة تحمل بين يديه فكان هو
الذى وقع عليَّ وذلك انه أتي دهليز القصر يفتقد الباب هل فتح فوقف
بازاء الحصير الذى كنت فيه فكانت مني حركة فأحس بي وقال ماهذا
يتحرك فى هذا الحصير ثم أمر به فنفض فخرجت عرياناً ليس عليَّ الا
السراويل فلما رآني فاضت عيناه دموعاً وقال يا أبا بكر ما الذى حملك
على هذا فلم أر بداً من ان صدقته فقصصت عليه قصتى من أولها الي
آخرها فضحك وقال ياأبا بكر أضغاث أحلام هذه آثار الخمار ثم قال
لي وكيف أقتلك أرأيت أحداً يقتل نفسه وهل أنت عندي الا كنفسي
فتشكر له ابن عمار ودعا له بطول البقاء وتناسى الأمر فنسيه ومرت
على ذلك الأيام والليالي الى ان كان من أمره ماسيأتي الايماء اليه فصدقت
رؤيا ابن عمار وقتل المعتمد نفسه كما قال ولما أفضى الأمر الي المعتمد كما
ذكرنا سأله ابن عمار ولاية شاب وهي كانت بلده ومنشأه كما تقدم
فأجابه المعتمد الي ذلك وولاه اياها أنبه ولاية جعل اليه جميع أمورها
خارجها وداخلها. فاستمرت ولاية ابن عمار عليها الى أن اشتد شوق
المعتمد اليه وضعف عن احتمال الصبر عنه فاستدعاه وعزله عنها واستوزره
فكانت حاله معه شبيهة بحال جعفر بن يحيي مع الرشيد ولم يزل المعتمد
يعده لكل أمر جليل ويؤهل لكل رتبة عالية وكان ابن عمار مع هذا
لايناط به أمر الا اضطلع به وكان فيه كالسكة المحماة واشتهر أمره ببلاد
الأندلس حتي كان ملك الروم الادفنش اذا ذكر عنده ابن عمار قال
هو رجل الجزيرة وكان ابن عمار هو الذى رده عن قصد اشبيلية
وقرطبة وأعمالهما وذلك انه خرج في جيوش ضخمة يقصد بلاد المعتمد
طامعا فيها فخافه الناس وامتلأت صدور أهل تلك الجهات رعبا منه

وتيقنوا ضعفهم عن دفاعه فتولى ابن عمار رده بألطف حيلة وأيسر تدبير وذلك انه أقام سفرة شطرنج في غاية الاتقان والابداع لم يكن عند ملك مثلها جعل صورها من الأبنوس والعود الرطب والصندل وحلاها بالذهب وجعل أرضها فى غاية الاتقان فخرج من عند المعتمد رسولا الى الادفنش فلقيه فى أول بلاد المسلمين فأعظم الادفنش قدومه وبالغ فى اكرامه وأمر وجوه دولتـه بالتردد الى خبائه والمسارعة فى حوائجه فأظهر ابن عمار تلك السفرة فرآها بعض خواص الادفنش فنقل خبرها اليه وكان العلج أعنى الادفنش مولعا بالشطرنج فلما لقى ابن عمار سأله كيف أنت فى الشطرنج وكان ابن عمار فيـه طبقة عالية فأخبره بمكانه منه فقال له بلغني ان عندك سفرة فى غاية الاتقان قال ابن عمار نعم فقال كيف السبيل الى رؤيتها فقال ابن عمار لترجمانه قل له أنا آتيك بها على ان ألعب معك عليها فان غلبتني فهي لك وان غلبتك فلى حكمى فقال له الادفنش هلمها لننظر اليها فأمر ابن عمار من جاء بها فلما وضعت بين يدي العلج صلب وقال ماظننت أن اتقان الشطرنج يبلغ الى هذا الحد ثم قال لابن عمار كيف قلت فأعاد عليه الكلام الاول فقال له الادفنش لا ألعب معك على حكم مجهول لا أدرى ماهو ولعله شئ لا يمكنني فقال ابن عمار لا ألعب الا على هذا الوجه وأمر بالسفرة فطويت وكشف ابن عمار سر ما أراده لرجال وثق بهم من وجوه دولة الادفنش وجعل لهـم أموالا عظيمة على أن يوازروه على أمره ففعلوا فتعلقت نفس العلج بالسفرة وشاور خاصـته في مارسمه ابن عمار فهونوا عليه وقالوا له ان غلبته كانت عندك سفرة ليس عند ملك مثلها وان غلبك فما عساه أن يحتكم وقبحوا عنده اظهار الملك العجز عن شئ يطلب منه وقالوا له

ان طلب ابن عمار مالايمكن فنحن لك برده عن ذلك ولم يزالوا به حتى أجاب وأرسل الى ابن عمار فجاء ومعه السفرة فقال له قد قبلت ما رسمته فقال له ابن عمار فاجعل بيني وبينك شهوداً سماهم له فأمر الادفنش بهم فحضروا وافتتحا ياعبان وكان ابن عمار كما ذكرنا طبقة بالأندلس لايقوم له أحد فيها فغلب الادفنش غلبة ظاهرة لجميع الحاضرين لم يكن للعاج فيها مطعن فلما حقت الغلبة قال له ابن عمار هل صح ارلي حكمي قال نعم فما هو قال أن ترجع من ههنا الى بلادك فاسود وجه العاج وقام وقعد وقال لخواصه قد كنت أخاف من هذا حتى هوّنتموه عليّ في أمثال لهذا القول وهم بالنكث والتمادي لوجهه فقبحوا ذلك عليه وقالوا له كيف يجمل بك الغدر وأنت ملك ملوك النصارى في وقتك فلم يزالوا به حتى سكن وقال لا أرجع حتى آخذ اتاوة عامين خلاف هذه السنة فقال ابن عمار هذا كله لك وجاءه بما أراد فرجع وكف الله بأسه ودفعه بحوله وحسن دفاعه عن المسلمين ورجع ابن عمار الى اشبيلية وقد امتلأت نفس المعتمد سروراً به ثم ان المعتمد حدث له أمل في التغلب على مرسية وأعمالها وهي التي تعرف بتدمير وكانت بيد أبي عبد الرحمن محمد بن طاهر كان هو المتغلب عليها والمدبر لأمرها فجهز المعتمد جيوشاً عظيمة وتكفل له ابن عمار بأخذها واخراج ابن طاهر منها فولاه ماتولى من ذلك وخرج ابن عمار حتى نزل على مرسية فأخذها وأخرج ابن طاهر عنها فلحق ابن طاهر حين خرج من مرسية ببني عبد العزيز ببلنسية فكان بها الى ان مات رحمه الله ولما تغلب ابن عمار على مرسية دار ملك بني طاهر كما ذكرنا حدثته نفسه وسوّل له سوء رأيه أن يستبد بأمره وأن يضبط تلك البلاد لنفسه فلم يزل يصرف

الحيلة فى ذلك الى ان تم له بعضه ودانت له مرسية وأعمالها وطمع فى ملك بلنسية الى ان قام عليه رجل من أهل مرسية يقال له ابن رشيق. كان أبوه من عرفاء الجند بها وكان ابن عمار قد خرج لبعض أمره فدعا ابن رشيق هذا الى نفسه وقامت معه العامة وبعض الجند فسمع ابن عمار بذلك فجاء يركض حتى أتي المدينة وقد غلقت أبوابها دونه فحاصرها بمن معه أياما فامتنعت عليه ولم يقدر على دخولها فبقى حائراً لايدري مايصنع ولا أين يتوجه وقد كان بلغ المعتمد قيامه عليه وخلع يده من طاعته فلم ير الا الهروب ملجأ فهرب حتى لحق ببنى هود بسرقسطة فأقام عندهم حتى ثقل عليهم وخافوا غائلته وبغضه فى عيونهم مافعل مع صاحبه وولي نعمته فأخرجوه عن بلادهم ولم تزل البلاد تتقاذفه وملوكها تشنأه الى أن وقع فى حصن من حصون الاندلس فى غاية المنعة يدعى شقورة كان المتغلب عليه رجل يقال له ابن مبارك فأكرم وفادته وأحسن نزله ثم بدا له بعد أيام فقبض عليه وقيده وجعله فى سجنه فلما رأى ابن عمار ذلك منه قال له لاعليك أن تكتب الى ملوك الاندلس بكونى عندك وتعرضنى عليهم فما منهم الا من يرغب فيَّ فمن كان أشدهم رغبة جعل لك مالاً ووجهت بي اليه ففعل ابن مبارك ذلك فما عرضه على أحد من ملوك الاندلس الا رغب فيه وكتب فيمن كتب الى المعتمد وفي ذلك يقول ابن عمار

أصبحت فى السوق ينادى على رأسى بأنواع من المال

والله ما جار على ماله من ضمني بالثمن الغالي

وفى هذا السجن يقول ابن عمار وقد استدعي نورة يستنظف بها فتعذرت عليه فاستدعي موسي فأوتي بها فقال فى ذلك

بوسا شقورة عندى أربي على كل بوسا
فقدت هرون فيها فظلت أطلب موسا

وبعث المعتمد على الله من رجاله من تسلم ابن عمار من يد ابن مبارك بعد ان بعث اليه بمال وخيل وأمر المعتمد الذين تسلموا ابن عمار أن يزيدوا فى الاحتياط عليه وتقييده فخرجوا به حتى وافوا قرطبة ووافق ذلك كون المعتمد بها فدخلها ابن عمار أشنع دخول وأسوءه على بغل بين عدلي تبن وقيوده ظاهرة للناس وقد كان المعتمد أمر باخراج الناس خاصة وعامة حتى ينظروا اليه على تلك الحال وقد كان قبل هذا اذا دخل قرطبة اهتزت له وخرج اليه وجوه أهلها وأعيانهم ورؤسائهم فالسعيد منهم من يصل الى تقبيل يده أو يرد عليه ابن عمار السلام وغيرهم لا يصل الا الى تقبيل ركابه أو طرف ثوبه ومنهم من ينظر اليه على بعد لا يستطيع الوصول اليه فسبحان محيل الاحوال ومديل الدول فدخل ابن عمار قرطبة كما ذكرنا بعد العزة القعساء والملك الشامخ والرياسة الفارعة ذليلا خائفاً فقيرا لا يملك الا ثوبه الذى عليه فسبحان من سلبه ماوهبه ومنعه ما كان به أمتعه وأخبر بعض الموكلين به ما اتفق لهم معه من فرط ذكائه وسرعة فطنته قال لما قربنا من قرطبة بحيث يرانا الناس خرج فارس من البلد يركض يقصدنا فلما رآه ابن عمار وكان معتما أزال العمامة عن رأسه فجاء الفارس حتى وصل الينا فنظر الى ابن عمار ودخل معنا فى الصف فمشى فسألناه فيم جاء فقال الذى جئت فيه صنعه هذا الرجل قبل ان أصل اليه فعلمنا انه أرسل ليزيل عمامته فأدخل على المعتمد على الله على الحالة التى ذكرت يرسف فى قيوده فجعل المعتمد يعدد عليه أياديه ونعمه وابن عمار فى ذلك كله

مطرق لاينبس الى أن انقضى كلام المعتمد فكان من جواب ابن عمار ان قال ما أنكر شيئاً مما يذكره مولانا أبقاه الله ولو أنكرته لشهدت عليّ به الجمادات فضلا عمن ينطق ولكني عثرت فأقل وزللت فاصفح. فقال المعتمد هيهات انها عثرة لاتقال وأمر به فأحدر في النهر الى اشبيلية فدخل به اشبيلية على الحال التي دخل عليها قرطبة وجعل في غرفة على باب قصر المعتمد المعروف بالقصر المبارك وهو باق الى وقتنا هذا فطال سجنه هناك كتبت عنه في هذا السجن قصائد لو توسل بها الى الدهر لنزع عن جوره أو الى الفلك لكف عن دوره فكانت رقي لم تنجع ودعوات لم تسمع وتمائم لم تنفع فمنها قوله

سجاياك ان عافيت أندى وأسجح ... وعذرك ان عاقبت أجلى وأوضح
وان كان بين الخطتين مزية ... فأنت الى الأدنى من الله تجنح
حنانيك في أخذي برأيك لاتطع ... عداي ولو أثنوا عليك وأفصحوا
فان رجائي ان عندك غير ما ... يخوض عدوي اليوم فيه ويمرح
ولم لا وقد أسلفت وداً وخدمة ... يكران في ليل الخطايا فيصبح
وهبني وقد أعقبت أعمال مفسد ... أما تفسد الأعمال ثمت تصلح
أقاني بما بيني وبينك من رضى ... له نحو روح الله باب مفتح
وعف على آثار جرم سلكتها ... بهبة رحمي منك تمحو وتصفح
ولا تلتفت قول الوشاة ورأيهم ... فكل اناء بالذى فيه يرشح
سيأتيك في أمري حديث وقد أتى ... بزور بني عبد العزيز موشح
وما ذاك الا ماعلمت فانني ... اذا ثبت لا نفك آسو وأجرح
كأني بهم لا در لله درهم ... أشاروا تجاهي بالشمات وصرحوا
وقالوا سيجزيه فلان بفعله ... فقلت وقد يعفو فلان ويصفح

الا أن بطشا للمؤيد يرتمى ... ولكن حلما للمؤيد يرجح
وماذا عسي الواشون أن يتزيدوا ... سوى أن ذنبي واضح متصحح
نعم لى ذنب غير ان لحلمه ... صفاة يزل الذنب عنها فيسفح
عليه سلام كيف دار به الهوى ... الى فيدنوا أو على فينزح
ويهنئه ان مت السلو فانني ... أموت ولي شوق اليه مبرح
وبين ضلوعي من هواء تميمة ... ستنفع لو أن الحمام يجلح

ولما بلغت المعتمد هذه القصيدة وأنشدت بين يديه كان بحضرته رجل من البغداديين فجعل يزري على هذا البيت وبين ضلوعي ويقول ما أراد بهذا المعنى فكان من جواب المعتمد رحمه الله ان قال أمالئن سلبه الله المروءة والوفاء. لما أعدمه الفطنة والذكاء انما نظر الى بيت الهزلي من طرف خفي وهو

واذا المنية أنشبت أظفارها ... ألفيت كل تميمة لاتنفع

ولم يزل ابن عمار هذا بسجن المعتمد الى أن قتله صبراً فى شهور سنة ٤٧٩ وتلخيص خبر قتله انه لما طال سجنه كتب اليه بالقصيدة التي تقدم انشادها فأدركت المعتمد بعض الرقة فوجه اليه ليلا وهو فى بعض مجالس انسه فأتى به يرسف في قيوده فجعل المعتمد يعدد مننه عليه وأياديه قبله فلم يكن لابن عمار جواب ولا عزر غير انه أخذ في البكاء وجعل يترقق للمعتمد ويمسح عطفيه ويستجلب من الالفاظ كل مايقدر انه يزرع له الرأفة في قلب المعتمد فتم له بعد ماأراد من ذلك وعطفت المعتمد عليه سابقته وقديم حرمته فقال له قولا يتضمن العفو عنه تعريضاً لاصريحاً وأمر برده الى محبسه فكتب ابن عمار من فوره بمادار له مع المعتمد الي ابنه الراضى بالله فوافاه الكتاب وبحضرته قوم كانت بينهم

وبين ابن عمار أحن قديمة فلما قرأ الراضى الكتاب قال لهم ماأرى ابن عمار الا سيتخلص فقالوا له ومن اين علم مولانا ذلك فقال هـذا كتاب ابن عمار يخبرنى فيه أن مولانا المعتمد قد وعده بالخلاص فأظهر القوم الفرح وهم يبطنون غـيره فلما قاموا من مجلس الراضى نشروا حديث ابن عمار أقبح نشر وزادوا فيه زيادات قبيحة صنت هذا الكتاب عن ذكرها فبلغ المعتمد ذلك فأرسل الي ابن عمار وقال له هل أخبرت أحداً بما كان بيني وبينك البارحة فأنكر ابن عمار كل الأنكار فقال المعتمد للرسول قل له الورقتان اللتان استدعيتهما كتبت في احداها القصيدة فما فعلت الأخرى فادعى أنه بيض فيها القصيدة فقال المعتمد هلم المسودة فلم يجد جواباً فخرج المعتمد حنقاً وبيده الطبرزين حتي صعد الغرفة التي فيها ابن عمار فلما رآه علم أنه قاتله فجعل ابن عمار يزحف وقيوده تثقله حتي انكب على قدمي المعتمد يقبلهما والمعتمد لا يثنيه شيء فعلاه بالطبرزين الذى في يده ولم يزل يضربه به حتي برد ورجع المعتمد فأمر بغسله وتكفينه وصلى عليه ودفنه بالقصر المبارك فهـذا ماانتهي الينا من خبر ابن عمار ملخصا حسب مابقي على خاطرى

ولم يزل المعتمد هذا في جميع مدة ولايته والايام تساعده والدهر على مايريده يوازره ويعاضده الي أن انتظم له في ملكه من بلاد الاندلس ما لم ينتظم لملك قبله أعني من المتغلبين ودخلت في طاعته مدن من مدائنها أعيت الملوك وأعجزتهم وامتدت مملكته الى أن بلغت مدينة مرسـية وهي التي تعرف بتدمير بينها وبين اشبيلية نحو من اثنتى عشرة مرحلة وفي خلال ذلك مدن متسعة وقرى ضخمة وكان تغلبه على قرطبة واخراجه ابن عكاشة منها يوم الثلاثاء لسبع بقين من صفر سنة ٤٧١

ثم رجع الى اشبيلية واستخلف عليها ولده عباداً ولقبه بالمأمون وهو أكبر ولده ولد له فى حياة أبيه المعتضد وسماه عباداً فكان المعتضد يضمه اليه ويقول ياعباد ياليت شعرى من المقتول بقرطبة أنا أو أنت فكان المقتول بها عباد هذا فى حياة أبيه المعتمد وفى السنة التى زال عنهم الملك فيها ولما كانت سنة ٤٧٩ جاز المعتمد على الله البحر قاصداً مدينة مراكش الى يوسف بن تاشفين مستنصراً به على الروم فالقيه يوسف المذكور أحسن لقاء وأنزله أكرم نزل وسأله عن حاجته فذكر انه يريد غزو الروم وانه يريد امداد أمير المسلمين اياه بخيل ورجل ليستعين بهم في حربه فاسرع أمير المسلمين المذكور اجابته الي مادعاه اليه وقال له أنا أول منتدب لنصرة هذا الدين ولا يتولي هذا الامر أحد الا أنا بنفسى فرجع المعتمد الي الاندلس مسرورا باسعاف أمير المسلمين اياه في طلبته ولم يدر ان تدميره في تدبيره وسل سيفاً يحسبه له ولم يدر انه عليه فكان كما قال أبو فراس

اذا كان غير الله للمرء عدة أتته الرزايا من وجوه الفوائد
كما جرت الحنفاء حتف حذيفة وكان يراها عدة للشدائد

فاخذ أمير المؤمنين يوسف بن تاشفين في أهبة العبور الي جزيرة الاندلس وذلك في شهر جمادي الاولي من السنة المذكورة فاستنفر من قدر على استنفاره من القواد وأعيان الجند ووجوه قبائل البربر فاجتمع له نحو من سبعة آلاف فارس في عدد كثير من الرجل فعبر البحر بعسكر ضخم وكان عبوره من مدينة سبتة فنزل المدينة المعروفة بالجزيرة الخضراء وتلقاه المعتمد في وجوه أهل دولته وأظهر من بره واكرامه فوق ما كان يظنه أمير المسلمين وقدم اليه من الهدايا والتحف

والذخائر المملوكية مالم يظنه يوسف عند ملك فكان هذا أول ماأوقع في نفس يوسف التشوف الى مملكة جزيرة الاندلس ثم انه فصل عن الخضراء بجيوشه قاصداً شرقي الاندلس وسأله المعتمد دخول اشبيلية دار ملكه ليستريح فيها أياما حتي تزول عنه وعثاء السفر ثم يقصدقصده فابى عليه وقال انما جئت ناويا جهادالعدو فحيث ماكان العدو توجهت وجهه وكان الادفنش لعنه الله محاصراً لحصن من حصون المسلمين يعرف بحصن الليط فلما بلغه عبور البربر أقلع عن الحصن راجعاً الي بلاده مستنفراً عساكره ليلاقي بهم البربر وتوجه يوسف المذكور الي شرقي الاندلس يقصد ذلك الحصن المحاصر والاصلاح بين المعتمد على الله وبين رجل كان تغلب على مرسية يقال له ابن رشيق قد تقدم ذكره في أخبار ابن عمار فاصلح بينهما يوسف أمير المسلمين على ان يخرج له ابن رشيق عن مرسية ويعوضه المعتمد عن ذلك مالا جعله له ويوليه في جهة اشبيلية أضخم ولاية فاجابه ابن رشيق الي ذلك وتسلم المعتمد مرسية وأعمالها ولقي يوسف أمير المسلمين ملوك الاندلس الذين كان عليهم طريقه كصاحب غرناطة والمعتصم بن صمادح صاحب المرية وابن عبد العزيز أبو بكر صاحب بلنسية ثم ان يوسف المذكور استعرض جنده على حصن لرقة فرأى منهم مايسره فقال للمعتمد على الله هلم ماجئنا له من الجهاد وقصد العدو وجعل يظهر التأفف من الاقامة بجزيرة الاندلس ويتشوق الي مراكش ويصغر قدر الاندلس ويقول في أكثر أوقاته كان أمر هذه الجزيرة عندنا عظيما قبل أن نراها فلما رأيناها وقعت دون الوصف وهو في ذلك كله يسر حسواً في ارتغاء فخرج المعتمد بين يديه قاصداً مدينة طليطلة واجتمع للمعتمد

أيضاً جيش ضخم من أقطار الاندلس وانتدب الناس للجهاد من سائر الجهات وأمد ملوك الجزيرة يوسف والمعتمد بما قدروا عليه من خيل ورجال وسلاح فتكامل عدد المسلمين من المتطوعة والمرتزقة زهاء عشرين ألفاً والتقوا هم والعدو بأول بلاد الروم وكان الادفنش لعنه الله قد استنفر الصغير والكبير ولم يدع في أقاصي مملكته من يقدر على النهوض الا استنهضه وجاء يجر الشوك والشجر وانما كان مقصوده الاعظم قطع تشوف البرابرة عن جزيرة الاندلس والتهيب عليهم فاما ملوك الاندلس فلم يكن منهم أحد الا يؤدى اليه الاتاوة وهم كانوا أحقر في عينه وأقل من ان يحتفل لهم ولما تراءى الجمعان من المسلمين والنصارى رأى يوسف وأصحابه أمراً عظيما هالهم من كثرة عدد وجودة سلاح وخيل وظهور قوة فقال للمعتمد ما كنت أظن هذا الخنزير لعنه الله يبلغ هذا الحد وجمع يوسف أصحابه وندب لهم من يعظهم ويذكرهم فظهر منهم صدق النية والحرص على الجهاد واستسهال الشهادة ماسر به يوسف والمسلمون وكان تراءيهم يوم الخميس وهو الثانى عشر من شهر رمضان فاختلفت الرسل بينهم في تقرير يوم الزحف ليستعد الفريقان فكان من قول الادفنش لعنه الله الجمعة لكم والسبت لليهود وهم وزراؤنا وكتابنا وأكثر خدم العسكر منهم فلا غنى بنا عنهم والاحد لنا فاذا كان يوم الاثنين كان ما نريده من الزحف وقصد لعنه الله مخادعة المسلمين واغتيالهم فلم يتم له ماقصد فلما كان يوم الجمعة تأهب المسلمون لصلاة الجمعة ولا أمارة عندهم للقتال وبنى يوسف بن تاشفين الامر على ان الملوك لاتغدر فخرج هو وأصحابه في ثياب الزينة للصلاة فاما المعتمد فانه أخذ بالحزم فركب هو وأصحابه شاكي

السلاح وقال لامير المسلمين صل في أصحابك فهذا يوم ماتطيب نفسي فيه بها أنا من ورائكم وما أظن هذا الخنزير الا قد أضمر الفتك بالمسلمين فاخذ يوسف وأصحابه في الصلاة فلما عقدوا الركعة الاولي ثارت في وجوههم الخيل من جهة النصارى وحمل الادفنش لعنه الله في أصحابه يظن انه قد انتهز الفرصة واذا المعتمد وأصحابه من وراء الناس فاغنى ذلك اليوم غناء لم يشهد لاحد من قبله وأخذ المرابطون سلاحهم فاستووا على متون الخيل واختلط الفريقان فاظهر يوسف ابن تاشفين وأصحابه من الصبر وحسن البلاء والثبات مالم يكن يحسبه المعتمد وهزم الله العدو واتبعهم المسلمون يقتلونهم في كل وجه ونجا الادفنش لعنه الله في تسعة من أصحابه فكان هذا أحد الفتوح المشهورة بالاندلس أعز الله فيه دينه وأعلى كلمته وقطع طمع الادفنش لعنه الله عن الجزيرة بعد ان كان يقدر انها في ملكه وان رؤسها خدم له وذلك كله بحسن نية أمير المسلمين وتسمى هذه الوقعة عندهم وقعة الزلاقة وكان لقاء المسلمين عدوهم كما ذكرنا في يوم الجمعة الثالث عشر من شهر رمضان الكائن في سنة ٤٨٠ ورجع يوسف بن تاشفين وأصحابه عن ذلك المشهد منصورين مفتوحا لهم وبهم فسر بهم أهل الاندلس وأظهروا التيمن بامير المسلمين والتبرك به وكثر الدعاء له في المساجد وعلى المنابر وانتشر له من الثناء بجزيرة الاندلس مازاده طمعاً فيها وذلك ان الاندلس كانت قبله بصدد التلاف من استيلاء النصارى عليها وأخذهم الاتاوة من ملوكها قاطبة فلما قهر الله العدو وهزمه على يد أمير المسلمين أظهر الناس اعظامه ونشأ له الود في الصدور ثم انه أحب ان يجول فى الاندلس على طريق التفرج والتنزه وهو يريد غير

ذلك فجال فيها ونال من ذلك ماأحب وفى خلال ذلك كله يظهر اعظام المعتمد واجلاله ويقول مصرحا انما نحن في ضيافة هذا الرجل وتحت أمره وواقفون عند مايحده وكان ممن اختص بأمير المسلمين من ملوك الجزيرة وحظي عنده واشتد تقريب أمير المسلمين له أبو يحيي محمد بن معن بن صمادح المعتصم صاحب المرية وكان المعتصم هذا قديم الحسد للمعتمد كثير النفاسة عليه لم يكن في ملوك الجزيرة من يناويه غيره وربما كانت بينهما في بعض الاوقات مراسلات قبيحة وكان المعتصم يعيبه في مجالسه وينال منه ويمنع المعتمد من فعل مثل ذلك مروءته ونزاهة نفسه وطهارة سريرته وشدة ملوكيته وقد كان المعتصم قبل عبور أمير المسلمين بيسير توجه الي شرقي الاندلس يتطوف على مملكته ويطالع أحوال عماله ورعيته فلما دانى أول بلاد المعتصم خرج اليه فى وجوه أصحابه وتلقاه لقاء نبيلا وعزم عليه ليدخان بلاده فأبى المعتمد ذلك ثم اتفقا بعد طول مراودة على ان يجتمعا في أول حدود بلاد المعتصم وآخر حدود بلاد المعتمد فكان ذلك واصطلحا في الظاهر واحتفل المعتصم في اكرامه وأظهر من الآلات السلطانية والذخائر الملوكية المعدة لمجالس الانس ماظنه مكمداً للمعتمد مثيراً لغمه وقد أعاذ الله المعتمد من ذلك وصان خلقه الكريم عنه وعصمه بفضله منه ثم افترقا بعد ان أقام المعتمد عنده في ضيافته ثلاثة أسابيع ورجع المعتمد الي بلاده وبأثر ذلك عبر الي مراكش ولم يزل مابينه وبين المعتصم معموراً الي ان عبر أمير المسلمين كما ذكرنا فلقيه المعتصم بهدايا فاخرة وتحف جليلة وتلطف في خدمته حتى قربه أمير المسلمين أشد تقريب وكان يقول لاصحابه هذان رجلا هذه الجزيرة يعني المعتصم والمعتمد وكان أكبر أسباب تقريب أمير

المسلمين اياه ثناء المعتمد عليه عند أمير المسلمين ووصفه اياه عنده بكل فضل ولم يكن المعتصم بعيداً من أكثر ما وصفه به ولما اشتد تمكن المعتصم من أمير المسلمين بدا له ان يسعى في تغيير قلبه على المعتمد وافساد ما بينهما حسن له ذلك سوء رأيه ودنس سريرته وضعف بصره بعواقب الامور وليقضي الله أمراً كان مفعولا وليبلغ القدر ميقاته واذا أراد الله تمام أمر هيأ له أسبابا فشرع المعتصم فيما أراده من ذلك ولم يدر انه ساقط في البئر التي حفر وقتيل بالسلاح الذى شهر فكان من جملة ما ألقى الي أمير المسلمين ان جعل يقرر عنده عجب المعتمد بنفسه وفرط كبره وانه لا يرى أحداً كفوءًا له وزعم انه قال له فى بعض الايام وقد قال له المعتصم طالت اقامة هذا الرجل بالجزيرة يعنى لأمير المسلمين لو عوجت له أصبعي ماأقام بها ليلة واحدة هو ولا أصحابه وكانك تخاف غائلته وأي شيء هذا المسكين وأصحابه انما هم قوم كانوا في بلادهم فى جهد من العيش وغلاء من السعر جئنا بهم الي هذه البلاد نطعمهم حسبة واستجاراً فاذاشبعوا أخرجناهم عنها الي بلادهم الى أمثال هذا القول من تحقير أمرهم وأعانه على ذلك قوم من وجوه الاندلس الى ان بلغوا ماأرادوه من تغير قلب يوسف أمير المسلمين على المعتمد وقد كان أمير المسلمين ضرب لنفسه ولاصحابه أجلا وحد له ولهم مدة يقيمونها في الجزيرة لايزيدون عليها وانما فعل ذلك تطييبا لقلب المعتمد وتسكينا لخاطره فلما انقضت تلك المدة أو قاربت عبر أمير المسلمين الي العدوة وقد وغر صدره وتغيرت نفسه

وما النفس الا نطفة فى قرارة ... اذا لم تكدر كان صفواً غديرها

هذا مع ماذكرنا من طمعه فى الجزيرة وتشوفه الي مملكتها وظهرت

للمعتمد قبل عبوره أشياء عرف بها انه غير عليه ورجع أمير المسلمين الى مراكش وفى نفسه من أمر الجزيرة المقيم المقعد فبلغنى انه قال لبعض ثقاته من وجوه أصحابه كنت أظن اني قد ملكت شيئاً فلما رأيت تلك البلاد صغرت فى عينى مملكتى فكيف الحيلة في تحصيلها فاتفق رأيه ورأى أصحابه على أن يراسلوا المعتمد يستأذنونه فى رجال من صلحاء أصحابهم رغبوا فى الرباط بالأندلس ومجاهدة العدو والكون ببعض الحصون المصاقبة للروم الى أن يموتوا ففعلوا وكتبوا الى المعتمد بذلك فأذن لهم بعد ان وافقه على ذلك ابن الأفطس المتوكل صاحب الثغور وانما أراد يوسف وأصحابه بذلك أن يكون قوم من شيعتهم مبثوثين بالجزيرة في بلادها فاذا كان أمر من قيام بدعوتهم أو اظهار لملكتهم وجدوا في كل بلد لهم أعواناً وقد كانت قلوب أهل الأندلس كما ذكرنا قد أشربت حب يوسف وأصحابه فجهز يوسف من خيار أصحابه رجالا انتخبهم وأمر عليهم رجلا من قرابته يسمي بلجين وأسر اليه ما أراده فجاز بلجين المذكور وقصد المعتمد من ملوك الجزيرة فقال له أين تأمرني بالكون فوجه معه المعتمد من أصحابه من ينزله ببعض الحصون التى اختارها لهم فنزل حيث أنزلوه هو وأصحابه وأقاموا هنالك الى ان ثارت الفتنة على المعتمد وكان مبداها في شوال من سنة ٤٨٣ بأخذ جزيرة طريف المقابلة لطنجة من العدوة دون مقدمة ظاهرة توجب ذلك فتشعبت جوعه ولهواؤها ملتئمة وانتثرت بلاده وقلوب أهلها على محبته منتظمة ولما أخذ المرابطون جزيرة طريف ونادوا فيها بدعوة أمير المسلمين انتشر ذلك في الاندلس وزحف القوم الذين قدمنا ذكرهم الكائنون في الحصون الى قرطبة فحاصروها وفيها

عباد بن المعتمد الملقب بالمأمون وقد تقدم ذكره وهو من أكبر ولده
فدخلوا البلد وقتل عباد هذا بعد ان أبلى عذراً وأظهر فى الدفاع
عن نفسه جلداً وصبراً وذلك في مستهل صفر الكائن في سنة ٤٨٤
فزادت الاحنة والمحنة واستمرت في غلوائها الفتنة وأجمعت على الثورة
بحضرة اشبيلية طائفة فأعلم المعتمد بما اعتقدته الطائفة المذكورة وكشف
له عن مرادها وأنبت عنده سوء اعتقادها وأغرى بتمزيق أديمها وسفك
دمها وحض على هتك حريمها وكشف حرمها فأبي له ذلك مجده
الأثيل ورأيه الأصيل ومذهبه الجميل وما حباه الله به من حسن
اليقين وصحة العقل والدين الى ان أمكنتهم الغرة يوم الثلاثاء منتصف
رجب من السنة المذكورة فقاموا بجيش غير مستنصر واستنسروا بغاثاً
غير مستنسر فبرز هو من قصره سيفه بيديه وغلالته ترف على جسده
لا درقة له ولا درع عليه فالتقى على باب من أبواب المدينة يسمى باب
الفرج فارساً من الداخلين مشهور النجدة شاكي السلاح فرماه الفارس
برمح قصير أنابيب القناة طويل شفرة السنان فالتوى الرمح بغلالته
وخرج تحت ابطه وعصمه الله منه ودفعه بفضله عنه وصب هو سيفه
على عاتق الفارس فشقه الى أضلاعه فخر صريعاً وانهزمت تلك الجموع
ونزل المتسنمون للاسوار عنها وظن أهل اشبيلية ان الخناق قد تنفس
فلما كان عصر ذلك اليوم : عاودهم القوم : فظهر على البلد من واديه :
ويئس من سكني ناديه : وبلغ فيه الأمل حاسده وشانيه : وشبت النار
في شوانيه : فانقطع عندها العمل والقول : وذهبت القوة من أيدي
أهلها والحول : وكان الذي ظهر عليها من جهة البر رجل من أصحاب
يوسف أمير المسلمين يعرف بحدير بن واسنوا ومن الوادى رجل

يعرف بالقائد أبي حمامة مولى بني سجوت والتوت الحال اياماً يسيرة الى ان ورد الأمير سير ابن أبي بكر بن تاشفين وهو ابن أخي أمير المسلمين بعساكر متظاهرة : وحشود من الرعية وافرة : والناس في خلال هذه الأيام قد خامرهم الجزع : وخالط قلوبهم الهلع : يقطعون السبل سياحه : ويعبرون النهر سباحه : ويتولجون مجارى الأقذار : ويترامون من شرفات الأسوار : حرصاً على الحياة والموفون بالعهد : المقيمون على صريح الود : ثابتون الي ان كان يوم الأحد لاحدى وعشرين ليلة خلت من رجب من السنة المذكورة وهذا يوم الكائنة العظمى : والطامة الكبرى : فيه حم الأمر الواقع : واتسع الخرق على الراقع : ودخل البلد من واديه : وأصيب حاضره وباديه : بعد ان جد الفريقان في القتال : واجتهدت الفئتان في النزال : وظهر من دفاع المعتمد رحمه الله وباسه : وترامية على الموت بنفسه : مالا مزيد عليه : ولا تناه لخلق اليه : وفي ذلك يقول المعتمد بعد ما نزل بالعدوة أسيراً حسيراً

لما تماسكت الدموع ... وتنهنه القلب الصديع
قالوا الخضوع سياسة ... فليبد منك لهم خضوع
وألذ من طعم الخضو ... ع على فمي السم النقيع
ان تستلب عني الدنى ... ملكي وتسلمني الجموع
فالقلب بين ضلوعه ... لم تسلم القلب الضلوع
لم أستلب شرف الطبا ... ع أيسلب الشرف الرفيع
قد رمت يوم نزالهم ... ألا تحصنني الدروع
وبرزت ليس سوى القميـ ... ـص عن الحشى شيء دفوع

وبذلت نفسي كي تسيـــل اذا يسيل بها النجيع
أجلي تأخر لم يكن بهواي ذلي والخشوع
ماسرت قط الي القتا ل وكان من أملي الرجوع
شيم الاولي أنا منهم والاصل تتبعه الفروع

فشنة الغارة في البلد ولم يترك البربر لاحد من أهلها سبداً ولا لبداً وانتهبت قصور المعتمد نهباً قبيحاً وأخذ هو قبضاً باليد وجبر على مخاطبة ابنيه المعتد بالله والراضي بالله وكانا بمعقلين من لمعاقل الاندلس المشهورة لوشاء ان يمتنعا بهما لم يصل أحد اليهما أحد الحصنين يسمى رندة والاخر مارتلة فكتب رحمه الله وكتبت السيدة الكبرى أمهما مستعطفين مسترحمين معلمين ان دم الكل منهم مسترهن بثبوتهما فانفا من الذل وأبيا وضع يديهما في يد أحد من الناس بعد أبيهما ثم عطفتهما عواطف الرحمة ونظرا في حقوق أبويهما المقترنة بحق الله عز وجل فتمسك كل منهما بدينه ونبذ دنياه ونزلا عن الحصنين بعد عهود مبرمة ومواثيق محكمة فاما المعتد بالله فان القائد الواصل اليه قبض عند نزوله على كل ما كان يملكه وأما الراضي بالله فعند خروجه من قصره قتل غيلة وأخفي جسده ورحل بالمعتمد وآله بعد استئصال جميع أحواله ولم يصحب من ذلك كله بلغة زاد فركب السفين وحل بالعدوة محل الدفين فكان نزوله من العدوة بطنجة فاقام بها أياما ولقيه بها الحصري الشاعر فجرى معه على سوء عادته من قبح الكدية وإفراط الالحاف فرفع اليه اشعاراً قديمة قد كان مدحه بها وأضاف الي ذلك قصيدة استجدها عند وصوله اليه ولم يكن عند المعتمد في ذلك اليوم مما زود به فيما بلغني أكثر من ستة وثلاثين مثقالا فطبع عليها وكتب

معها بقطعة شعر يعتذر من قلتها سقطت من حفظي ووجه بها اليه فلم يجاوبه عن القطعة على سهولة الشعر على خاطره وخفته عليه كان هذا الرجل أعنى الحصرى الاعمى أسرع الناس فى الشعر خاطراً الا انه كان قليل الجيد منه فحركه المعتمد على الله على الجواب بقطعة أولها

قل لمن قد جمع العلـــم وما أحصى صوابه
كان فى الصرة شعر فتنظـرنا جـوابه
قد أثبنــاك فهلا جلب الشعر ثوابه

ولما اتصل بزعانفة الشعراء وملحقى أهل الكدية ما صنع المعتمد رحمه الله مع الحصرى تعرضوا له بكل طريق • وقصدوه من كل فج عميق • فقال فى ذلك رحمه الله

شعراء طنجة كلهم والمغرب ذهبوا من الاغراب أبعد مذهب
سئلوا العسير من الاسير وانه بسؤالهم لأحق فاعجب واعجب
لولا الحيــاء وعزة لخمية طي الحشا ساواهم فى المطلب
قد كان ان سئل الندى يجزل وان نادى الصريخ ببابه اركب يركب

وله في هذا المعني رحمه الله

قبح الدهر فماذا صـنعا كلما أعطي نفيساً نزعا
قد هوي ظلما بمن عادته ان ينادي كل من يهوى لعا
من اذا الغيث همى منهمرا اخجلتها كفه فانقطعا
من غمام الجود من راحته عصفت ريح به فانقشعا
من اذا قيل الخنا صم وان نطق العافون همساً سمعا
قل لمن يطمع فى نائله قد أزال اليأس ذاك الطمعا
راح لا يملك الا دعوة جـبر الله العفاة الضيعا

وأقام المعتمد بطنجة رحمه الله أياما على الحال التى تقدم ذكرها ثم انتقل الى مدينة مكناسة فاقام بها أشهراً الى أن نفذ الامر بتسييرهم الى مدينة أغمات فاقاموا بها الى أن توفى المعتمد رحمه الله ودفن بها فقبره معروف هناك وكانت وفاته فى شهور سنة ٨٧ وقيل سنة ٨ فالله أعلم وسنه يوم توفى احدي وخمسون سنة فمن أحسن ما مر بي مما رثى به المعتمد على الله مقطوعة من شعر بن اللبانة أولها

لكل شئ من الاشياء ميقات ... وللمنى من مناياهن غايات
والدهر فى صبغة الحرباء منغمس ... الوان حالاته فيها استحالات
ونحن من لعب الشطرنج في يده ... وربما قمرت بالبيذق الشاة
فانفض يديك من الدنيا وساكنها ... فالارض قد أقفرت والناس قدماتوا
وقل لعالمها الارضى قد كتمت ... سريرة العالم العلوى اغمات
طوت مظلتها لا بل مذلتها ... من لم تزل فوقه للعز رايات
من كان بين الندى والبأس أنصله ... هندية وعطاياه هنيدات
انكرت الالتواء للقيود به ... وكيف تنكر فى الروضات حيات
وقلت هن ذؤابات فلم عكست ... من رأسه نحو رجليه الذؤابات
رأوه ليثاً فخافوا منه عادية ... عذرتهم فلعدوى الليث عادات

وله من قصيدة يرثيهم بها وهي كثيرة الجيد أولها

تبكي السماء بدمع رائح غادى ... على البهاليل من أبناء عباد
على الجبال التى هدت قواعدها ... وكانت الارض منهم ذات أوتاد
والرابيات عليها اليانعات ذوت ... انوارها فغدت فى خفض أوهاد
عريسة دخلتها النائبات على ... أساود لهم فيها وآساد
وكعبة كانت الآمال تعمرها ... فاليوم لا عاكف فيها ولا باد

تلك الرماح رماح الخط ثقفها ... خطب الزمان ثقافا غير معتاد

والبيض بيض الظبا فلت مضاربها ... أيدي الردى وثنتها دون اغماد

لما دنا الوقت لم تخلف له عدة ... وكل شيء لميقات وميعاد

كم من دراري سعد قد هوت ووهت ... هناك من درر للمجد أفراد

نور ونور فهذا بعد نعمته ... ذوي وذاك خبي من بعد ايقاد

يا ضيف اقفر بيت المكرمات فخذ ... في ضم رحلك واجمع فضلة الزاد

ويا مؤمل واديهم ليسكنهم ... خف القطين وجف الزرع بالوادي

ضلت سبيل الندى يابن السبيل فسر ... لغير قصد فما يهديك من هادي

وفيها يقول

نسيت إلا غداة النهر كونهم ... في المنشئات كأموات بالحاد

والناس قد ملئوا العبرين واعتبروا ... من لؤلؤ طافيات فوق ازباد

حط القناع فلم تستر مخدرة ... ومزقت أوجه تمزيق ابراد

تفرقوا جيرة من بعد ما نشئوا ... أهلا بأهل واولادا باولاد

حان الوداع فضجت كل صارخة ... وصارخ من مفداة ومن فادى

سارت سفائنهم والنوح يتبعها ... كأنها ابل يحدو بها الحادي

كم سال في الماء من دمع وكم حملت ... تلك القطائع من قطعات اكباد

من لى بكم يا بنى ماء السماء اذا ... ماء السماء أبى سقيا حشا الصادى

وهي طويلة جداً هذا ما اخترت له منها وابن اللبانة هذا هو ابو بكر محمد بن عيسى من أهل مدينة دانية وهى على ساحل البحر الرومي كان يملكها مجاهد العامرى وابنه على الموفق على ما تقدم ولابن اللبانة هذا أخ اسمه عبد العزيز وكانا شاعرين الا ان عبد العزيز منهما لم يرض الشعر صناعة ولا اتخذه مكسبا وانما كان من جملة التجار وأما ابو بكر

فرضيه بضاعة وتخيره مكسباً وأكثر منه وقصد به الملوك فأخذ جوائزهم
ونال اسنى الرتب عندهم وشعره نبيل المأخذ وهو فيه حسن المهيع
جمع بين سهوله الالفاظ ورشاقتها • وجودة المعانى ولطافتها • كان
منقطعاً الي المعتمد معدوداً فى جملة شعرائه لم يفد عليه الا آخر
مدته فلهذا قل شعره الذى يمدحه به وكان رحمه الله مع سهولة الشعر
عليه واكثاره منه قليل المعرفة بعلله لم يجد الخوض في علومه وانما
كان يعتمد في أكثره على جودة طبعه وقوة قريحته يدل على ذلك
قوله في قصيدة له سيرد مااختاره منها في موضعه

من كان ينفق من سواد كتابه   فانا الذى من نور قلبي أنفق

ولما خلع المعتمد على الله واخرج من اشبيلية لم يزل أبو بكر هذا يتقلب
في البلاد الي ان لحق بجزيرة ميرقة وبها مبشر العامرى المتلقب بالناصر
فحظي عنده وعلت حاله معه وله فيه قصائد أجاد فيها ماشاء فمنها قصيدة
ركب فيها طريقة لم أسمع بها لمتقدم ولا متأخر وذلك انه جعلها من
أولها الي آخرها صدر البيت غزل وعجزه مدح وهذا لم أسمع به لاحد
وأول القصيدة

وضحت وقد فضحت ضياء النير   فكأنما التحفت ببشر مبشر
وتبسمت عن جوهر فحسبته   ماقلدته محامدى من جوهر
وتكلمت فكأنّ طيب حديثها   متعت منه بطيب مسك أذفر
هزت بنغمة لفظها نفسى كما   هزت بذكراه أعالي المنبر
أذنبت واستغفرتها فجرت على   عاداته فى المذنب المستغفر
جادت علىّ بوصلها فكأنه   جدوى يديه على المقل المقترى
ولثمت فاها فاعتقدت بأننى   من كفه سوغت لثم الخنصر

سمحت بتعنيقي فقلت صنيعة ... سمحت علاه بها فلم تتعذر
نهد كقسوة قلبه فى معرك ... وحشا كلين طباعه في محضر
ومعاطف تحت الذوائب خلتها ... تحت الخوافق ماله من سمهري
حسنت امامي فى خمار مثل ما ... حسن الكمي امامه في مغفر
وتوشحت فكأنه في جوشن ... قد قام عنبره مقام العثير
غمزت ببعض قسيه من حاجب ... ورنت ببعض سهامه من محجر
أومت بمصقول اللحاظ تخلته ... يومى بمصقول الصفيحة مشهر
وضعت حشاياها فويق أرائك ... وضع السروج على الجيادالضمر
من رامة أو رومة لاعلم لي ... أأتت عن النعمان أم عن قيصر
بنت الملوك فقل لكسرى فارس ... تعزى والا قل لتبع حمير
عاديت فيها غر قومي فاغتدوا ... لاأرضهم أرضى ولاهم معشري
وكذلك الدنيا عهدنا أهلها ... يتعلفرون على الثريد الاعفر
طافت على بجمرة من خمرة ... فرأيت مريخاً براحة مشترى
فكأن أنملها سيوف مبشر ... وقدا كتست علق النجيع الاحمر
ملك أزرة برده ضمت على ... بأس الوصى وعزمة الاسكندر

هذا مااخترت له منها ومن نسيبه المليح الخفيف الروح قوله يتغزل ويمدح مبشراً هذا

هلاّ ثناك على قلب مشفق ... فترى فراشاً فى فراش يحرق
قد صرت كالرمق الذى لايرتجي ... ورجعت كالنفس الذى لايلحق
وغرقت فى دمعي عليك وغمنى ... طرفي فهل سبب به أتعلق
هل خدعة بتحية مخفية ... فى جنب موعدك الذي لايصدق
أنت المنية والمنى فيك استوي ... ظل الغمامة والهجير المحرق

لك قد ذابلة الوشيح ولونها لكن سنانك أكحل لاأزرق
ويقال انك ايكة حتى اذا غنيت قيل هو الحمام الاورق
يامن رشقت الى السلو فردنى سبقت جفونك كل سهم يرشق
لو في يدي سحر وعندي أخذة لجعات قلبك بعض حين يعشق
لتذوق ماقد ذقت من ألم الجوي وترق لي مما تراه وتشفق
جسدي من الاعداء فيك لأنه لايستبين لطرف طيف يرمق
لم يدر طيفك موضعي من مضجعي فعذرته فى انه لايطرق
جفت عليك منابتي ومنابعي فالدمع ينشع والصبابة تورق
وكأن أعلام الأمير مبشر نشرت على قلبي فأصبح يخفق

وفيها يقول يصف لعب الاسطول في يوم المهرجان

بشرى بيوم المهرجان فانه يوم عليه من احتفائك رونق
طارت بنات الماء فيه وريشها ريش الغراب وغير ذلك شوذق
وعلى الخليج كتيبة جرارة مثل الخليج كلاهما يتدفق
وبنو الحروب على الجواري التى تجري كما تجري الجياد السبق
ملأ الكماة ظهورها وبطونها فاتت كما يأتي السحاب المغدق
خاضت غدير الماء سابحة به فكأنما هي فى سراب أينق
عجباً لها ماخلت قبل عيانها ان يحمل الاسد الضواري زورق
هزت مجاديفاً اليك كأنها اهداب عين للرقيب تحدق
وكأنها أقلام كاتب دولة في عرض قرطاس تخط وتمشق

وله فيها احسان كثير وله من قصيدة يتغزل

فؤادي معنى بالحسان معنت وكل موقي فى التصابى موقت
ولى نفس يخفى ويخفت رقة ولكن جسمى منه أخفى وأخفت

وبي ميت الاعضاء حي دلاله ... غرامي به حي وصبري ميت
جعلت فؤادي جفن صارم جفنه ... فياحر مايصلى به حين يصلت
أذل له في هجره وهو ينثني ... وأسكن بالشكوى له وهو يسكت
وما أنبت حبل منه اذ كان في يدى ... لريحان ريعان الشبيبة منبت

ومن جيد ماله من قصيدة يمدح بها مبشراً ناصر الدولة أولها

راق الربيع ورق طبع هوائه ... فانظر نضارة أرضه وسمائه
واجعل قرين الورد فيه سلافة ... يحكي مشعشعها مصعد مائه
لولا ذبول الورد قلت بانه ... خد الحبيب عليه صبغ حيائه
هيهات أين الورد من خد الذى ... لا يستحيل عليك عهد وفائه
الورد ليس صفاته كصفاته ... والطير ليس غناؤها كغنائه
يتنفس الاصباح والريحان من ... حركات معطفه وحسن روائه
ويجول في الارواح روح ماسرت ... رياه من تلقائه بلقائه
صرف الهوى جسمي شبيه خياله ... من فرط خفته وفرط خفائه

ومن أحسن ما على خاطرى له بيتان يصف بها خالا وهما

بدا على خده خال يزينه ... فزادني شغفاً فيه الي شغف
كأن حبة قلبي عند رؤيته ... طارت فقال لها في الخد منه قف

ولابن اللبانة هذا احسان كثير منعني من استقصائه خوف الاطالة وأيضاً فلان هذا الكتاب ليس موضوعا لهذا الباب ؛ وانما يأتي منه فيه ماتدعوا اليه ضرورة سياق الحديث ثم رجع بنا القول الي أخبار المعتمد على الله وبلغني ان رجلا رأى في منامه قبل الكائنة العظمى على بني عباد بأشهر يسيرة وهو بمدينة قرطبة كان رجلا أتى حتي صعد المنبر واستقبل الناس بوجهه ينشدهم رافعاً صوته

رب ركب قد أناخوا عيسهم　في ذرى مجدهم حين بسق
سكت الدهر زمانا عنهم　ثم أبكاهم دما حين نطق

فما كان الا أشهراً يسيرة حتى وقع بهم ماوقع وأبكاهم الدهر كما قال وبلغ من حال المعتمد على الله بأغمات ان آلو حظياته وأكرم بناته ألجئت الي ان تستدعى غزلا من الناس تسد باجرته بعض حالها ، وتصاح به ماظهر من اختلالها ، فادخل عليها فيما أدخل غزل لبنت عريف شرطة أبيها كان بين يديه يزع الناس يوم بروزه لم يكن يراه الا ذلك اليوم واتفق ان السيدة الكبرى أم بنيه اعتلت وكان الوزير أبو العلاء زهر بن عبد الملك ابن زهر بمراكش قد استدعاه أمير المسلمين لعلاجه فكتب اليه المعتمد راغباً في علاج السيدة ومطالعة أحوالها بنفسه فكتب اليه الوزير مؤديا حقه ومجيباً له عن رسالته ومسعفاً له في طلبته واتفق ان دعا له في اثناء الرسالة بطول البقاء فقال المعتمد في ذلك

دعا لي بالبقاء وكيف يهوى　أسير ان يطول به البقاء
أليس الموت أروح من حياة　يطول على الشقي بها الشقاء
فمن يك من هواه لقاء حب　فان هواي من حتفي اللقاء
أأرغب أن أعيش أرى بناتي　عواري قد أضر بها الحفاء
خوادم بنت من قد كان أعلى　مراتبه اذا أبدوا النداء
وطرد الناس بين يدي ممري　وكفهم اذا غص الفناء
وركض عن يمين أو شمال　لنظم الجيش ان رفع اللواء
يعنيه امام أو وراء　اذا اختل الامام أو الوراء
ولكن الدعاء اذا دعاه　ضمير خالص نفع الدعاء
جزيت أبا العلاء جزاء بر　نوي براً وصاحبك العلاء

سيسلى النفس عن مافات علمي ... بان الكل يدركه الفناء

وورد عليه اغمات أبو بكر بن اللبانة المتقدم الذكر ملتزما عهد الوفاء قاضياً مايجب عليه من شكر النعمي فسر المعتمد بوروده فلما أزمع ابن اللبانة على السفر استنفد المعتمد وسعه ووجه اليه بعشرين مثقالا وثوبين وكتب اليه معها

اليك النذر من كف الاثير ... فان تقبل تكن عين الشكور

تقبل مايذوب له حياء ... وان عذرته حالات الفقير

ولا تعجب لخطب غض منه ... أليس الخسف ملتزم البدور

ورج لجبره عقبى نداه ... فكم جبرت يداه من كسير

وكم أعلت علاه من حضيض ... وكم حطت ظباه من أمير

وكم من منبر حنت اليه ... أعالي مرتقاه ومن سرير

زمان تزاحفت عن جانبيه ... جياد الخيل بالموت المبير

فقد نظرت اليه عيون نحس ... مضت منه بمعدوم النظير

نحوس كن في عقبي سعود ... كذاك تدور أقدار القدير

وكم أحظي رضاه من حظي ... وكم شهرت علاه من شهير

زمان تنافست في الحظ منه ... ملوك قد تجور على الدهور

بحيث يطير بالابطال ذعر ... ويلفى ثم أرجح من ثبير

فامتنع ابن اللبانة من قبول ذلك عليه • وصرفه بجماته اليه • وكتب مجيباً له عن شعره

سقطت من الوفاء على خبير ... فذرني والذى لك في ضميري

تركت هواك وهو شقيق ديني ... لئن شقت برودي عن غدور

ولا كنت الطليق من الرزايا ... لئن أصبحت أجحف بالاسير

أسير ولا أصير الي اغتنام ... معاذ الله من سوء المصير
اذا ما الشكر كان وان تناهي ... على نعمي فما فضل الشكور
جذيمة أنت والايام خانت ... وما أنا من يقصر عن قصير
انا أدري بفضلك منك أنى ... لبست الظل منه فى الحرور
غنى النفس أنت وان ألحت ... على كفيك حالات الفقير
تصرف في الندي حيل المعالي ... فتسمح من قليل بالكثير
أحدث منك عن نبع غريب ... تفتح عن جنى زهر نضير
وأعجب منك انك فى ظلام ... وترفع للعفاة منار نور
رويدك سوف توسعني سروراً ... اذا عاد ارتقاؤك للسرير
وسوف تحلنى رتب المعالي ... عداة تحل فى تلك القصور
تزيد على ابن مروان عطاءً ... بها وانيف ثم على جرير
تأهب أن تعود الى طلوع ... فليس الخسف ملتزم البدور

فراجعه المعتمد بهذه الابيات ؛

رد بري بغيا على وبرّا ... وجفا فاستحق لوما وشكراً
حاط نزري اذخاف تأكيد ضري ... فاستحق الجفاء ان حاط نزراً
فاذا ماطويت في البعض حمداً ... عادلومي فى البعض سراً وجهراً
ياأبا بكر الغريب وفاءً ... لاعدمناك فى المغارب ذخراً
أى نفع يجدي احتياط شفيق ... مت ضراً فكيف أرهب ضراً

فاجابه ابن اللبانة رحمه الله

أيها الماجد السميدع عذراً ... صرفنى البر انما كان براً
حاش لله ان أجيح كريما ... يتشكي فقراً وكم سد فقراً
لأأزيد الجفاء فيه شقوقا ... غدر الدهر بى لئن رمت غدراً

ليت لي قوة أو آوي لركن فتري للوفاء مني سراً
أنت علمتني السيادة حتي ناهضت همتي الكواكب قدراً
ربحت صفقة أزيل برودا عن أديمي بها والبس نخراً
وكفاني كلامك الرطب نيلا كيف ألفي دراً واطلب تبراً
لم تمت انما المكارم ماتت لاسقي الله بعدك الارض قطراً

ومما قاله المعتمد من الشعر عند موته وأمر ان يكتب على قبره

قبر الغريب سقاك الرائح الغادي حقاً ظفرت بأشلاء ابن عباد
بالحلم بالعلم بالنعمى اذا اتصلت بالخصب ان أجدبوا بالري للصادى
بالطاعن الضارب الرامى اذا اقتتلوا بالموت احمر بالضرغامة العادى
بالدهر فى نقم بالبحر فى نعم بالبدر فى ظلم بالصدر في النادى
نعم هو الحق حاباني به قدر من السماء فوافاني لميعاد
ولم أكن قبل ذاك النعش أعلمه ان الجبال تهادي فوق أعواد
كفاك فارفق بما استودعت من كرم رواك كل قطوب البرق رعاد
يبكى أخاه الذي غيبت وابله تحت الصفيح بدمع رائح غادي
حتي يجودك دمع الطل منهمر من أعين الزهر لم تبخل باسعاد
ولا تزل صلوات الله دائمة على دفينك لاتحصي بتعداد

وكان للمعتمد على الله هذا ولد يلقب بفخر الدولة رشحه للملك من بعده • وجعله ولى عهده • ولقبه بالمؤيد بنصر الله فعاقته الفتنة عن مراده • وحالت الاقدار بينه وبين اصداره وايراده • فما برح بفخر الدولة هذا تغير الايام بعد الفتنة الى ان أسلم نفسه في السوق وتعلم من الصنائع صنعة الصواغ فمر به محمد بن اللبانة المتقدم الذكر شاعر أبيه فقال فى ذلك

اذ كي القلوب أسى أبكى العيون دما ... بخطب وجدناك فيه يشبه العدما
أفراد عقد المنى منا قد انتثرت ... وعقد عروتنا الوثقى قد انفصما
شكاتنا فيك يافخر الهدي عظمت ... والرزء يعظم فيمن قدره عظما
طوقت من نائبات الدهر مخنقة ... ضاقت عليك وكم طوقتنا نعما
وعاد كونك في دكان قارعة ... من بعد ماكان في قصر حكى إرما
صرفت في آلة الصواغ أنملة ... لم تدر الا الندي والسيف والقلما
يد عهدتك للتقبيل تبسطها ... فتستقل الثريا ان تكون فما
ياصائغاً كانت العليا تصاغ له ... حلياً وكان عليه الحلى منتظماً
للنفخ في الصور هول ماحكاه سوي ... هول رأيناك فيه تنفخ الفحما
وددت اذ نظرت عيني اليك به ... لو ان عيني تشكو قبل ذاك عما
ماحطك الدهر لماحط من شرف ... ولا تحيف من اخلاقك الكرما
لح في العلى كوكباً ان لم تلح قمرا ... وقم بها ربوة ان لم تقم علما
واصبر فربتما أحمدت عاقبة ... من يلزم الصبر يحمد غب مالزما
والله لو أنصفتك الشهب لانكسفت ... ولو وفي لك دمع المزن لانسجما
بكى حديثك حتى الدر حين غدا ... يحكيك رهطاً وألفاظاً ومبتسما
وروضة الحسن من أزهارها عريت ... حزنا عليك لان أشبهتها شيما
بعد النعيم ذوي الريحان حين رأي ... ريحانك الغض يذوي بعد ما نعما
لم يرحم الدهر فضلا انت حامله ... من ليس يرحم ذاك الفضل لا رحما
شقيقك الصبح ان اضحي بشارقه ... وأنت في ظلمة فالصبح قد ظلما

فصل

وانما اوردنا هذه النبذة اليسيرة من اخبار المعتمد على الله معها تعلق بها

وان كانت مخرجة عن الغرض لندل بها على ما قدمنا من ذكر فضله وغزارة أدبه وإيثاره لذلك وأيضاً فليتصل نسق الأخبار عن المملكة أعني مملكة الأندلس الى المرابطين أصحاب يوسف بن تاشفين ولوجه ثالث وهو ان ما آلت اليه حال المعتمد هـذا من الخمول بعد النباهة والضعة بعـد الرفعة والقبض بعد البسط من جملة العبر التى أرتناها الأيام والمواعظ التي تصغر الدنيا فى عيون أولي الأفهام ثم ان يوسف ابن تاشفين استوسق له أمر الأندلس بعد القبض على المعتمد اذ كان هو كبش كتيبتها وعين أعيانها وواسطة نظمها فلم يزل أصحاب يوسف ابن تاشفين يطوون تلك الممالك مملكة مملكة الى ان دانت لهم الجزيرة بأجمعها فأظهروا في أول أمرهـم من النكاية فى العدو والدفاع عن المسلمين وحماية الثغور ماصدق بهم الظنون وأثلج الصدور وأقر العيون فزاد حب أهل الأندلس لهم واشتد خوف ملوك الروم منهم ويوسف ابن تاشـفين فى ذلك كله يمدهم فى كل ساعة بالجيوش بعـد الجيوش والخيل أثر الخيل ويقول في كل مجلس من مجالسه انما كان غرضنا فى ملك هذه الجزيرة أن يستنقذها من أيدى الروم لما رأينا استيلاءهم على أكثرها وغفلة ملوكهم وإهمالهم للغزو وتواكلهم وتخاذلهم وإيثارهم الراحة وانما همة أحدهم كأس يشربها وقينة تسمعه ولهو يقطع به أيامه ولئن عشت لأعيدن جميع البلاد التى ملكها الروم فى طول هذه الفتنة الى المسلمين ولأملأنها عليهم يعنى الروم خيلا ورجالا لا عهد لهم بالدعة ولا علم عندهم برخاء العيش انما هم أحدهم فرس يروضه ويستفرهه أو سلاح يستجيده أو صريخ يلبي دعوته فى أمثال لهذا القول فبلغ ذلك ملوك النصارى فيزداد فرقهم ويقوى مما بأيدي المسلمين بل مما بأيديهم

بأسهم وحين ملك يوسف أمير المسلمين جزيرة الأندلس وأطاعته بأسرها ولم يختلف عليه شيء منها عد من يومئذ فى جملة الملوك واستحق اسم السلطنة وتسمى هو وأصحابه بالمرابطين وصار هو وابنه معدودين فى أكابر الملوك لان جزيرة الأندلس هي حاضرة المغرب الأقصى وأم قراه ومعدن الفضائل منه فعامة الفضلاء من أهل كل شأن منسوبون اليها ومعدودين منها فهي مطلع شموس العلوم وأقمارها ومركز الفضائل وقطب مدارها أعدل الأقاليم هواء وأصفاها جوًّا وأعذبها ماء وأعطرها نبتاً وأنداها طلالا وأطيبها بكراً مستعذبة وآصالا

أرض يطير فؤادى من قرارته　　شوقاً لها ولمن فيها من الناس
قوم جنيت جنى ورد بذكرهم　　فهل بلقياهم أجنى جنى آس

فانقطع الى أمير المسلمين من الجزيرة من أهل كل علم فحوله حتى أشبهت حضرته حضرة بني العباس فى صدر دولتهم واجتمع له ولابنه من أعيان الكتاب وفرسان البلاغة ما لم يتفق اجتماعه فى عصر من الاعصار فممن كتب لأمير المسلمين يوسف كاتب المعتمد على الله أبو بكر المعروف بابن القصيرة أحد رجال الفصاحة والحائز قصب السبق في البلاغة كان على طريقة قدماء الكتاب من إيثار جزل الألفاظ وصحيح المعاني من غير التفات الى الأسجاع التي أخذتها متأخرو الكتاب اللهم الا ماجاء فى رسائله من ذلك عفواً من غير استدعاء رأيت له عن المعتمد رسائل تدل على ماوصفته به ليس على خاطرى منها شيء ثم كتب له أو لابنه بعد أبي بكر هذا الوزير الأجل أبو محمد عبد المجيد بن عبدون قد تقدم من نعته ما أغنانا عن تكراره ههنا وكان يكتب قبل من كتب له منهما للأمير سير بن أبى بكر بن تاشفين وهو الذى دخل على المعتمد

على الله اشبيلية فلم يزل يكتب له الى ان اتصل بأمير المسلمين باستدعاء منه له فمن رسائله عنه الى أمير المسلمين رسالة يخبر فيها بفتح مدينة شنترين أعادها الله وكان سير هذا هو الذي تولى فتحها فكتب عنه أبو محمد كتاباً أدام الله أمر أمير المسلمين وناصر الدين أبى الحسن علي ابن يوسف بن تاشفين خافقة بنصرة الدين أعلامه نافذة في السبعة الاقاليم أقلامه من داخل مدينة شنترين وقد فتحها الله تعالى بحسن سيرتك ويمن نقيبتك على المسلمين والحمد لله رب العالمين حمداً يستغرق الالفاظ الشارحة معناه ويسبق الالحاظ الطامحة أدناه لا يرد وجهه نكوص ولا يحد كنهه تخصيص • ولا يحزره بقبض ولا ببسط مثال ولا تخمين • ولا تحصره بخط ولا بعقد شمال ولا يمين • ولا يسعه أمد يحويه • ولا يقطعه أبد يستوفيه • ولا يجمعه عدد يحصيه • اذا سبقت هواديه • لحقت تواليه • وعلى محمد عبده وأمين وحيه • مصادع بأمره ونهيه • نظام الامه • وامام الائمه • سر ادم من بنيه • ونجر العالم ومن فيه • صلاة تامة نقضيها • وتحية عامة نؤديها • ترفض ارفضاض الزهر من كمامه • وتنفض انفضاض المسك من ختامه • فلقد صدع بتوحيده • وجمع على وعده ووعيده • وأوضح الحق وجلاه • ونصح الخلق وهداه • الا من حقت عليه كلمة العذاب • وسبقت له الشقوة في أم الكتاب • وأظهر العزيز عزت أسماؤه • وجلت كبرياؤه • دينه على جميع الاديان • على رغم من الصلبان • ووقم من الاوثان • وانجز لنا تعالى وعده • ونصرنا معه صلى الله عليه وسلم وبعده • وجمع في هذه الجزيرة شمل الاسلام بعد انصرامه وانبتاته • وقطع ميل الاشراك بعد انتصابه وثباته • وأنزل الذين كفروا من أهل الكتاب بايدينا من

صياصيهم • نأخذ باقدامهم ونواصيهم • وكانت قلعة شنترين • أدام الله أمر أمير المسلمين • من أحصن المعاقل للمشركين • وأثبت المعاقد على المسلمين فلم نزل بسعيك الذى اقتفيناه • وهديك الذى اكتفيناه • نخضد شوكتها ونحت أثلتها • ونتناولها عللا بعد نهل • ونطاولها عجلا فى مهل • ونجرف الحين بعد الحين سراة رجالها • ونتطرف المرة بعد المرة حماة أبطالها • ونخوض غمار كفاحهم • وبحار صفاحهم • الى بسط أشباحهم • وقبض أرواحهم • ونهدى للقنا وصدورها رؤسهم • والى لظى وسعيرها نفوسهم • وننقلهم من الشفار اليمانيه • الي النار الحاميه • ونرفع بالجد والتشمير حجاب كيدهم الغامض • ونصعضع باستخارة القديم القدير هضاب أيدهم الهائض • ولما رأينا هذه القلعة الشريفة المناسب فى القلاع المنيفة المناصب على البقاع • قد استشرى داؤها • وأعيا دواؤها • استخرنا الله تعالى على صمدها • وضرعنا اليه فى تسهيل قصدها • وسألناه ان لا يكلنا الى نفوسنا • وان كانت فى صيانة ديانته مبذوله • وعلى المكروه والمحبوب فى ذاته محموله • فقصدنا اليها • وهجمنا هجوم الردى عليها • فى وقت انسدت فيه أبواب السبل • وأعيت أهاها بحول الله وجوه الحيل • والدهر قد كشر عن انيابه العصل • وقام من الوحول والسيول على أثبت رجل • فنزلنا بساحة القوم • فساء صباحهم ذلك اليوم • فلم نزل نصاولها مصاولة المحتسب المؤتجر • ونطاولها مطاولة المرتقب لامر الله المنتظر • ونشن الغارات • على جميع الجهات • فترد جيوشنا عليهم خفافا وتصدر الينا ثقالا • فتملأ صدور الاعداء أوجالا • وأيدى الاولياء أموالا • وأمرنا باقامة سوق سبيهم وأموالهم • على مرأى ومسمع من نسائهم ورجالهم • فازدادت ريحهم بذلك ركوداً • ونارهم خموداً • ولما

ضمهم لضيق ولاجه الحصار • وغشيهم بتفريق أمواجه البوار • وأحاط بهم البلاء • واستشاط عليهم بغضب الجبار القضا • ولم يكن لليل بأسائهم سحر يتأمل • ولا لورد ضرائهم صدر يؤمل • اختاروا الدنية على المنيه • ورضوا بالاستسلام للعبوديه • واسلام الاهل والذريه • والسلامة من مدارج الكفن • وموالج الجنن • ولو بجريعة الذقن • وكان القتل كما قدمنا قد أتى على صيد أعيانهم • وصناديد فرسانهم • فلم تبق الا شرزمة قليله • وعصبة ذليله • لا تضر حياتهم موحداً • ولا تسر نجاتهم ملحداً • نقلناهم من يمين المنون الي شمال الهون • ومن أليم الحصار الى لئيم الاسار • وكانوا سألونا الابقاء عليهم فأجبناهم • بعد ان قدموا من الخضوع صدقة بين يدي نجواهم • ووهبنا أولاهم لاخراهم • وجعلنا العفو عنهم تطريقاً لسواهم • ممن يتقيل صنيعهم اذا نحن غداً باذن الله حاصرناهم • وهذه القلعة التي انتهينا الى قرارها • واستولينا على اقطارها أرحب المدن أمدا للعيون • وأخصبها بلدا في السنين • لا يريمها الخصب ولا يتخطاها • ولا يرومها الجدب ولا يتعاطاها • فروعها فوق الثريا شامخه • وعروقها تحت الثري راسخه • تباهي بازهارها نجوم السما • وتناجي باسرارها أذن الجوزا • مواقع القطار في سواها مغبرة مربدة وهي زاهرة ترف انداؤها • ومطالع الانوار في حشاها مقشعرة مسودة وهي ناضرة • تشف اضواؤها • وكانت في الزمن الغابر • أعيت على عظيم القياصر • فنازلها بأكثر من القطر عددا • وحاولها باوفر من البحر مددا • فأبت على طاعته كل الاباء • واستعصت على استطاعته أشد استعصا • ومردت مرود مارد على الزباء • فامكننا الله تعالى من ذروتها وأنزل ركابها لنا عن صهوتها

ومن رسائله الاخوانيات رسالة كتب بها الى أبي عبد الله محمد بن أبي الخصال يخطب مودته • ويستدعي من اخائه جدته • أنا مع عمادي الاعظم أدام الله علوه كعزيب طواه الجهد • واواه من تهامة وهد وماله بريحها العقيم ولا بحرها المعقد المقيم عهد • فرفضت به من سرابها المغرق وشرابها المحرق في حمام • فاشرف من ذلك الجحيم وضرمه لولا تنفيس الرحيم محته بكرمه على الحمام • فوأل الي ربوة من رباها • وسأل جبال فاران عن مهب صباها • ليلتقط من أنفاسها بوساطة نجد • بردا يهديه الى حر الوجد • فحيته ببابل • من نسيمها العليل • فاحيته بعد التعليل • وأنا ماقصدت فيما خطبت به اليك لآخذ عليك بفضل الابتدا وانما سلكت سبيل الاقتدا • واتبعت دليل الاهتدا • وأردت ان أستنير باضوائك • واستثير من سمائك • نجوما تهديني في غسق الظلام • أو رجوما تعديني على مسترق سمع الكلام • فان سمح عمادي بالجواب ورجعه • غالطت بما حصل منه لديَّ ووصل اليَّ الحمام في سجعه • والانصار في حسانها • والاعصار في نيسانها • وطيئاً في وليدها وحبيبها • وسعداً في خالدها وشبيبها • وخرقت بما أعار من مراح وأثار من ارتياح جيب مخارق طربا • ولم أدع لابي العتاهية في ثقيله المغرب وخفيفه المطرب اربا • وطويت كشحا عن اغاريد عبيد • واضربت صفحا عن اناشيد لبيد • وطالبت بلغاء العصر • بالمثل المضروب في جمل مصر • وقات هذه القارة فراموها وانصفوا • وهذه الغاية فروموها او نصفوا وان كانت تؤمه البواهر ماالحات في درجي • ونجومه الزواهر ماحلت في برجي • وأن كفي من جنا ثماره لصفر • وان طرفي من سنا اقمارها القفر والنهي بضنه عليَّ بدرة من بحره • او نفثة من سحره • لبين طنين • لم

أحصل من تحقيقهما على أثر ولا عين • أحدهما قلت انه أجرى اسمي على خلده • فلم يجدني في انداده ولا بلده • فقال وما أنا وفلان وهل هو الا من الغرب • وان كان بزعمه في الصميم من العرب • وهل الغرب في الاقطار • الا كاللحق بين الاسطار • والآخر ربما يقول • مالا تقبله العقول • اني لا نظر من فلان باحد من نظر الزرقا • الى أجل من خطر العنقا • وينشد قول أبي العلاء بن سليمان • شاعر معرة النعمان

* أرى العنقاء تكبر أن تصادا *

وأنا أقسم بالربيع الممطر وائتلاف أوانه • والبقيع المزهر واختلاف ألوانه • والشباب ودولته • والمضراب وصولته • والمثاني اذا نسقت • والقناني وما وسقت • وان أقسمت من بعضها بيمين • لا أنلقي رايتها بشمال ولا يمين • ان اسمي في البلغاء والفهما • كاسم العنقاء في الاسما • اسم ماوقع على مسمي • ولفظ مادل على معنى • فاين أقع مما تريد • وكتابي بين يدى حمدى أو عتابي بريد ينفض تهائم ظنوني • أو ينقض تمائم جنوني • وله الرأى العالي في الجواب • على خطأ كنت من ظني أو صواب • ان شاء الله عز وجل ومن سلامي • على عمادى الاعظم وامامي • احفله واحفده • واجزله واوفده • والسلام الاتم الاعم عليه ورحمة الله وبركاته فراجعه الوزير أبو عبد الله برسالة لم يكتب مثلها في بابها أبدع فيها غاية الابداع وان كان فيها بعض تكلف تسمي هذه الرسالة الحولية منعني من ايرادها في هذا المرسوم مافيها من الطول ولابي محمد عبد المجيد المذكور احسان قد اشتهر عندنا بتلك الاقطار شهرة الامثال • وسار ذكره فيها سير الجنوب والشمال

واتصلت حال أمير المسلمين يوسف كما ذكرنا في ايثار الغزو وقمع ملوك

الروم والحرص على مايعود بالمصلحة على جزيرة الاندلس الى ان توفى فى شهور سنة ٤٩٣ وقام بأمره من بعده ابنه على بن يوسف ابن تاشفين • وتلقب بلقب أبيه أمير المسلمين • وسمي أصحابه المرابطين فجرى على سنن أبيه فى ايثار الجهاد • واخافة العدو وحماية البلاد • وكان حسن السيرة جيد الطوية نزيه النفس بعيداً عن الظلم كان الى ان يعد فى الزهاد والمتبتلين • أقرب منه الى ان يعد فى الملوك والمتغلبين • واشتد ايثاره لاهل الفقه والدين • وكان لايقطع أمراً فى جميع مملكته دون مشاورة الفقهاء فكان اذا ولى أحداً من قضاته كان فيما يعهد اليه ألا يقطع أمراً ولا يبت حكومة فى صغير من الامور ولا كبير الا بمحضر أربعة من الفقهاء فبلغ الفقهاء فى أيامه مبلغاً عظيما لم يبلغوا مثله فى الصدر الاول من فتح الاندلس ولم يزل الفقهاء على ذلك وأمور المسلمين راجعة اليهم ، وأحكامهم صغيرها وكبيرها موقوفة عليهم . طول مدته فعظم أمر الفقهاء كما ذكرنا وانصرفت وجوه الناس اليهم فكثرت لذلك أموالهم واتسعت مكاسبهم وفى ذلك يقول أبو جعفر أحمد بن محمد المعروف بابن البنى من أهل مدينة جيان من جزيرة الأندلس •

أهل الرياء لبستمو ناموسكم ... كالذئب أدلج فى الظلام العاتم

فملكتمو الدنيا بمذهب مالك ... وقسمتمو الاموال بابن القاسم

وركبتمو اشهب الدواب باشهب ... وباصبغ صبغت لكم فى العالم

وانما عرض أبو جعفر هذا فى هذه الابيات بالقاضى أبى عبد الله محمد ابن حمدين قاضى قرطبة وهو كان المقصود بهذه الابيات ثم هجاه بعد هذا صريحاً بأبيات أولها

أدجال هذا أوان الخروج ويا شمس لوحي من المغرب
يريد ابن حمدين ان يعتفى وجدواه أنأي من الكوكب
اذا سئل العرف حك استه ليثبت دعــواه في تغلب

في أمثال هذه الابيات وكان القاضي أبو عبد الله بن حمدين ينتسب الى تغلب ابنة وائل ولم يكن يقرب من أمير المسلمين ويحظي عنده الا من علم علم الفروع أعني فروع مذهب مالك فنفقت في ذلك الزمان كتب المذهب وعمل بمقتضاها ونبذ ماسواها وكثر ذلك حتى نسي النظر في كتاب الله وحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يكن أحد من مشاهير أهــل ذلك الزمان يعتني بهما كل الاعتناء ودان أهــل ذلك الزمان بتكفير كل من ظهر منه الخوض في شيء من عــلوم الكلام وقرر الفقهاء عند أمير المسلمين تقبيح علم الكلام وكراهة السلف له وهجرهم من ظهر عليه شيء منه وانه بدعة في الدين وربما أدى أكثره الى اختلال في العقائد في اشباه هذه الاقوال حتى استحكم في نفسه بغض علم الكلام وأهــله فكان يكتب عنــه في كل وقت الي البلاد بالتشديد في نبذ الخوض في شيء منه وتوعد من وجد عندم شيء من كتبه ولما دخلت كتب أبي حامد الغزالي رحمه الله المغرب أمر أمير المسلمين باحراقها وتقدم بالوعيد الشديد من سـفك الدم واستئصال المال الي من وجد عنده شيء منها واشتد الامر في ذلك ولم يزل امير المسلمين من اول امارته يستدعي اعيان الكتاب من جزيرة الاندلس وصرف عنايته الي ذلك حتي اجتمع له منهم مالم يجتمع لملك كابي القاسم ابن الجد المعروف بالاحدب احد رجال البلاغة وابي بكر محمــد ابن محمد المعروف بابن القبطرنة وابي عبد الله محمد بن ابي الخصال واخيه

ابى مروان وابى محمد عبد المجيد بن عبدون المذكور آنفاً في جماعة يكثر ذكرهم وكان من انبههم عنده واكبرهم مكانة لديه ابو عبد الله محمد بن ابي الخصال وحق له ذلك اذ هو آخر الكتاب واحد من انتهي اليه علم الآداب وله مع ذلك في علم القرآن والحديث والاثر وما يتعلق بهذه العلوم الباع الارحب واليد الطولى فمما اختار له رحمه الله فصول من رسالة كتب بها مراجعا لبعض اخوانه عن رسالة وردت عليه منه يستدعي فيها منه شيئا من كلامه وهذا الرجل صاحب الرسالة هو أبو الحسن علي بن بسام صاحب كتاب الذخيرة وصل من السيد المسترق والمالك المستحق. وصل الله انعامه لديه. كما قصر الفضل عليه كتابه البليغ . واستدراجه المريغ. فلولا ان يصلد زند اقتداحه. ويرقد طرف افتتاحه . وتنقبض يد انبساطه . وتغبن صفقة اغطباطه . للزمت معه مركز قدرى. وصنت سريرة صدري . لكنه بنفثات سحره. يسمع الصم. ويستنزل العصم. ويقتاد الصعب فيصحب . ويستدر الصخور فتحلب. ولما فجأني ابتداؤه . وقرع سمعي نداؤه فزعت الى الفكر . وخفق القلب بين الامن والحذر. فطاردت من الفقر أوابد قفر . وشوارد عفر . تغبر في وجه سائقها. ولا يتوجه اللحاق لوجيها ولاحقها . فعلمت انها الاهابة والمهابه . والاصابة والاسترابه . حتى اياستني الخواطر. وأخلفتني المواطر. الا زرجا يعقب جوادا . وبهرجا لايحتمل انتقادا . وأنى لمثلى والقريحة مرجاة. والبضاعة مزجاة. ببراعة الخطاب. وبزاعة الكتاب. ولولا دروس معالم البيان . واستيلاء العفاء على هذا الشأن . لما فاز لمثلى فيه قدح . ولا تحصل لى في سوقه ربح .

لكنه جوخال ومضمار جهال وهى حكمة الله فى الخلق وقسمته للرزق وأنا أعزك الله أربأ بقدر الذخيرة عن هذه النتف الاخيرة وأرى انها قد بلغت مداها واستوفت حلاها وأنا أخشى القدح فى اختيارك والاخلال بمختارك وعلى ذلك فوالله مامن عادتى ان أثبت ما أكتب في رسم ينقل ولا فى وضع المراتب عندنا مخاطب يحتفزله ويحتفل وانما هو عفو فكر ويسير ذكر وعذراً أعزك الله فانى خططت ماخططته والنوم مغازل والقرّ منازل والريح تلعب بالسراج وتصول عليه صولة الحجاج فطوراً تسدّده سناناً وتارة تحرّكه لساناً وآونة تطويه حبابة وأخرى تنشره ذؤابه وتقيمه أبرة طب وتعطفه برة ذهب أوحمة عقرب وتقوسه حاجب فتاة ذات غمزات وتسلطه على سليطه وتزيله عن خايطه وتخلعه نجما وتمده رجماً وتسل روحه من ذباله وتعيده الى حاله وربما نصبته أذن جواد ومسخته حدق جراد ومشقته حروف برق بكف ودف ولثمت بسناه قنديله وألقت على أعطافه منديله فلا حظ منه للعين ولا هداية في الطرس لليدين والليل زنجى الاديم تبرى النجوم قد جللنا ساجه وأغرقتنا أمواجه فلا مجال للحظ ولا تعارف الا بلفظ لو نظرت فيه الزرقاء لاكتحلت أو خضبت به الشيبة لما نصلت والكلب قد صافح خيشومه ذنبه وأنكر البيت وطنبه والتوى التواء الحباب واستدار استدارة الحباب وجلده الجليد وصعد أنفاسه الصعيد فحماه مباح ولا هرير ولا نباح والنار كالرحيق أو كالصديق كلاهما عنقاء مغرب أو نجم مغرب استوي الفصل ولك فى الأغضاء الفضل والسلم ولابي عبد الله هذا ديوان رسائل يدور بأيدي أدباء أهلا الاندلس قد جعلوه مثالا يحتذونه ونصبوه اماما يقتفونه منعنى من ايراد مااختاره من ذلك خوف الخروج

الى التطويل الممل والاكثار المخلّ فلم يزل أبو عبد الله هذا وأخوه كاتبين لامير المسلمين الى ان أخر أمير المسلمين أبا مروان عن الكتابة لموجدة كانت منه عليه سببها انه أمره وأخاه أبا عبد الله أن يكتبا عنه الى جند بلنسية حين تخاذلوا وتواكلوا حتى هزمهم ابن رذمير لعنه الله هزيمة قبيحة وقتل منهم مقتلة عظيمة فكتب أبو عبد الله رسالته المشهورة في ذلك وهي رسالة كاد أهل الاندلس قاطبة أن يحفظوها أحسن فيها ماشاء منعني من ايرادها مافيها من الطول وكتب أبو مروان رسالة في ذلك الغرض أفحش فيها على المرابطين وأغلظ لهم في القول أكثر من الحاجة فمن فصولها قوله أى بنى اللئيمة وأعيار الهزيمة الام يزيفكم الناقد ويردكم الفارس الواحد فلت لكم بارتباط الخيول ضأنا لها حالب قاعد لقد آن أن نوسعكم عقابا وألا تلوثوا على وجه نقابا وان نعيدكم الى صحرائكم ونطهر الجزيرة من رحضائكم في أمثال لهذا القول فاحنق ذلك أمير المسلمين وأخره عن كتابته وقال لابى عبد الله أخيه كنا في شك من بغض أبى مروان المرابطين والآن قد صح عندنا فلما رأى ذلك أبو عبد الله استعفاه فأعفاه ورجع الى قرطبة بعد مامات أخوه أبو مروان بمراكش وأقام هو بقرطبة الى أن استشهد في داره رحمه الله أول الفتنة الكائنة على المرابطين

واختلت حال أمير المسلمين رحمه الله بعد الخمسمائة اختلالا شديداً فظهرت في بلاده مناكر كثيرة وذلك لاستيلاء أكابر المرابطين على البلاد ودعواهم الاستبداد وانتهوا في ذلك الى التصريح فصار كل منهم يصرح بانه خير من على أمير المسلمين وأحق بالامر منه واستولى النساء على الاحوال وأسندت اليهن الامور وصارت كل امرأة من أكابر

لمتونة ومسوفة مشتملة على كل مفسد وشرير وقاطع سبيل وصاحب خمر وماخور وأمير المسلمين فى ذلك كله يتزيد تغافله ويقوى ضعفه وقنع باسم امرة المسلمين وبما يرفع اليه من الخراج وعكف على العبادة والتبتل فكان يقوم الليل ويصوم النهار مشتهراً عنه ذلك وأهمل أمور الرعية غاية الاهمال فاختلّ لذلك عليه كثير من بلاد الاندلس وكادت تعود الى حالها الاول لاسيما منذ قامت دعوة ابن تومرت بالسوس

﴿ ذكر قيام محمد بن تومرت المتسمى بالمهدى ﴾

ولما كانت سنة ٥١٥ قام بسوس محمد بن عبد الله بن تومرت فى صورة آمر بالمعروف ناه عن المنكر ومحمد هذا رجل من أهل سوس مولده بها بضيعة منها تعرف بايجلى أن وارغن وهو من قبيلة تسمى هرغة من قوم يعرفون أيسر غينن وهم الشرفاء بلسان المصامدة ولمحمد بن تومرت نسبة متصلة بالحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب وجدت بخطه وكان قد رحل الى المشرق فى شهور سنة ٥٠١ فى طلب العلم وانتهى الى بغداد ولقى أبا بكر الشاشى فأخذ عليه شيئاً من أصول الفقه وأصول الدين وسمع الحديث علي المبارك بن عبد الجبار ونظرائه من المحدثين وقيل انه لقى أبا حامد الغزالى بالشام أيام تزهده فالله أعلم وحكى انه ذكر للغزالى مافعل أمير المسلمين بكتبه التى وصلت الى المغرب من احراقها وافسادها وابن تومرت حاضر ذلك المجلس فقال الغزالي حين بلغه ذلك ليذهبن عن قليل ملكه وليقتلن ولده وما أحسب المتولى لذلك الا حاضراً مجلسنا وكان ابن تومرت يحدث نفسه بالقيام عليهم فقوى طمعه وكرّ راجعاً الي الاسكندرية فأقام بها يختلف الى مجلس أبى بكر الطرطوشى

الفقيه وجرت له بها وقائع فى معنى الامر بالمعروف والنهي عن المنكر أفضت الى أن نفاه متولى الاسكندرية عن البلاد فركب البحر فبلغنى انه استمرعلى عادته في السفينه من الامر بالمعروف والنهي عن المنكر الى أن ألقاه أهل السفينة في البحر فأقام أكثر من نصف يوم يجرى في ماء السفينة لم يصبه شئ فلما رأوا ذلك من أمره انزلوا اليه من أخذه من البحر وعظم في صدورهم ولم يزالوا مكرمين له الى أن نزل من بلاد المغرب بجاية فاظهر بها تدريس العلم والوعظ واجتمع عليه الناس ومالت اليه القلوب فأمره صاحب بجاية بالخروج عنها حين خاف عاديته فخرج منها متوجها الي المغرب فنزل بضيعة يقال لها ملالة على فرسخ من بجاية وبها لقيه عبد المؤمن بن على وهو إذذاك متوجه الى المشرق فى طلب العلم فلما رآه محمد بن تومرت عرفه بالعلامات التى كانت عنده وكان ابن تومرت هذا أوحد عصره فى علم خط الرمل مع انه وقع بالمشرق على ملاحم من عمل المنجمين وجفور من بعض خزائن خلفاء بنى العباس أوصله الى ذلك كله فرط اعتنائه بهذا الشأن وماكان يحدث به نفسه وبلغنى من طرق صحاح انه لما نزل ملالة الضيعة التى تقدم ذكرها سمع وهو يقول ملالة ملالة يكررها على لسانه يتأمل أحرفها وذلك لما كان يراه ان أمره يقوم من موضع فى اسمه ميم ولامان فكان كما ذكرنا اذا كررها يقول ليست هى وأقام بهذه الضيعة أشهراً وبها مسجد يعرف به وهو باق الى اليوم لا أدري أبني على عهده أو بعده فاستدعى عبد المؤمن وخلا به وسأله عن اسمه واسم أبيه ونسبه فتسمى له وانتسب وسأله عن مقصده فاخبره انه راحل فى طلب العلم الى المشرق فقال له ابن تومرت أو خير من ذلك قال وماهو قال شرف

الدنيا والآخرة تصحبني وتعينني على ما أنا بصدده من اماتة المنكر واحياء العلم واخماد البدع فأجابه عبد المؤمن الى ما أراده وأقام ابن تومرت بملالة أشهراً ثم رحل عنها وصحبه من أهلها رجل اسمه عبد الواحد يعرفه المصامدة بعبد الواحد الشرقي وهو أول من صحبه بعد عبد المؤمن وخرج متوجهاً الى المغرب وقيل انه انما لقي عبد المؤمن بموضع يعرف بفنزارة من بلاد متيجة وعبد المؤمن يعلم صبيان القرية المذكورة فسأله ابن تومرت صحبته والقراءة عليه واعانته بعد أن عرفه بالعلامات كما قد تقدم وبهذه القرية له حكاية ظريفة وذلك انه رأى وهو بها فى المنام كأنه يأكل مع أمير المسلمين على بن يوسف فى صحفة واحدة قال ثم زاد أكلي على أكله وأحسست من نفسي شرها الي الطعام ولم يزل ذلك بي الى أن اختطفت الصحفة من بين يديه وانفردت بها فلما نتبه قص الرؤيا على رجل كان يقرأ عليه اسمه عبد المنعم بن عشير يكنى أبا محمد كان يقرأ عليه فلما أتى على آخرها قال يابنيّ يا عبد المؤمن هذه الرؤيا لا ينبغي أن تكون لك انما هي لرجل ثائر يثور على أمير المسلمين فيشاركه في بعض بلاده ثم يغلبه بعد ذلك عليها كلها وينفرد بمملكتها واتفق له فيها أيضاً من العجائب التي تثبت في باب الكلام الموافقة للقدر ان رجلا من وجوه أصحاب الملك العزيز بن المنصور الصنهاجي صاحب بجاية والقلعة وجد عليه الملك العزيز فاشتد خوفه فهرب منه الي هذه الضيعة التي كان فيها عبد المؤمن فكان معه بها يعلم الصبيان وانتهت حال ذلك الرجل الي غاية الاقلال ثم اتفق أن صاحبه رضي عنه فبلغه ذلك فسار الي بجاية فدخل عليه فسأله أين كنت في هذه الايام فأخبره بقصته وكيف كان الصبيان يحيونه بالكسر فضحك وقال الضيعة لك وما والاها

وأمر له بمال ومركب وثياب فخرج الرجل الى الضيعة فى خيل ورجال معه وخرج اليه أهلها يتلقونه فأتى الصبيان عبد المؤمن وهو قاعد بفناء المسجد فقالوا له أتعرف من هذا الذى أهتزت له هذه الارض قال لا قالوا هو فلان صاحبك الذى كان يعلمنا معك فقال ان كانت حالة فلان انتهت الى هذا فلا بدّ أن أكون انا غداً أمير المؤمنين فكان الامر كما قال ووافقت كلمته القدر وخرج ابن تومرت كما ذكرنا متوجهاً الي المغرب حتى أتى مدينة تلمسان فأقام بمسجد بظاهرها يعرف بالعباد جاريا على عادته وكان قد وضع له فى النفوس هيبة وفى الصدور عظمة فلا يراه أحد الاهابة وعظم أمره وكان شديد الصمت كثير الانقباض اذا انفصل عن مجلس العلم لا يكاد يتكلم بكلمة أخبرني بعض أشياخ تلمسان عن رجل من الصالحين كان معتكفاً معه بمسجد العباد انه خرج عليهم ذات ليلة بعد ما صلى العتمة فنظر اليهم وقال اين فلان لرجل كان يصحبهم فأخبروه انه مسجون فقام من وقته ودعا برجل منهم يمشي بين يديه حتى أتى باب المدينة فدقّ على البواب دقاً عنيفاً واستفتح فأجابه البواب الي الفتح بسرعة من غير تلكى ولا ابطاء ولو استفتح أمير المؤمنين لتعذر ذلك عليه ودخل حتي أتى السجن فابتدر اليه السجانون والحرس يتمسحون به ونادي يافلان باسم صاحبهم فأجابه فقال اخرج فخرج والسجانون ينظرون اليه كأنما أفرغ عليهم الماء الحار وخرج بصاحبه حتى أتى المسجد وكانت هذه عادته فى كل مايريد لا يتعذر عليه مراد ولا يمتنع عليه مطلوب قد سخرت له الرعية وذلت له الجبابرة ولم يزل مقيما بتلمسان وكل من بها يعظمه من أمير ومأمور الي ان فصل عنها بعد ان استمال وجوه أهلها وملك قلوبها فخرج قاصداً

مدينة فاس فلما وصل اليها اظهر ما كان يظهره وتحدّث فيما كان يتحدث فيه من العلم وكان جل مايدعو اليه علم الاعتقاد على طريق الاشعرية وكان أهل المغرب على ماذكرنا ينافرون هذه العلوم ويعادون من ظهرت عليه شديداً أمرهم فى ذلك فجمع والى المدينة الفقهاء وأحضره معهم فجرت له مناظرة كان له الشفوف فيها والظهور لانه وجد جواً خالياً وألفى قوما صياماً عن جميع العلوم النظرية خلا علم الفروع فلما سمع الفقهاء كلامه أشاروا على والى البلد باخراجه لئلا يفسد عقول العوام فأمره والى البلد بالخروج فخرج متوجهاً الى مراكش وكتب بخبره الى أمير المسلمين على بن يوسف فلما دخلها أحضر بين يديه وجمع له الفقهاء للمناظرة فلم يكن فيهم من يعرف مايقول حاشا رجل من أهل الاندلس اسمه مالك بن وهيب كان قد شارك فى جميع العلوم الا انه كان لا يظهر الا ماينفق فى ذلك الزمان وكانت لديه فنون من العلم رأيت له كتاباً سماه قراضة الذهب فى ذكر لئام العرب ضمنه لئام العرب فى الجاهلية والاسلام وضم الى ذلك مايتعلق به من الآداب فجاء الكتاب لا نظير له في فنه رأيته فى خزانة بني عبد المؤمن ولمالك بن وهيب هذا تحقق بكثير من أجزاء الفلسفة رأيت بخطه كتاب الثمرة لبطلميوس فى الاحكام وكتاب المجسطي فى علم الهيئة وعليه حواش بتقييده أيام قراءته اياه على رجل من أهل قرطبة اسمه حمد الذهبي ولما سمع مالك هذا كلام محمد بن تومرت استشعر حدّة نفسه وذكاء خاطره واتساع عبارته فأشار على أمير المسلمين بقتله وقال هذا رجل مفسد لا تؤمن غائلته ولا يسمع كلامه أحد الا مال اليه وان وقع هذا في بلاد المصامدة ثار علينا منه شر كثير فتوقف أمير المسلمين فى قتله وأبى ذلك عليه دينه

وكان رجلا صالحاً مجاب الدعوة يعد فى قوام الليل وصوام النهار الا انه كان ضعيفاً مستضعفاً ظهرت فى آخر زمانه مناكر كثيرة وفواحش شنيعة من استيلاء النساء على الاحوال واستبدادهن بالامور وكان كل شرير من لص أو قاطع طريق ينتسب الى امرأة قد جعلها ملجأ له وزراً على ماتقدم فلما يئس مالك مما أراده من قتل ابن تومرت أشار عليه بسجنه حتى يموت فقال أمير المسلمين علام نأخذ رجلا من المسلمين نسجنه ولم يتعين لنا عليه حق وهل السجن الا أخو القتل ولكن نأمره أن يخرج عنا من البلد وليتوجه حيث شاء فخرج هو وأصحابه متوجهاً الى سوس فنزل بموضع منها يعرف بتينملل * من هذا الموضع قامت دعوته وبه قبره ولما نزله اجتمع اليه وجوه المصامدة فشرع في تدريس العلم والدعاء الى الخير من غير أن يظهر أمره ولا طلبة ملك وألف لهم عقيدة بلسانهم وكان أفصح أهل زمانه في ذلك اللسان فلما فهموا معانى تلك العقيدة زاد تعظيمهم له وأشربت قلوبهم محبته وأجسامهم طاعته فلما استوثق منهم دعاهم الى القيام معه أولا على صورة الامر بالمعروف والنهى عن المنكر لاغير ونهاهم عن سفك الدماء ولم يأذن لهم فيها وأقاموا على ذلك مدة وأمر رجالا منهم ممن استصلح عقولهم بنصب الدعوة واستمالة رؤساء القبائل وجعل يذكر المهدى ويشوق اليه وجمع الاحاديث التى جاءت فيه من المصنفات فلما قرر فى نفوسهم فضيلة المهدي ونسبه ونعته ادعي ذلك لنفسه وقال أنا محمد بن عبد الله ورفع نسبه الى النبي صلى الله عليه وسلم وصرح بدعوى العصمة لنفسه وانه المهدى المعصوم وروى فى ذلك أحاديث كثيرة حتى استقر عندهم انه المهدي وبسط يده فبايعوه على ذلك وقال أبايعكم على

ما بايع عليه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم رسول الله ثم صنف لهم تصانيف في العلم منها كتاب سماه أعز مايطلب وعقائد في أصول الدين وكان على مذهب أبي الحسن الاشعرى في أكثر المسائل الا في إثبات الصفات فانه وافق المعتزلة في نفيها وفي مسائل قليلة غيرها وكان يبطن شيئاً من التشيع غير انه لم يظهر منه الى العامة شئ وصنف أصحابه طبقات فجعل منهم العشرة وهم المهاجرون الاولون الذين اسرعوا الى اجابته وهم المسمون بالجماعة وجعل منهم الخمسين وهم الطبقة الثانية وهذه الطبقات لا تجمعها قبيلة واحدة بل هم من قبائل شتى وكان يسميهم المؤمنين ويقول لهم ماعلى وجه الارض من يومن ايمانكم وأنتم العصابة المعنيون بقوله عليه الصلاة والسلام لا تزال طائفة بالمغرب ظاهرين علي الحق لايضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله وأنتم الذين يفتح الله بكم فارس والروم ويقتل الدجال ومنكم الامير الذى يصلي بعيسى بن مريم ولا يزال الامر فيكم الى قيام الساعة هذا مع جزئيات كان يخبرهم بها وقع أكثرها وكان يقول لو شئت أن أعدّ خلفاءكم خليفة خليفة فزادت فتنة القوم به وأظهروا له شدة الطاعة وقد نظم هذا الذى وصفناه من قول ابن تومرت في تخليد هذا الامر رجل من أهل الجزائر مدينة من أعمال بجاية وفد على أمير المؤمنين أبي يعقوب وهو بتينملل فقام علي قبر ابن تومرت بمحضر من الموحدين وأنشد قصيدة أولها

سلام على قبر الامام الممجد ... سلالة خير العالمين محمد
ومشبهه في خلقه ثم في اسمه ... وفي اسم أبيه والقضاء المسدد
ومحيي علوم الدين بعد مماتها ... ومظهر اسرار الكتاب المسدد
أتتنا به البشرى بأن يملأ الدنا ... بقسط وعدل في الانام مخلد

ويفتتح الامصار شرقا ومغربا ويملك عربا من مغير ومنجد
فمن وصفه أقنى وأجلى إوانه علاماته خمس تبين لمهتدى
زمان واسم والمكان ونسبة وفعل له فى عصمة وتأيد
ويلبث سبعاً أو فتسعا يعيشها كذا جاء في نص من النقل مسند
فقد عاش تسعا مثل قول نبينا فذلكم المهدى بالله يهتدي
وتتبعه للنصر طائفة الهدي فأكرم بهم اخوان ذي الصدق أحمد
هي الثلة المذكور في الذكر أمرها وطائفة المهدى بالحق تهتدى
ويقدمها المنصور والناصر الذى له النصر حزب اذ يروح ويغتدي
هو المنتقى من قيس عيلان مفخرا ومن مرة أهل الجلال الموطد
خليفة مهدى الاله وسيفه ومن قد غدا بالعلم والحلم مرتدي
بهم يقمع الله الجبابرة الاولى يصدون عن حكم من الحق مرشد
ويقطع أيام الجبابرة التى أبادت من الاسلام كل مشيد
فيغزون اعراب الجزيرة عنوة ويمرون منها فارساً وكان قد
ويفتتحون الروم فتح غنيمة ويقتسمون المال بالترس عن يد
ويغدون للدجال يغزونه ضحاً يذيقونه حد الحسام المهند
ويقتله فى باب لد وتنجلى شكوك أمدلت قلب من لم يوحد
وينزل عيسى فيهم وأميرهم امام فيدعوهم لمحراب مسجد
يصلى بهم ذاك الامير صلاتهم بتقديم عيسى المصطفى عن تعمد
فيمسح بالكفين منه وجوههم ويخبرهم حقاً بعز مجدد
وما إن يزال الامر فيه وفيهم الى آخر الدهر الطويل المسرمد
فأبلغ أمير المؤمنين تحية على النأى مني والوداد المؤكد
عليه سلام الله مادر شارق وما صدر الوراد عن ورد مورد

وقد قيل ان منشئ هذه القصيدة لم يحضر ذلك المشهد ولم ينشدها بنفسه منعته عن ذلك الكبرة وبعد الشقة وانما أرسل بها فأنشدت على قبر الامام وكان عمله اياها وعبد المؤمن حيّ فالله أعلم وهي طويلة هذا ما اخترت له منها ولم أوردها في هذا الموضع لانها من مختار الشعر ولكن لموافقتها الفصل الذى قبلها ولم تزل طاعة المصامدة لابن تومرت تكثر وفتنهم به تشتد وتعظيمهم له يتأكد الى أن بلغوا في ذلك الى حد لو أمر أحدهم بقتل أبيه أو أخيه أو ابنه لبادر الى ذلك من غير ابطاء وأعانهم على ذلك وهونه عليهم ما في طباعهم من خفة سفك الدماء عليهم وهذا أمر جبلت عليه فطرهم واقتضاه ميل اقليمهم حكى أبو عبيد البكرى الاندلسى ثم القرطبي فى كتابه المرسوم بالمسالك والممالك عن رجال له قال أهديت الى الاسكندر فرس ببعض بلاد الغرب لم تلد الخيل أسبق منها لم يكن فيها عيب الا أنها لم يسمع لها صهيل قط فلما حل الاسكندر في تطوافه بجبال درن وهى بلاد المصامدة وشربت تلك الفرس من مياهها صهلت صهلة اصطكت منها الجبال فكتب الاسكندر الى الحكيم يخبره بذلك فكتب اليه أنها بلاد شر وقسوة فعجل الخروج منها فهذه حال بلاد القوم وأما خفة سفك الدماء عليهم فقد شاهدت أنا منه أيام كوني بسوس ما قضيت منه العجب ولما كانت سنة ٥١٧ جهز جيشاً عظيما من المصامدة جلهم من أهل تينملل مع من انضاف اليهم من أهل سوس وقال لهم اقصدوا هؤلاء المارقين المبدلين الذين تسموا بالمرابطين فادعوهم الى اماتة المنكر واحياء المعروف وازالة البدع والاقرار بالامام المهدي المعصوم فان أجابوكم فهم اخوانكم لكم ما لهم وعليهم ما عليكم وان لم يفعلوا فقاتلوهم فقد أباحت لكم السنة قتالهم وأمر على

الجيش عبد المؤمن بن على وقال أنتم المؤمنون وهذا أميركم فاستحق
عبد المؤمن من يومئذ اسم امرة المؤمنين وخرجوا قاصدين مدينة
مراكش فلقيهم المرابطون قريباً منها بموضع يدعى البحيرة بجيش ضخم
من سراة لمتونة أميرهم الزبير بن على بن يوسف بن تاشفين فلما تراءى
الجمعان أرسل اليهم المصامدة يدعونهم الى ما أمرهم به ابن تومرت
فردوا عليهم أسوأ رد وكتب عبد المؤمن الى أمير المسلمين على بن
يوسف بما عهد اليه محمد بن تومرت فرد عليه أمير المسلمين يحذره عاقبة
مفارقة الجماعة ويذكره الله فى سفك الدماء واثارة الفتنة فلم يردع ذلك
عبد المؤمن بل زاده طمعاً فى المرابطين وحقق عنده ضعفهم فالتقت
الفئتان فانهزم المصامدة وقتل منهم خلق كثير ونجا عبد المؤمن فى نفر
من أصحابه فلما جاء الخبر لابن تومرت قال أليس قد نجا عبد المؤمن
قالوا نعم قال لم يفقد أحد ولما رجع القوم الى ابن تومرت جعل يهون
عليهم أمر الهزيمة وتقرر عندهم ان قتلاهم شهداء لأنهم ذابون عن دين
الله مظهرون للسنة فزادهم ذلك بصيرة في أمرهم وحرصاً على لقاء
عدوهم ومن حينئذ جعل المصامدة يشنون الغارات على نواحي مراكش
ويقطعون عنها موادّ المعايش وموصول المرافق ويقتلون ويسبون ولا
يبقون على أحد ممن قدروا عليه وكثر الداخلون فى طاعتهم والمنحاشون
اليهم وابن تومرت فى ذلك كله يكثر التزهد والتقلل ويظهر التشبه
بالصالحين والتشدد فى اقامة الحدود جاريا فى ذلك على السنة الاولى
أخبرنى من رآه ممن أتى اليه يضرب الناس على الخمر بالاكمام والنعال
وعسب النخل متشبها في ذلك بالصحابة ولقد أخبرنى بعض من شهده وقد
أتي برجل سكران فأمر بحده فقال رجل من وجوه أصحابه يسمى

يوسف بن سليمان لو شددنا عليه حتى يخبرنا من أين شربها لنحسم هذه العلة من أصلها فاعرض عنه ثم أعاد عليه الحديث فاعرض عنه فلما كان في الثالثة قال له أرأيت لو قال لنا شربتها في دار يوسف بن سليمان ما نحن صانعون فاستحيا الرجل وسكت ثم كشف على الامر فاذا عبيد ذلك الرجل سقوه فكان هذا من جملة ما زادهم به فتنة وتعظيما الى أشياء كان يخبر بها فتقع كما يخبر ولم يزل كذلك وأحواله صالحة وأصحابه ظاهرون وأحوال المرابطين المذكورين تختل وانتقاض دولتهم يتزايد الى أن توفى ابن تومرت المذكور في شهور سنة ٥٣٤ بعد ان أسس الامور وأحكم التدبير ورسم لهم ما هم فاعلوه

﴿ ذكر ولاية عبد المؤمن ﴾

ثم قام بالامر من بعده عبد المؤمن بن علي وبايعه المصامدة واتفقت على تقديمه الجماعة وكان الذين سعوا في تقديمه وهيئوا ذلك له ثلاثة وهم من أهل الجماعة عمر بن عبد الله الصنهاجي المعروف عندهم بعمر ازناج وعمر بن ومزال الذي كان اسمه قبل هذا فصكة فسماه ابن تومرت عمر يعرفونه بعمر إينتي وعبد الله بن سليمان من أهل تينملل من قبيلة يقال لها مسكالة ووافقهم على ذلك سائر أهل الجماعة وأهل خمسين وباقي الموحدين وذلك ان ابن تومرت قبل موته بأيام يسيرة استدعى هؤلاء المسمين بالجماعة وأهل خمسين وهم كما ذكرنا من قبائل مفترقة لا يجمعهم الا اسم المصامدة فلما حضروا بين يديه قام وكان متكئاً فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله وصلى على محمد نبيه صلى الله عليه وسلم ثم أنشأ يترضى عن الخلفاء الراشدين رضوان الله عليهم ويذكر ما كانوا

عليه من الثبات فى دينهم والعزيمة فى أمرهم وان أحدهم كان لا تأخذه
فى الله لومة لائم وذكر من حد عمر رضى الله عنه ابنه فى الخمر وتصميمه
على الحق فى أشباه لهذه الفصول ثم قال فانقرضت هذه العصابة نضر
الله وجوهها وشكر لها سعيها وجزاها خيراً عن أمة نبيها وخبطت الناس
فتنة تركت الحليم حيرانا والعالم متجاهلا مداهناً فلم ينتفع العلماء بعلمهم
بل قصدوا به الملوك واجتلبوا به الدنيا وأمالوا وجوه الناس اليهم فى
أشباه لهذا القول الى هلم جرا ثم ان الله سبحانه وله الحمد من عليكم
أيتها الطائفة بتأييده وخصكم من بين أهل هذا العصر بحقيقة توحيده
وقيض لكم من الفاكم ضلالا لا تهتدون وعميا لا تبصرون لا تعرفون
معروفا ولا تنكرون منكراً قد فشت فيكم البدع واستهوتكم الاباطيل
وزين لكم الشيطان أضاليل وترهات أنزه لسانى عن النطق بها وأربأ
بلفظي عن ذكرها فهداكم الله به بعد الضلالة وبصركم بعد العمى وجمعكم
بعد الفرقة وأعزكم بعد الذلة ورفع عنكم سلطان هؤلاء المارقين
وسيورثكم أرضهم وديارهم ذلك بما كسبته أيديهم وأضمرته قلوبهم وما
ربك بظلام للعبيد فجددوا لله سبحانه خالص نياتكم وأروه من الشكر
قولا وفعلا ما يزكى به سعيكم ويتقبل أعمالكم وينشر أمركم واحذروا
الفرقة واختلاف الكلمة وشتات الآراء وكونوا يداً واحدة على عدوكم
فانكم ان فعلتم ذلك هابكم الناس وأسرعوا الى طاعتكم وكثر اتباعكم
وأظهر الله الحق على أيديكم والا تفعلوا شملكم الذل وعمكم الصغار
واحتقرتكم العامة فتخطفتكم الخاصة وعليكم فى جميع أموركم بمزج
الرأفة بالغلظة واللين بالعنف واعلموا مع هذا انه لا يصلح أمر آخر
هذه الامة الا على الذى صلح عليه أمر أولها وقد اخترنا لكم رجلا

منكم وجعلناه أميراً عليكم هذا بعد ان بلوناه في جميع أحواله من ليله ونهاره ومدخله ومخرجه واختبرنا سريرته وعلانيته فرأيناه في ذلك كله ثبتا في دينه متبصراً في أمره واني لارجو أن لا يخلف الظن فيه وهذا المشار اليه هو عبد المؤمن فاسمعوا له وأطيعوا مادام سامعاً مطيعاً لربه فان بدل أو نكص على عقبه أو ارتاب في أمره ففي الموحدين أعزهم الله بركة وخير كثير والامر أمر الله يقلده من شاء من عباده فبايع القوم عبد المؤمن ودعا لهم ابن تومرت ومسح وجوههم وصدورهم واحداً واحداً فهذا سبب امرة عبد المؤمن رحمه الله ثم توفى ابن تومرت بعد عهده بيسير واجتمع أمر المصامدة على عبد المؤمن

(فصل) وعبد المؤمن وهذا هو عبد المؤمن بن على بن علوي الكومي أمه حرة كومية أيضاً من قوم يقال لهم بنوا مجبر مولده بضيعة من أعمال تلمسان تعرف بتاجرا وقيل انه كان يقول اذا ذكر كمية لست منهم وانما نحن لقيس عيلان بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان ولكمية علينا حق الولادة بينهم والمنشا فيهم وهم الاخوال وهكذا أدركت من أدركت من أولاده وأولاد أولاده ينتسون لقيس عيلان بن مضر وبهذا استجار الخطباء أن يقولوا اذا ذكروه بعدا بن تومرت قسيمه رضى الله عنه في النسب الكريم كان مولده في آخر سنة ٤٨٧ في أيام يوسف بن تاشفين وكانت وفاته في شهر جمادى الآخرة سنة ٥٥٨ ومدة ولايته من حين استوثق له الامر بموت على بن يوسف أمير المسلمين في سنة ٣٧ على التحقيق احدى وعشرين سنة الى أن توفي في التاريخ المذكور وكان أبيض ذا جسم عمم تعلوه حمرة شديد سواد الشعر معتدل القامة وضيء الوجه جهوري الصوت فصيح الالفاظ جزل المنطق وكان محببا

الى النفوس لا يراه أحد الا أحبه بديهة وبلغني أن ابن تومرت كان ينشد كلما رآه

تكاملت فيك أخلاق خصصت بها ... فكلنا بك مسرور ومغتبط
فالسن ضاحكة والكف مانحة ... والصدر منشرح والوجه منبسط

أولاده كان له من الولد ستة عشر ذكراً وهم محمد وهو أكبر ولده وولي عهده وهو الذى خلع وعلى وعمر ويوسف وعثمان وسليمان ويحيي واسماعيل والحسن والحسين وعبد الله وعبد الرحمن وعيسى وموسي وابراهيم ويعقوب*وزراؤه وزر له فى أول الامر أبو حفص عمر أزناج الى أن استمر الامر واستقل عبد المؤمن فأجل أبا حفص هذا عن الوزارة وربأ بقدره عنها اذ كان عندهم فوق ذلك واستوزر أبا جعفر أحمد بن عطية فجمع بين الوزارة والكتابة فهو معدود فى الكتاب والوزراء فلم يزل عبد المؤمن يجمعهما له الى أن افتتحوا بجاية فاستكتب عبد المؤمن من أهلها رجلا من نبهاء الكتاب يقال له أبو القاسم القالمى وسيأتي ذكره فى كتابه واستمرت وزارة أبي جعفر الى أن قتله عبد المؤمن فى شهور سنة ٥٣ واستصفي أمواله ثم وزر له عبد السلام الكومى وكان يدعى المقرب لشدة تقريب عبد المؤمن اياه فاستمرت وزارة عبد السلام هذا الى أن أرسل اليه عبد المؤمن من قتله خنقا في شهور سنة ٥٥٧ ثم وزر له ابنه عمر الى أن توفى عبد المؤمن*كتابه أبو جعفر أحمد بن عطية المذكور في الوزراء كان قبل اتصاله بعبد المؤمن وفي الدولة اللمتونية يكتب لعلى بن يوسف فى آخر أيامه وكتب عن تاشفين بن على بن يوسف فلما انقرض أمرهم هرب وغير هيئته وتشبه بالجند وكان محسناً للرمى وكان فى الجند الذين خرجوا الى سوس لقتال

ثائر قام هناك كان الامير على هذا الجند أبو حفص عمر أينتى المتقدم الذكر في أهل الجماعة فلما انهزم أصحاب ذلك الثائر وقتل هو وانفضت تلك الجموع طاب أبو حفص من يكتب عنه صورة هذه الكائنة الى الموحدين الذين بمراكش فدل على أبي جعفر هذا ونبه على مكانه فاستدعاه وكتب عنه الى الموحدين رسالة فى شرح الحال أجاد فى أكثرها ما شاء منعني من رسمها فى هذا الموضع ما فيها من الطول فلما بلغت الرسالة عبد المؤمن استحسنها واستدعي أبا جعفر هذا واستكتبه وزاده الى الكتابة الوزارة لما رآه من شجاعة قلبه وحصافة عقله فلم يزل وزيره كما ذكرنا الى ان قتله فى التاريخ الذي ذكر كان سبب قتله فيما باغنى انه كانت عنده بنت أبي بكر بن يوسف بن تاشفين التى تعرف ببنت الصحراوية وأخوها يحيي فارس المرابطين المشهور عندهم يعرف أيضاً يحيي بن الصحراوية فحظى يحيي هذا عند الموحدين وقودوه على من وحد من لمتونة ولم يزل وجيهاً عندهم مكرما لديهم وكان خليقاً بذلك الى ان نُقلت عنه الى عبد المؤمن أشياء كان يفعلها وأقوال كان يقولها احنقته عليه فتحدث عبد المؤمن ببعض ذلك فى مجلسه وربما هَمَّ بالقبض على يحيي هذا فرأى الوزير ابو جعفر أن يجمع بين المصلحتين من نصح أميره وتحذير صهره فقال لامرأته أخت يحيي المذكور قولى لأخيك يتحفظ واذا دعوناه غداً فليعتل ويظهر المرض وان قدر على الهروب واللحاق بجزيرة ميرقة فليفعل فاخبرته أخته بذلك فتمارض وأظهر انه لمّا به فزاره وجوه أصحابه وسألوه عن علته فأسر الى بعضهم ممن كان يثق به مابلغه عن الوزير فخرج ذلك الرجل الذى أسر اليه فنقل ذلك كله بجملته الى رجل من ولد عبد المؤمن فكان هذا هو السبب الاكبر

في قتل أبي جعفر المذكور وأمر أمير المؤمنين عبد المؤمن بتقييد يحي المذكور وسجنه فكان في سجنه الي أن مات ثم كتب له بعد أبي جعفر هذا ابو القاسم عبد الرحمن القالمي من أهل مدينة بجاية من ضيعة من أعمالها تعرف بقالم وكتب له معه ابو محمد عياش بن عبد الملك بن عياش من أهل مدينة قرطبة

(قضاته) ابو محمد عبد الله بن جبل من أهل مدينة وهران من أعمال تلمسان ثم عبد الله بن عبد الرحمن المعروف بالمالقي لم يزل قاضياً له الي أن توفي عبد المؤمن وصدرا من خلافة أبي يعقوب وكان عبد المؤمن مؤثراً لاهل العلم محباً لهم محسناً اليهم يستدعيهم من البلاد الى السكون عنده والجوار بحضرته ويجرى عليهم الارزاق الواسعة ويظهر التنويه بهم والاعظام لهم وقسم الطلبة طائفتين طلبة الموحدين وطلبة الحضر هذا بعد أن تسمي المصامدة بالموحدين لتسمية بن تومرت لهم بذلك لاجل خوضهم في علم الاعتقاد الذي لم يكن أحد من أهل ذلك الزمان في تلك الجهة يخوض في شيء منه وكان عبد المؤمن في نفسه سريّ الهمة نزيه النفس شديد الملوكية كأنه كان ورثها كابراً عن كابر لا يرضى الا بمعالي الامور أخبرني الفقيه المتفنن ابو القاسم عبد الرحمن ابن محمد بن أبي جعفر الوزير عن أبيه عن جده الوزير ابي جعفر قال دخلت على عبد المؤمن وهو في بستان له قد اينعت ثماره • وتفتحت أزهاره • وتجاوبت على أغصانها أطياره • وتكامل من كل جهة حسنه وهو قاعد في قبة مشرفة على البستان فسلمت وجلست وجعلت أنظر يمنة وشأمة متعجباً مما أرى من حسن ذلك البستان فقال لي يا أبا جعفر أراك كثير النظر الى هذا البستان قلت يطيل الله بقاء أمير المؤمنين

والله ان هذا المنظر حسن فقال يا أبا جعفر المنظر الحسن هذا قلت نعم فسكت عني فلما كان بعد يومين أو ثلاثة أمر بعرض العسكر آخذي أسلحتهم وجلس في مكان مطل وجعلت العساكر تمر عليه قبيلة بعد قبيلة وكتيبة أثر كتيبة لا تمر كتيبة الا والتي بعدها أحسن منها جودة سلاح وفراهة خيل وظهور قوة فلما رأى ذلك التفت إلي وقال يا أبا جعفر هذا هو المنظر الحسن لا ثمارك وأشجارك ولم يزل عبد المؤمن بعد وفاة ابن تومرت يطوى الممالك مملكة مملكة ويدوخ البلاد الى أن ذلت له البلاد · وأطاعته العباد وكان آخر ما استولى عليه من البلاد التي يملكها المرابطون مدينة مراكش دار ملك أمير المسلمين · وناصر الدين · على بن يوسف بن تاشفين ·· وهذا بعد وفاة أمير المسلمين المذكور حتف أنفه فى شهور سنة ٥٣٧ وكان قد عهد فى حياته الى ابنه تاشفين فعاقته الفتنة عن تمام أمره ولم يتفق له ما أمله من استقلال ابنه تاشفين المذكور بشئ من الامور وخرج تاشفين بعد وفاة ابيه قاصداً تلمسان فلم يتفق له من أهلها ما يريد فقصد مدينة وهران وهي على ثلاث مراحل من تلمسان فحاصره الموحدون بها فلما اشتد عليه الحصار خرج راكباً فرساً شهباء عليه سلاحه فاقتحم البحر حتى هلك ويقال انهم اخرجوه من البحر وصلبوه ثم أحرقوه فالله أعلم بصحة ذلك فكانت ولاية تاشفين هذا من يوم وفاة أبيه الى أن قتل كما ذكرنا بمدينة وهران ثلاثة أعوام الا شهرين وكان قتله سنة ٥٤٠ وكان طول هذه الولاية لا يستقر به قرار ولا تستقيم له حال تنبو به البلاد وتتنكر له الرعية فلم تزل هذه حاله الى أن كان من أمره ما ذكر وبعد دخول عبد المؤمن رحمه الله مراكش طلب قبر أمير المسلمين

وبحث عنه عبد المؤمن أشد البحث فأخفاه الله وستره بعد وفاته كما ستره
فى أيام حياته وتلك عادة الله الحسنى مع الصالحين المصلحين وانقطعت
الدعوة بالمغرب لبني العباس بموت أمير المسلمين وابنه فلم يذكروا على
منبر من منابرها الى الآن خلا أعوام يسيرة بافريقية كان قد ملكها
يحيي بن غانية الثائر من جزيرة ميرقة على ما سيأتى بيانه وكانت مدة
المرابطين من حين نزولهم رحبة مراكش الى أن انقرض ملكهم جملة
واحدة بموت أمير المسلمين وابنه نحواً من ست وسبعين سنة.

ولما دان لعبد المؤمن جميع أقطار المغرب الاقصى مما كان يملكه
المرابطون على ما قدمنا وأطاعه أهلها جمع جموعا عظيمة. وخرج من
مراكش يقصد مملكة يحيي بن العزيز بن المنصور بن المنتصر الصنهاجي
وكان يملك بجاية وأعمالها الى موضع يعرف بسيوسيرات وهذا الموضع
هو الحد فيما بينه وبين لمتونة فقصده عبد المؤمن كما ذكرنا فى شهور
سنة ٥٤٠ فحاصر عبد المؤمن بجاية وضيق عليها أشد التضييق فلما رأى
يحيي بن العزيز ألا طاقة له بدفاع القوم ولا يدان بمنعهم هرب فى البحر
حتى أتى مدينة بونة وهي أول حد بلاد أفريقية ثم خرج منها حتى أتي
قسطنطينية المغرب فارسل اليه عبد المؤمن رحمه الله بالجيوش فاستنزل
وأوتى به عبد المؤمن هذا بعد أن عهد عبد المؤمن أن يؤمن يحيي فى
نفسه وأهله ودخل عبد المؤمن بجاية وملكها وملك قلعة بنى حماد وهي
معقل صنهاجة الاعظم وحرزهم الامنع فيها نشأ ملكهم ومنها انبعث
أمرهم وكان يحيي هذا وأبوه العزيز وجده المنصور والمنتصر وجدهم
الاكبر حماد من شيعة بنى عبيد واتباعهم والقائمين بدعوتهم ومن بلادهم
اعني صنهاجة قامت دعوة بنى عبيـــد وهم الذين أظهروها ونشروها

ونصروها فلم يزل ملك بني حماد هؤلاء مستمراً ودولتهم قائمة وأمرهم نافذاً لا ينازعهم أحد شيئاً مما في أيديهم الي ان أخرجهم من ذلك كله وملكه بأسره وضمه الى مملكته ابو محمد عبد المؤمن بن على فى التاريخ الذى تقدم ولما ملك عبد المؤمن بجاية والقلعة وأعمالها رتب من الموحدين من يقوم بحماية تلك البلاد والدفاع عنها واستعمل عليها ابنه عبد الله وكر راجعاً الى مراكش ومعه وفى جنده يحيي بن العزيز ملك صنهاجة وأعيان دولته فحين وصلوا الى مراكش أمر لهم بالمنازل المتسعة والمراكب النبيلة والكسى الفاخرة والاموال الوافرة وخص يحيي من ذلك بأجزله وأسناه وأحفله ونال يحيي هذا عنده رتبة عالية وجاها ضخما وأظهر عبد المؤمن عناية به لا مزيد عليها بلغنى من طرق عدة ان يحيي بن العزيز كان فى مجلس عبد المؤمن يوما فذكروا تعذر الصرف فقال يحيي أما أنا فعليَّ من هذا كلفة شديدة وعبيدى فى كل يوم يشكون إلى مايلقون من ذلك ويذكرون ان أكثر حوائجهم تتعذر لقلة الصرف وذلك ان عادتهم فى بلاد المغرب انهم يضربون انصاف الدراهم وأرباعها وأثمانها والخراريب فيستريح الناس فى هذا وتجرى هذه الصروف فى أيديهم فتتسع بيعاتهم فلما قام يحيي بن العزيز من ذلك المجلس اتبعه عبد المؤمن ثلاثة أكياس صروف كلها وقال لرسوله قل له لا يتعذر عليك مطلوب ما دمت بحضرتنا ان شاء الله عز وجل وأقام عبد المؤمن رحمه الله بمراكش مرتباً للامور المختصة بالمملكة من بناء دور واتخاذ قصور واعداد سلاح واستنزال مستعص وتأمين سبل واحسان الى رعية وما هذا سبيله

(فصل) فأما أحوال جزيرة الأندلس فانه لما كان آخر دولة أمير المسلمين أبي الحسن علي بن يوسف اختلت أحوالها اختلالا مفرطاً أوجب ذلك تخاذل المرابطين وتواكلهم وميلهم الى الدعة وايثارهم الراحة وطاعتهم النساء فهانوا على أهل الجزيرة وقلوا في أعينهم واجترأ عليهم العدو واستولى النصارى على كثير من الثغور المجاورة لبلادهم وكان أيضاً من أسباب ما ذكرناه من اختلالها قيام ابن تومرت بسوس واشتغال علي بن يوسف به عن مراعاة أحوال الجزيرة ولما رأى أعيان بلاد تلك الجزيرة ما ذكرناه من ضعف أحوال المرابطين اخرجوا من كان عندهم من الولاة واستبد كل منهم بضبط بلده وكادت الاندلس تعود الى سيرتها الأولى بعد انقطاع دولة بني أمية فاما بلاد افراغة فاستولى عليها ملك أرغن لعنه الله وملك مع ذلك سرقسطة أعادها الله للمسلمين وكثيراً من أعمال تلك الجهات واتفق أمر أهل بلنسية ومرسية وجميع شرق الاندلس على تقديم رجل من أعيان الجند اسمه عبد الرحمن بن عياض وكان عبد الرحمن هذا من صلحاء أمة محمد وخيارهم بلغني عن غير واحد من أصحابه انه كان مجاب الدعوة ومن عجائب أمره انه كان أرق الناس قلباً وأسرعهم دمعة فاذا ركب وأخذ سلاحه لا يقوم له أحد ولا يستطيع لقاءه بطل كان النصارى يعدونه وحده بمائة فارس اذا رأوا رايته قالوا هذا ابن عياض هذه مائة فارس فحمى الله تلك الجهات ودفع عنها العدو ببركة هذا الرجل الصالح وانتشر له من الهيبة في صدور النصارى ما ردهم عن البلاد وأقام ابن عياض هذا بشرقي الاندلس يحفظ تلك البلاد ويذود عنها الى أن توفي رحمه الله ونضر وجهه وشكر له سعيه لا أتحقق تاريخ وفاته وقام بأمر تلك الجهات بعده رجل اسمه

محمد بن سعد المعروف عندهم بابن مردنيش كان محمد هذا خادماً لابن عياض يحمل له السلاح ويتصرف بين يديه في حوائجه فلما حضرته الوفاة اجتمع اليه الجند وأعيان البلاد فقالوا له الى من تسند أمورنا وبمن تشير علينا وكان له ولد فأشاروا به عليه فقال انه لا يصلح لانى سمعت انه يشرب الخمر ويغفل على الصلاة فان كان ولا بد فقدموا عليكم هذا وأشار الى محمد بن سعد فانه ظاهر النجدة كثير الغناء ولعل الله أن ينفع به المسلمين فاستمرت ولاية ابن سعد على البلاد الى أن مات فى شهور سنة ٥٦٨ وأما أهل المرية فأخرجوا من كان عندهم أيضاً من المرابطين واختلفوا فيمن يقدمونه على انفسهم فندبوا اليها القائد ابا عبد الله بن ميمون ولم يكن منهم انما هو من أهل مدينة دانية فأبى عليهم وقال انما أنا رجل منكم ووظيفتى البحر وبه عرفت فكل عدو جاءكم من جهة البحر فأنا لكم به فقدموا على أنفسكم من شئتم غيرى فقدموا على أنفسهم رجلا منهم اسمه عبد الله بن محمد يعرف بابن الرميمى فلم يزل عليها الى أن دخلها عليه النصارى من البر والبحر فقتلوا أهلها وسبوا نساءهم وبنيهم وانتهبوا أموالهم فى خبر يطول ذكره وملك جيان وأعمالها الى حصن شقورة وما والى تلك الثغور رجل اسمه عبد الله لا أعرف اسم أبيه هو معروف عندهم بابن همشك • وربما ملك عبد الله هذا قرطبة أياما يسيرة وأقامت على طاعة المرابطين اغرناطة وأشبيلية فهذه جملة أحوال الاندلس فى آخر دعوة المرابطين وفى ضمن هذه الجملة جزئيات من أخبار الحصون والقلاع والمدن الصغار اضربت عن ذكرها خوفا من الاطالة لانها نكرة والتعريف

بها محرج الى الطول وقام بمغرب الاندلس دعاة فتن ورؤس ضلالات فاستفزوا عقول الجهال واستمالوا قلوب العامة من جملتهم رجل اسمه احمد بن قسى كان فى أول أمره يدعى الولاية وكان صاحب حيل وربّ شعبذة وكان مع هذا يتعاطى صنعة البيان وينتحل طريق البلاغة ثم ادعى الهداية بلغنى ذلك عنه من طرق صحاح ثم لم يستقم له شئ مما أراد واختلف عليه أصحابه وكان قيامه بحصن مارتلة وقد تقدم اسم هذا الحصن فى أخبار الدولة العبادية فأسلمه كما ذكرنا أصحابه واختلفوا عليه ودسوا اليه من أخرجه من الحصن بحيلة حتى أخذه الموحدون قبضاً باليد فعبروا به الى العدوة فأتوا به عبد المؤمن رحمه الله فقال له بلغنى انك ادعيت الهداية فكان من جوابه أن قال أليس الفجر فجران كاذب وصادق فأنا كنت الفجر الكاذب فضحك عبد المؤمن وعفا عنه ولم يزل بحضرته الى ان أقتله بعض اصحابه الذين كانوا معه بالاندلس ولابن قسي هذا أخبار قبيحة مضمونها الجراءة على الله سبحانه والتهاون بامر الولاية يمنعنى من ذكرها صرف العناية الى ما هو أهم منها

ولما انتشرت دعوة المصامدة كما ذكرنا بالمغرب الاقصى تشوف اليهم اعيان مغرب الاندلس فجعلوا يفدون فى كل يوم عليهم ويتنافسون فى الهجرة اليهم فدخل فى ملكهم كثير من جزيرة الاندلس كالجزيرة الخضراء ورندة ثم اشبيلية وقرطبة واغرناطة وكان الذى فتح هذه البلاد الشيخ ابو حفص عمر اينتى المتقدم الذكر فى أهل الجماعة واجتمع على طاعتهم أهل مغرب الأندلس

فلما رأى عبد المؤمن ذلك جمع جموعا عظيمة وخرج يقصد جزيرة

الاندلس فسار حتى نزل مدينة سبتة فعبر البحر ونزل الجبل المعروف بجبل طارق وسماه هو جبل الفتح فأقام به أشهرا وابتنى به قصورا عظيمة وبنى هناك مدينة هي باقية الى اليوم ووفد عليه في هذا الموضع وجوه الاندلس للبيعة كأهل مالقة واغرناطة ورندة وقرطبة وأشبيلية وما والى هذه البلاد وانضم اليها وكان له بهذا الجبل يوم عظيم اجتمع له وفي مجلسه فيه من وجوه البلاد ورؤسائها وأعيانها وملوكها من العدوة والاندلس ما لم يجتمع لملك قبله واستدعى الشعراء في هذا اليوم ابتداء ولم يكن يستدعيهم قبل ذلك انما كانوا يستأذنون فيؤذن لهم وكان على بابه منهم طائفة أكثرهم مجيدون فدخلوا فكان أول من أنشد ابو عبد الله محمد بن حبوس من أهل مدينة فاس وكانت طريقته في الشعر على نحو طريقة محمد بن هانئ الاندلسي في قصد الالفاظ الرائعة والقعاقع المهولة وايثار التقعير الا ان محمد بن هانى كان أجود منه طبعاً وأحلا مهيعاً فانشد في ذلك اليوم قصيدة أجاد فيها ما أراد

بلغ الزمان بهديكم ما أملا ... وتعلمت أيامه أن تعدلا

وبحسبه أن كان شيئاً قابلا ... وجد الهداية صورة فتشكلا

لم يبق على خاطرى منها أكثر من هذين البيتين ولابن حبوس هذا قصائد كثيرة وكان حظياً عنده نال في أيامه ثروة وكذلك في أيام ابنه أبي يعقوب وكان في دولة لمتونة مقدماً في الشعراء حتى نقلت اليهم عنه حماقات فهرب الي الاندلس ولم يزل بها مستخفياً ينتقل من بلد الى بلد حتى انتقلت الدولة المرابطية قرأ على ابنه عبد الله من خط أبيه هذه الحكاية قال دخلت مدينة شلب من بلاد الاندلس ولي يوم دخلتها ثلاثة أيام لم أطعم فيها شيئاً فسألت عمن يقصد اليه فيها فدلني

بعض أهلها على رجل يعرف بابن الملح فعمدت الى بعض الوراقين فسألته سحاءة ودواة فأعطانيها فكتبت أبياتاً امتدحه بها وقصدت داره فاذا هو فى الدهليز فسلمت عليه فرحب بى وردّ علىّ أحسن رد وتلقانى أحسن لقاء وقال أحسبك غريباً قلت نعم فقال لى من اى طبقات الناس أنت فأخبرته انى من أهل الأدب من الشعراء ثم انشدته الابيات التي قلت فوقعت منه أحسن موقع فأدخلنى الى منزله وقدم الى الطعام وجعل يحدثني فما رأيت أحسن محاضرة منه فلما آن الانصراف خرج ثم عاد ومعه عبدان يحملان صندوقا حتي وضعه بين يدى ففتحه فأخرج منه سبعمائة دينار مرابطية فدفعها الى وقال هذه لك ثم دفع الى صرة فيها أربعون مثقالا وقال هذه من عندي فتعجبت من كلامه وأشكل على جدا وسألته من اين كانت هذه لي فقال لي سأحدثك اني أوقفت ارضا من جملة مالي للشعراء غلتها في كل سنة مائة دينار ومنذ سبع سنين لم يأتنى أحد لتولي الفتن التي دهمت البلاد فاجتمع هذا المال حتي سيق اليك وأما هذه فمن حر مالي يعنى الاربعين دينار فدخلت عليه جائعا فقيرا وخرجت عنه شبعان غنيا وانشده في ذلك اليوم رجل من ولد الشريف الطليق المروانى كان شريفا من جهة امه

* ما للعدى جُنة اوقي من الهرب *

فقال عبد المؤمن رافعا صوته الي اين الى اين فقال الشاعر

* اين المفر وخيل الله في الطلب *

وأين يذهب من فى رأس شاهقة | وقد رمته سماء الله بالشهب
حدّث عن الروم في أقطار أندلس | والبحر قد ملأ العبرين بالعرب

فلما أتم القصيدة قال عبد المؤمن بمثل هذا تمدح الخلفاء فسمّى

نفسه خليفة كما ترى وبجد هذا الشاعر هو الشريف الطليق طليق
النعامة وانما سمي بذلك لأنه كان محبوساً فى مطبق أبي عامر محمد بن
أبي عامر الملقب بالمنصور القائم بدعوة هشام المؤيد أقام فى ذلك
المحبس سنين فكتب يوما قصة يذكر فيها ما آلت اليه حاله من ضيق
الحبس وضنك العيش فرُفعت الى ابن أبي عامر فأخذها في جملة
رقاع ودخل الى داره فجاءت نعامة كانت هناك فجعل يلقى اليها الرقاع
فتبتلع شيئاً وتلقي شيئاً فألقى اليها رقعة هذا الشريف فى جملة الرقاع
وهو لم يقرأها فأخذتها ثم دارت وألقتها فى حجره فرمى بها اليها ثانية
فدارت القصر كله ثم جاءت وألقتها فى حجره فرمي بها اليها ثالثة وفعلت
ذلك مراراً فتعجب من ذلك وقرأ الرقعة وأمر باطلاقه فسمي بذلك
طليق النعامة وأنشد في ذلك اليوم رجل من أهل اشبيلية يعرف
بابن سيد ويلقب باللص

غمض عن الشمس واستقصر مدى زحل
وانظر الى الجبل الراسى على جبل
أنى استقر به أنى استقل به
أني رأى شخصه العالي فلم يزل

فقال له عبد المؤمن لقد ثقلتنا يا رجل فأمر به فأجلس وهذه
القصيدة من خيار ما مدح به لولا انه كدر صفوها بهذه الفاتحة

وأنشده في ذلك اليوم الوزير الكاتب ابو عبد الله محمد بن غالب
البلنسى المعروف بالرصافي كان مستوطنا مدينة مالقة

لو جئت نار الهدي من جانب الطور
قبست ما شئت من علم ومن نور

من كل زهراء لم ترفع ذؤابتها ... ليلا لسار ولم تشبب لمقمور

فيضية القدح من نور النبوة أو ... نور الهداية تجلوا ظلمة الزور

مازال يقضمها التقوى بموقدها ... صوام هاجرة قوام ديجور

حتى أضاءت من الايمان عن قبس ... قد كان تحت رماد الكفر مكفور

نور طوى الله زند الكون منه على ... سقط الى زمن المهدى مذخور

وآية كآيات الشمس بين يدى ... غزو على الملك القيسى منذور

يادار دار أمير المؤمنين بسفح ... الطود طود الهدى بوركت فى الدور

ذات العمادين من عز ومملكة ... على الاساسين من قدس وتطهير

ما كان يأتيك بالوانى الكرامة عن ... قصر على مجمع البحرين مقصور

مواطئ من نبى طال ماوُصلت ... فيها الخطى بين تسبيح وتكبير

حيث استقلت به نعلاه بوركتا ... فطيبت كل موطوء ومعبور

وحيث قامت قناة الدين ترفل فى ... لواء نصر على البرين منشور

فى كف منشمر البردين ذى ورع ... على التقى وصفاء النفس مفطور

يلقاك في حال غيب من سريرته ... بعالم القدس مشهود ومحضور

تسنم الفلك من سخط المرار وقد ... تؤدين ياخير افلاك العلى سيرى

فسرن يحملن أمر الله من ملك ... بالله مستنصر فى الله منصور

يومي له بسجود كل تحركة ... منها ويوليه حمداً كل تصرير

لما تسابقن فى بحر الزقاق به ... تركن شطيه فى شك وتحيير

أهز من موجه أثناء مسرور ... أم خاض من لجه أحشاء مذعور

كانه سالك منه على وشل ... فى الارض من مهج الاسياف مقطور

من السيوف التى ذابت لسطوته ... وقد رمي نار هيجاها بتسعير

ذو المنشئات الجواري في أجرتها ... شكل الغدائر فى سدل وتضفير

أعدي المياه وأنفاس الرياح لها ما في سجاياه من لين وتعطير
من كل عذراء حبلى في ترائبها ردعان من عنبر ورد وكافور
تخالها بين أيد من مجاذفها يغرقن في مثل ماء الورد من جور
وربما خاضت التيار طائرة بمثل أجنحة الفتخ الكواسير
كأنما عبرت تختال عائمة في زاخر من يدي يمناه معصور
حتى رمت جبل الفتحين من كثب بساطع من سناه غير مبهور
لله ما جبل الفتحين من جبل معظم القدر في الاجبال مذكور
من شامخ الأنف في سحنائه طلس له من الغيم جيب غير مزرور
معبراً بذراه عن ذرى ملك مستمطر الكف والأكناف ممطور
تمسي النجوم على اكليل مفرقه في الجو حائمة مثل الدنانير
وربما مسحته من ذوائبها بكل فضل على فوديه مجرور
وأدرد من ثناياه بما أخذت منه معاجم أعواد الدهارير
محنك حلب الايام أشطرها وساقها سوق حادي العير للعير
مقيد الخطو جوال الخواطر في عجيب أمريه من ماض ومنظور
قد واصل الصمت والاطراق مفتكراً بادي السكينة مغفر الاسارير
كأنه مكمد مما تعبده خوف الوعيدين من دك وتسيير
أخلق به وجبال الارض راجفة ان يطمئن غداً من كل محذور
كفاه فضلا أن انتابت مواطئه نعلا مليك كريم السعي مشكور
مستنشئاً بهما ريح الشفاعة من ثرى امام بأقصى الغرب مقبور
ما انفك آمل أمر منه بين يدي يوم القيامة محتوم ومقدور
حتى تصدى من الدنيا على رمق يستنجز الوعد قبل النفخ في الصور
مستقبل الجانب الغربي مرتقباً كأنه باهت في جو اسمير

لبارق من حسام سله قدراً ... بالغرب من أفق البيض المشاهير
اذا تألق قيسياً أهاب به ... الى شفى من مضاع الدين موتور
ملك أتى عظماً فوق الزمان فما ... يمر فيه بشيء غير محقور
ماعن فى الدين والدنيا له أرب ... الا تأتى له من غير تعذير
ولا رمي من أمانيه الى غرض ... الا هدي سهمه نجح المقادير
حتي كأن له فى كل آونة ... سلطان رق على الدنيا وتسخير
مميز الجيش ملتفاً مواكبه ... من كل مثلول عرش الملك مقهور
من الاولى خضعوا قسراً له وعنوا ... لامره بين منهي . ومأمور
من بعد ماعاندوا أمراً فما تركوا ... اذ أمكن العفو ميسوراً لمعسور
بقية الحرب فأتوها وما بهم ... في الضرب والطعن سيماء لتقصير
لا ينكر القوم مما فى أكفهم ... بيض مفاليل أو سمر مكاسير
اذا صدعت بأمر الله مجتهداً ... ضربت وحدك أعناق الجماهير
لا يذهلن لتقليل أخو سبب ... من الامور ولا يركن لتكثير
فالبحر قد عاد من ضرب العصا يبساً ... والارض قد غرقت من فور تنور
وانما هو سيف الله قلده ... أقوي الهداة يداً في دفع محذور
فان يكن بيد المهدى قائمه ... فموضع الحد منه حد مشهور
والشمس ان ذكرت موسى فما نسيت ... فتاه يوشع قماع الجبابير

وكان الرصافى يوم انشد هذه القصيدة لم تكمل له عشرون سنة وهو من مجيدى شعراء عصره لا سيما في المقاطيع كالخمسة الابيات فما دونها وقد رويت شعره عن جماعة ممن لقيه وقد رأيت أن أورد منه هاهنا نبذة يسيرة تدل على ما وصفناه به فمن ذلك قوله يصف نهر اشبيلية الاعظم وهو نهر لا نظير له فى الدنيا

ومهول الشطاين تحسب انه ... متسايل من درة لصفائه
فاءت عليه مع الهجيرة سرحة ... صدئت لفيأتها صفيحة مائه
فتراه ازرق في غلالة سمرة ... كالدارع استلقى بظل لوائه

وله وقد اجتمع مع اخوان له في بعض العشايا في بستان رجل يقال له موسي بن رزق

مامثل موضعك ابن رزق موضع ... روض يرق وجدول يتدفع
فكأنما هو من محاجر غادة ... فالحسن ينبت في ثراه وينبع
وعشية لبست رداء شحوبها ... والجو بالغيم الدقيق مقنع
بلغت بنا أمد السرور تألفاً ... والليل نحو فراقنا يتطلع
فابلل بها رمق الغبوق فقد أتى ... من دون قرص الشمس مايتوقع
سقطت فلم يملك نديمك ردها ... فوددت يا موسى لوانك يوشع

وله يصف عشية ايضا في موضع هذا الرجل المتقدم الذكر

محل ابن رزق جر فيه ذيوله ... من المزن ساق يحسن الجر والسقيا
ذكرت عشيا فيك لا ذم عهده ... وان نحن لم نمتع ببهجته لقيا
ولم يعتلق بي منك عند افتراقنا ... سوى عبق من مسك قينتك اللميا
وكنت أراني في الكرى وكأنني ... أناول كالدينار من ذهب الدنيا
فلما انطوى ذاك الأصيل وحسنه ... على ساعة من أنسنا صحت الرؤيا

وله يصف دولابا

وذي حنين يكاد شوقا ... يختلس الأنفس اختلاسا
لما غدا للرياض جارا ... قال له المحل لا مساسا
يبتسم الروض حين يبكي ... بادمع ما رأين باسا
من كل جفن يسل سيفا ... صار له غمده رئاسا

وله قد رأى صبيا يتباكى ويجعل من ريقه على عينيه يحكي بذلك الدموع

عذيري من الجذلان يبدى كآبة وأضلعه مما يحاوله صفر
أميلد مياس اذا قاده الصبي الى ملح الادلال أيده السحر
يبل ماقي زهرتيه بريقه ويحكي البكا عمداً كما ابتسم الزهر
ويوهم ان الدمع بل جفونه وهل عصرت يوما من النرجس الخمر

وقال يصف نائما قد تحبب العرق على خده

ومهفهف كالغصن الا انه سلب التثنى النوم عن أثنائه
أضحى ينام وقد تحبب خده عرقا فقلت الورد رش بمائه

وللرصافي هذا افتنان فى الآداب وكان رحمه الله عفيف الطعمة نزيه النفس لا يحب أن يشتهر بالشعر مع اجادته في كثير منه .

وأقام عبد المؤمن رحمه الله بجبل الفتح مرتبا للامور ممهداً للمملكة وأعيان البلاد يفدون عليه فى كل يوم الى أن تم له ما أراد من اصلاح ما استولى عليه من جزيرة الاندلس فولى مدينة اشبيلية وأعمالها ابنه يوسف وهو الذي ولى الامور بعده على ما سيأتي بيانه وترك معه بها من أشياخ الموحدين وذوى الرأي والتحصيل منهم من يرجع اليه فى أموره ويعول عليه فيما ينويه وولي قرطبة وأعمالها أبا حفص عمر اينتي وولى اغرناطة واعمالها ابنه عثمان بن عبد المؤمن يكنى ابا سعيد وكان من نبهاء اولاده ونجبائهم وذوي الصرامة منهم وكان محبا فى الآداب موثراً لأهلها يهتز للشعر ويثيب عليه اجتمع له من وجوه الشعراء واعيان الكتاب عصابة ما علمتها اجتمعت لملك منهم بعده ثم كر عبد المؤمن راجعا الى مراكش بعد ما ملأ ما ملكه من اقطار جزيرة الاندلس خيلا ورجالا من المصامدة والعرب وغيرهم من اصناف الجند

وقد كان حين أراد العبور الى جزيرة الاندلس استنفر أهل المغرب عامة فكان فيمن استنفره العرب الذين كانوا ببلاد يحيي بن العزيز وهم قبائل من هلال بن عامر خرجوا الى البلاد حين خلى بنو عبيد بينهم وبين الطريق الى المغرب فعاثوا فى القيروان عيثاً شديداً أوجب خرابها الى اليوم ودوخوا مملكة بنى زيرى بن مناد وهذا بعد موت المعز بن باديس فانتقل تميم الى المهدية وسار هؤلاء العرب حتى نزلوا على المنصور ابن المنتصر فصالحهم على أن يجعل لهم نصف غلة البلاد من تمرها وبرها وغير ذلك فاقاموا على ذلك باقي أيامه وأيام ابنه الملقب بالعزيز وأيام يحيي الى أن ملك البلاد أبو محمد عبد المؤمن رحمه الله فازال ذلك من أيديهم وصيرهم جنداً له واقطع رؤساءهم بعض تلك البلاد فكتب اليهم رسالة يستنفرهم الى الغزو بجزيرة الاندلس وأمر أن تكتب فى آخرها أبيات قالها رحمه الله فى ذلك المعنى وهي

اقيموا الى العلياء هوج الرواحـل

وقودوا الى الهيجاء جرد الصواهل

وقوموا لنصر الدين قومة ثائر — وشدوا على الاعداء شدة صائل

فما العز الا ظهر أجرد سـابح — يفوت الصبى فى شدة المتواصل

وأبيض مأثور كأن فرنده — على الماء منسوج وليس بسائل

بنى العم من عليا هلال بن عامر — وما جمعت من باسل وابن باسل

تعالوا فقد شدت الى الغزو نية — عواقبهـا منصورة بالاوائل

هي الغزوة الغراء والموعد الذى — تنجز من بعد المدى المتطاول

بها يفتح الدنيا بهـا يبلغ المنى — بها ينصف التحقيق من كل باطل

اهبنا بكم للخير والله حسبنا — وحسبكم والله أعـدل عادل

فما همنا الا صلاح جميعكم وتسريحكم فى ظل أخضر هاطل
وتسويغكم نعمى ترف طلالها عليكم بخير عاجل غير آجل
فلا تتوانوا فالبدار غنيمة وللمدلج السارى صفاة المناهل

فاستجاب له منهم جمع ضخم فلما أراد الانفصال عن الجزيرة رتبهم فيها فجعل بعضهم فى نواحي قرطبة وبعضهم في نواحي اشبيلية مما يلى مدينة شريش وأعمالها فهم بها باقون الى وقتنا هذا وهو سنة ٦٢١ وقد انتشر من نسلهم بتلك المواضع خلق كثير وزاد فيهم ابو يعقوب وابو يوسف حتى كثروا هنالك فبالجزيرة اليوم من العرب من زغبة ورياح وجشم ابن بكر وغيرهم نحو من خمسة آلاف فارس سوى الرجالة وكان عبور عبد المؤمن رحمه الله الى الجزيرة ونزوله بجبل الفتح فى سنة ٥٣٨ ثم كر كما ذكرنا راجعاً الى مراكش فأخبرنى غير واحد ممن أرضى نقله انه لما نزل مدينة سلا وهى مدينة على البحر الاعظم المحيط ينصب اليها نهر عظيم يصب فى البحر المذكور عبر النهر وضربت له خيمة على الشاطئ وجعلت العساكر تعبر قبيلة بعد قبيلة فلما نظر الى كثرة العدد وانتشار العالم خر ساجداً ثم رفع رأسه وقد بل الدمع لحيته والتفت الى من عنده وقال اعرف ثلاثة أشخاص وردوا هذه المدينة لا شئ لهم الا رغيف واحد فراموا عبور هذا النهر فأتوا صاحب القارب وبذلوا له الرغيف على ان يعبروا ثلثهم فقال لا آخذه الا على اثنين خاصة فقال لهم أحدهم وكان شابا جلداً خذا ثيابي معكما وأعبر أنا سباحة فأخذا ثيابي معهما وصعدا في القارب فجعل الشاب يسبح فكلما أعيا دنا من القارب ووضع يديه عليه ليستريح فيضربه صاحبه بالمجداف الذى معه حتى يؤلمه فما بلغ البر الا بعد جهد شديد فما شك

السامعون للحكاية انه العابر سباحة وان الاثنين المذكورين هما ابن تومرت وعبد الواحد الشرقي ثم سار حتي أتى مراكش فنزلها وأخذ في البناء والغراسة وترتيب القصور غير مخل بشيء مما تحتاج اليه المملكة من السياسة وتدبير الأمور وبسط العدل والتحبب الى الرعية واخافة من تجب اخافته

وأخبرني السيد حقيقة • والماجد خلقاً وخليقة ابو زكريا يحيى بن الامام أمير المؤمنين ابى يعقوب بن الامام أمير المؤمنين أبي محمد عبد المؤمن بن علي انه رأى على ظهر كتاب الحماسة بخط الخليفة عبد المؤمن هذين البيتين وقال لى رحمه الله لا أدرى هما له أو لغيره

وحكم السيف لا تغبأ بعاقبة ، وخلها سيرة تبقى على الحقب
فما تنال بغير السيف منزلة ولا ترد صدور الخيل بالكتب

وقد كان عبد المؤمن حين فصل عن بجاية وولى عليها ابنه عبد الله حسب ما تقدم عهد اليه أن يشن الغارات على نواحي افريقية وان يضيق على تونس ويمنع عنها المرافق التى تصل اليها على طريقه ففعل ذلك ثم ان عبد الله تجهز فى جيش عظيم من المصامدة والعرب وغيرهم وسار حتى نزل على مدينة تونس وهى حاضرة افريقية بعد القيروان وكرسى مملكتها ومقر تدبيرها واياها يستوطن والى افريقية لم يزل هذا معروفاً من أمرها الى وقتنا هذا وهو سنة ٦٢١ فحاصرها عبد الله المذكور وأخذ فى قطع أشجارها وتغوير مياهها وكان الذي يملكها في ذلك الوقت لوجار بن لوجار المعروف بابن الدوقه الرومي صاحب صقلية لعنه الله وكان عامله عليها رجل من المسلمين اسمه عبد الله يعرف بابن خراسان لم يزل عاملا عليها حتى أخرجه الموحدون في التاريخ الذى

سيذكر فلما طال على ابن خراسان الحصار اجمع رأيه ورأي أهل البلد
من الجند على الخروج لقتال المصامدة ففعلوا ذلك وخرجوا بخيل ضخمة
فالتقوا هم وأصحاب عبد الله فانهزم أصحاب عبد الله وقتل منهم خلق
كثير ورجع عبد الله ببقية أصحابه الى بجاية فكتب الى أبيه يخبره
بذلك فلما كان فى آخر سنة ٥٥٣ أخـذ عبد المؤمن فى الحركة الى
افريقية فجمع جموعا عظيمة من المصامدة وغيرهم من جند المغرب وسار
حتى نزل على مدينة تونس فافتتحها عنوة وفصل عنها الى مهدية بنى
عبيد وفيها الروم أصحاب ابن الدوقه وفيها معهم يحيي بن حسن بن تميم
ابن المعز بن باديس بن المنصور بن بلجين بن زيرى بن مناد الصنهاجي
ملوك القيروان فنزل عبد المؤمن عليها فحاصرها أشد الحصار وهي من
معاقل المغرب المنيعة لان بنيانها فى غاية الاحكام والوثاقة بلغنى ان عرض
حائط سورها يمشى ستة أفراس فى صف واحد ولا طريق لها من البر
الا على باب واحد والبحر فى قبضة من فى البلد يدخل الشيني كما هو
بمقاتلته الى داخل دار الصناعة لا يقدر أحد ممن فى البر على منعه فبهذا
قدر الروم على الصبر على الحصار لان النجدة كانت تأتيهم من صقلية
فى كل وقت وأقام عبد المؤمن وأصحابه عليها سـبعة أشهر الا أياماً
وأصابتهم عليها شدة شديدة من غلاء السعر بلغنى عن غير واحد انهم
اشتروا الباقلاء فى العسكر سبع باقلات بدرهم مومنى وهو نصف
درهم النصاب ثم افتتحها عبد المؤمن رحمه الله بعد أن آمن النصاري
الذين بها علي أنفسهم علي أن يخرجوا له عن البلد ويلحقوا بصقلية
بلدهم حيث مملكة صاحبهم ففعلوا ذلك ودخل عبد المؤمن وأصحابه
المهدية فملكوها وبعث الي قابس من افتتحها وفيها الروم أيضاً ثم افتتح

طرابلس المغرب وأرسل الى بلاد الجريد وهي توزر وقفصة ونقطة والحامة وما والى هذه البلاد فافتتحت كلها وأخرج الافرنج منها والحقهم ببلادهم كما تقدم فمحا الله به الكفر من افريقية وقطع عنها طمع العدو فانتبه بها الدين بعد خموله وأضاء كوكب الايمان بعد انطماسه وأفوله وتم لعبد المؤمن رحمه الله ملك افريقية كلها منتظما الى مملكة المغرب فملك فى حياته من طرابلس المغرب الى سوس الاقصى من بلاد المصامدة وأكثر جزيرة الأندلس وهذه مملكة لم أعلمها انتظمت لأحد قبله منذ اختلت دولة بني أمية الى وقته ثم كر عبد المؤمن راجعاً من افريقية بعد ما استولى على بلادها ودان له اهلها فأخبرني بعض أشياخ الموحدين من ذوى التحصيل منهم والثقة ان عبد المؤمن مر فى طريقه راجعاً من افريقية بجاية فدخل البلد متنزهاً فيه فمر بسويقة بناحية باب من أبوابها يدعي باب تاطنت فوقف ووقفت معه وجوه دولته فسأل عن بياع بها سماه باسمه فأخبره أهل السويقة بوفاته فقال هل خلف عقباً قالوا نعم فأمر بشراء جميع الدكاكين التي بتلك السويقة وأوقفها عليهم وأمر لهم بمال كثير ثم التفت الى بعض خواصه وقال له أتيت الى هذا البياع ولى وللامام يعنى ابن تومرت ولجماعة من أصحابنا من الطلبة أيام لم نطعم فيها وما معي الا سكين الدواة فأخذت منه خبزاً وإداما ثم وضعت عنده السكين رهناً علي ذلك فأبي قبولها وقال لى انى توسمت فيك الخير فمتى أعوزك شئ فهلم الى الدكان فهو بين يديك وبحكمك فحقه علي أكثر من هذا ونظر في هذا اليوم الذي ركب فيه مخترقا بجاية الى يحي بن العزيز يمشي بين يديه راجلا وقد علاه الغبار فدمعت عيناه واستدعاه فقال له أتذكر يوما خرجت الى بعض منتزهاتك فاذكراني

جمعني واياك هذا الباب فوطئت دابتك عقبي فلما نظرت اليك أمرت بعض عبيدك فوكزني وكزة كدت أقع منها لفي فاستحيا يحيي وتغير لونه وأطرق وجعل يقول الله الله يا مولاى وظن أنه الشر فلما رأي ذلك منه قال له انما ذكرت لك ذلك على طريق الاعتبار ولتذكر وتنظر كيف تقلب الايام بأهلها وأمر له بما زال به روعه ومر في طريقه هذا ما بين البطحاء وتلمسان بموضع قد التف فيه الدوم فجاءت منه دوحة عظيمة في وسطها رحبة نقية فأمر أن يضرب خباؤه هنالك وهو غير منزل معروف فلما نزل ونزلت العساكر واستقر بهم النزول قال لبعض خواصه اتدرون لما آثرت النزول بهذا المكان قالوا لا قال ذلك لاني بت بهذا الموضع في بعض الليالي جائعاً مقروراً وكانت ليلة ممطورة فما زال هذا الدوم وقاني حتى أصبحت فأردت النزول هنا علي هذه الحالة لاشكر الله سبحانه علي الفرق ما بين المنزلتين والفصل ما بين المبيتين ثم قام فتوضأ وصلي ركعتين شكراً لله عز وجل وجدت هذه الحكاية بخط رجل من ولد ولد عبد المؤمن اسمه موسى بن يوسف بن عبد المؤمن وبدا له في هذا الوجه أن يمر على القرية التى تسمى تاجرا وبها كان مولده كما تقدم لزيارة قبر أمه وصلة من هناك من ذوي رحمه فلما أطل عليها والجيوش قد انتشرت بين يديه وقد خفقت على رأسه أكثر من ثلاثمائة راية ما بين بنود وألوية وهرت أكثر من مائتى طبل وطبولهم في نهاية الكبر وغاية الضخامة يخيل لسامعها اذا ضربت ان الارض من تحته تهتز ويحس بقلبه يكاد يتصدع من شدة دويها فخرج أهل القرية للقائه والتسليم عليه بالخلافة فقالت امرأة عجوز من عجائز القرية ممن كانت تصحب أمه هكذا يعود الغريب الى بلده تقول ذلك

رافعة صوتها ونازع عبد المؤمن الأمر قوم من قرابة بن تومرت يعرفون بأيت ومغار معناه بالعربية بنو ابن الشيخ وانتهوا في ذلك الى أن أجمع رأيهم ورأى من وافقهم على سوء صنيعهم على أن يدخلوا على عبد المؤمن خباءه ليلا فيقتلوه وظنوا ان ذلك يخفى من أمرهم وان عبد المؤمن اذا فقد ولم يعلم من قتله صار الامر اليهم لأنهم أحق به اذ كانوا أهل الامام وقرابته وأولى الناس به فأعلم بما أرادوه من ذلك رجل من أصحاب بن تومرت من خيارهم اسمه اسماعيل بن يحيي الهزرجي فأتى عبد المؤمن فقال له يا أمير المؤمنين لي اليك حاجة قال وما هي يا أبا ابراهيم بجميع حوائجك عندنا مقضية قال أن تخرج عن هذا الخباء وتدعني أبيت فيه ولم يعلمه بمراد القوم فظن عبد المؤمن انه انما يستوهبه الخباء لانه أعجبه فخرج عنه وتركه له فبات فيه اسماعيل المذكور فدخل عليه أولئك القوم فتولوه بالحديد حتى برد فلما أصبحوا ورأوا انهم لم يصيبوا عبد المؤمن فروا بأنفسهم حتى أتوا مراكش وراموا القيام بها فأتوا البوابين الذين على القصور فطلبوا منهم المفاتيح فأبوا عليهم فضربوا عنق أحدهم وفر باقيهم وكادوا يغلبون على تلك القصور ثم ان الناس اجتمعوا عليهم من الجند وخاصة العبيد فقاتلوهم قتالا شديداً من لدن طلوع الفجر الى طلوع الشمس ثم ان العبيد غلبوهم على أمرهم ولم يزل الناس يتكاثرون عليهم الى أن أخذوا قبضاً باليد فقيدوا وجعلوا في السجن الى أن وصل ابو محمد عبد المؤمن رحمه الله الى مراكش فقتلهم صبراً وقتل معهم جماعة من أعيان هرغة بلغه أنهم قادحون في ملكه متربصون به ولما أصبح أبو ابراهيم اسماعيل المتقدم الذكر في الخباء مقتولا على الحال التي ذكرنا اعظم ذلك عبد المؤمن ووجد عليه وجداً

مفرطاً أخرجه عن حد التماسك الى حيز الجزع فأمر بغسله وتكفينه وصلى عليه بنفسه ودفن ولم يترك اسماعيل هذا من الولد سوى ولد واحد ذكر اسمه يحيى نال يحيى هذا فى أيام أبي يعقوب جاها متسعاً ورتبة عالية وكذلك فى أيام ابى عبد الله كانت أكثر أمورهم ترجع اليه لم يزل كذلك الى أن مات فى شهور سنة ٦٠٢ وترك بنتاً واحدة تزوجها أمير المؤمنين أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن اسمها فاطمة لا عقب له منها طال عمرها تركتها بالحياة حين فصلت عن مراكش فى شهور سنة ٦١١ ولاسماعيل هذا مع ابن تومرت خبر بقرب مما قدمنا فى النصح والتحذير تلطف فيه اسماعيل غاية التلطف وذلك ان ابن تومرت حين خرج من مراكش على الحال التي تقدمت من اخراج أمير المسلمين اياه عنها سار حتى نزل الضيعة التي فيها أبو ابراهيم فدخل المسجد فاجتمع أهل الضيعة على باب المسجد ينظرون الى ابن تومرت ويقول بعضهم لبعض همسا هذا الذى نفاه أمير المسلمين عن بلاده لافساده عقول الناس ونحو هذا القول وهموا بقتله تقربا بذلك الى أمير المسلمين فلما رأي ذلك ابو ابراهيم من أمرهم تقدم الى بن تومرت فسأله عن اعراب هذه الآية ﴿ ان الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج اني لك من الناصحين ﴾ ففهم بن تومرت ما أراد وخرج عن تلك الضيعة وعرف لابي ابراهيم نصحه ثم لحق به ابو ابراهيم هذا بعد ما اشتهر أمره بتينملل فهو معدود فى أهل الجماعة ولما قتل عبد المؤمن أولئك القوم الذين قدمنا ذكرهم صبراً هابه المصامدة وسائر أهل دولته وعظم امره في صدورهم

وأقام عبد المؤمن بمراكش بقية سنة ٥٥ وسنة ٦ وسنة ٧ وفى

أول سنة ٥٨ خرج أمره الي الناس كافة بالغزو الي بلاد الروم من جزيرة الاندلس وكتبت عنه الكتب الى سائر الجهات يستنفر الناس ويحضهم على الجهاد ويرغبهم فيه فاجتمعت له جموع عظيمة وخرج يقصد جزيرة الاندلس مظهراً للغزو والاحتساب ويتم أيضا مع ذلك ما بقي عليه من مملكتها من ما بيد محمد بن سعد المتقدم الذكر فسار بالجيوش حتي نزل مدينة سلا فأقام بها ينتظر تكامل العساكر فاعتل علته التي مات منها رحمه الله وكانت وفاته كما تقدم في السابع والعشرين من جمادى الآخرة من هذه السنة أعني سنة ٥٨ وكان قد عهد في حياته الى أكبر أولاده محمد وبايعه الناس وكتب ببيعته الى البلادفأبي تمام هذا الامر لمحمد هذا ما كان عليه من أمور لاتصلح معها الخلافة من ادمان شرب الخمر واختلال الرأي وكثرة الطيش وجبن النفس ويقال انه مع هذا كان به ضرب من الجذام فالله أعلم ولما مات عبد المؤمن اضطرب أمر محمد هذا واختلف عليه اختلافا كثيراً فكانت ولايته الى أن خلع خمسا وأربعين يوما واتفقوا على خلعه في شعبان من هذه السنة وكان الذي سعى في خلعه مع ما قدمنا من استحقاقه لذلك أخواه يوسف وعمر

﴿ ذكر ولاية أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن ﴾

(وما يتعلق بها)

ولما تم خلع محمد في التاريخ المذكور بعد اتفاق من وجوه الدولة على

ذلك دار الامر بين اثنين من ولد عبد المؤمن يوسف وعمر وهما من نبهاء اولاده ونجبائهم وذوى الرأى والغناء منهم فاباها عمر منهما وتأخر عنها مختاراً وبايع لاخيه ابى يعقوب وسلم له الامر حمله على ذلك فرط عقله وايثار دينه وحب المصلحة للمسلمين لانه كان يعلم من نفسه اشياء لا يصلح معها لتدبير المملكة (لا) ضبط امور الرعية فبايع الناس أبا يعقوب واتفقت عليه الكلمة فلم يختلف عليه أحد من الناس من أخوته ولا غيرهم وذلك كله بحسن سعى أبى حفص عمر بن عبد المؤمن وشدة تلطفه وجودة رأيه فاستوثق لابى يعقوب هذا أمره وتمت بيعته فى التاريخ المذكور وكان الساعي فيها والقائم بها ومدبرها الى أن تمت كما ذكرنا اخوه لابيه وامه ابو حفص المتقدم الذكر وابو يعقوب هذا هو يوسف بن عبد المؤمن بن على أمه وأم أخيه أبى حفص امرأة حرة اسمها زينب ابنة موسى الضرير كان من أهل تينملل من ضيعة يقال لها انسا كان موسى هذا من شيوخ أهل تينملل وأعيانهم وكان عبد المؤمن يستخلفه على مراكش اذا خرج عنها وكانت مصاهرته اياه أيام كان عبد المؤمن بتينملل برأى ابن تومرت وخلف موسى هذا من الولد الذكور ثلاثة ابراهيم وعلياً ومحمداً وبنات .

﴿ صفة أبى يعقوب ﴾ كان أبيض تعلوه حمرة شديد سواد الشعر مستدير الوجه أفوه أعين الى الطول ما هو فى صوته جهارة رقيق حواشى اللسان حلو الالفاظ حسن الحديث طيب المجالسة أعرف الناس كيف تكلمت العرب وأحفظهم بايامها ومآثرها وجميع أخبارها فى الجاهلية والاسلام صرف عنايته الى ذلك أيام كونه باشبيلية واليا عليها فى حياة أبيه ولقى بها رجالا من أهل علم اللغة والنحو والقرآن

منهم الاستاذ اللغوى المتقن أبو اسحق ابراهيم بن عبد الملك المعروف
عندهم بابن ملكون فأخذ عنهم جميع ذلك وبرع فى كثير منه أخبرنى
من لقيته من ولده كابى زكريا وأبى عبدالله وابى ابراهيم اسحق وغيرهم
ممن لقيته وشافهته منهم انه كان أحسن الناس ألفاظا بالقرآن وأسرعهم
نفوذ خاطر في غامض مسائل النحو وأحفظهم للغة العربية وكان شديد
الملوكية بعيد الهمة سخيا جواداً استغنى الناس فى أيامه وكثرت فى أيديهم
الاموال هذا مع ايثار للعلم شديد وتعطش اليه مفرط صح عندي انه
كان يحفظ أحد الصحيحين الشك منى إما البخارى أو مسلم وأغلب ظنى
انه البخارى حفظه فى حياة أبيه بعد تعلم القرآن هذا مع ذكر جمل
من الفقه وكان له مشاركة فى علم الادب واتساع فى حفظ اللغة وتبحر فى
علم النحو حسب ما تقدم ثم طمح به شرف نفسه وعلو همته الى تعلم
الفلسفة فجمع كثيراً من أجزائها وبدأ من ذلك بعلم الطب فاستظهر من
الكتاب المعروف بالملكى أكثره مما يتعلق بالعلم خاصة دون العمل
ثم تخطى ذلك الى ما هو أشرف منه من أنواع الفلسفة وأمر بجمع
كتبها فاجتمع له منها قريب مما اجتمع للحكم المستنصر بالله الاموي
أخبرني ابو محمد عبد الملك الشذونى احد المتحققين بعلمي الطب واحكام
النجوم قال كنت فى شبيبتى استعير كتب هذه الصناعة يعنى صنعة الاحكام
من رجل كان عندنا بمدينة اشبيلية اسمه يوسف يكنى أبا الحجاج يعرف
بالمرانى بتخفيف الراء كانت عنده منها جملة كبيرة وقعت الى ابيه في ايام
الفتنة بالاندلس فكان يعيرنى اياها في غرائر احمل غرارة واجيء بغرارة
من كثرتها عنده فاخبرنى في بعض الايام انه عدم تلك الكتب بجملتها
فسألته عن السبب الموجب لذلك فاسر الى ان خبرها انهى الى أمير

المؤمنين فأرسل الي داري وانا في الديوان لاعلم عندي بذلك وكان الذي أرسل كافور الخصي مع جماعة من العبيد الخاصة وأمره ألا يروع أحدا من أهل الدار وان لا يأخذ سوى الكتب وتوعده والذين معه أشد الوعيد ان نقص أهل البيت ابرة فما فوقها فأخبرت بذلك وانا في الديوان فظننته يريد استصفاء أموالي فركبت وما معي عقلي حتى أتيت منزلي فاذا الخصي كافور الحاجب واقف على الباب والكتب تخرج اليه فلما رآني وتبين ذعري قال لي لا بأس عليك وأخبرني ان أمير المؤمنين يسلم علي وانه ذكرني بخير ولم يزل يبسطني حتى زال ما في نفسي ثم قال لي سل أهل بيتك هل راعهم أحد او نقصهم شيئا من متاعهم فسألتهم فقالوا لم يرعنا أحد ولم ينقصنا شيئا جاء ابو المسك حتي استأذن علينا ثلاث مرات فاخلينا له الطريق ودخل هو بنفسه الي خزانة الكتب فأمر باخراجها فلما سمعت هذا القول منهم زال ما كان في نفسي من الروع وولوه بعد اخذهم لهذه الكتب منه ولاية ضخمة ما كان يحدث بها نفسه ولم يزل يجمع الكتب من أقطار الاندلس والمغرب ويبحث عن العلماء وخاصة اهل علم النظر الى ان اجتمع له منهم مالم يجتمع لملك قبله ممن ملك المغرب وكان ممن صحبه من العلماء المتفننين ابو بكر محمد بن طفيل أحد فلاسفة المسلمين كان متحققا بجميع أجزاء الفلسفة قرأ على جماعة من المتحققين بعلم الفلسفة منهم ابو بكر بن الصائغ المعروف عندنا بابن باجة وغيره ورأيت لابي بكر هذا تصانيف في أنواع الفلسفة من الطبيعيات والالهيات وغير ذلك فمن رسائله الطبيعيات رسالة سمى لها رسالة حي بن يقظان غرضه فيها بيان مبدإ النوع الانساني على مذهبهم وهي رسالة لطيفة الجرم كبيرة الفائدة في ذلك الفن ومن تصانيفه

الالهيات رسالة فى النفس رأيتها بخطه رحمه الله وكان قد صرف عنايته فى آخر عمره الى العلم الالهى ونبذ ما سواه وكان حريصاً على الجمع بين الحكمة والشريعة معظما لامر النبوات ظاهرا وباطنا هذا مع اتساع في العلوم الاسلامية وبلغنى انه كان يأخذ الجامكية مع عدة أصناف من الخدمة من الاطباء والمهندسين والكتاب والشعراء والرماة والاجناد الى غير هؤلاء من الطوائف وكان يقول لو نفق عليهم علم الموسيقا لأنفقته عندهم وكان أمير المؤمنين أبو يعقوب شديد الشغف به والحب له بلغنى انه كان يقيم في القصر عنده أياما ليلا ونهاراً لا يظهر وكان أبو بكر هذا أحد حسنات الدهر فى ذاته وأدواته أنشدنى ابنه يحيي بمدينة مراكش سنة ٦٠٣ من شعر أبيه رحمه الله .

ألمت وقد نام المشيج وهوما ... وأسرت الى وادي العقيق من الحما
وجرت على ترب المحصب ذيلها ... فما زال ذاك الترب نهبا مقسما
تناوله أيدي التجـــار لطيمة ... ويحـمله الدارى أيان يمما
ولمـــا رأت ألا ظلام يجنها ... وأن سراها فيه لن يتكتما
نضت عذبات الريط عن حر وجهها ... فابدت محيا يدهش المتوسما
فكان تجليها حجـــاب جمالها ... كشمس الضحي يعشى بها الطرف كلما
ولما التقينا بعد طول تهاجر ... وقد كاد حبل الود أن يتصرما
جلت عن ثناياها وأومض بارق ... فلم أدر من شق الدجنة منهما
وساعدني جفن الغمام على البكا ... فلم أدر دمعا أينا كان أسجما
فقالت وقد رق الحديث وأبصرت ... قرائن أحوال أذعن المكتما
نشدتك لا يذهب بك الشوق مذهبا ... يهون صعبا أو يرخص مأثما
فأمسكت لا مستغنيا عن نوالها ... ولكن رأيت الصبر أوفي وأكرما

ومن شعره فى الزهد رحمه الله ما قرأ عليّ ابنه من خطه في التاريخ المذكور

يا باقيا فرقة الاحباب عن شحط هل لا بكيت فراق الروح للبدن
نور تردد فى طين الي أجل فانحاز علواً وخلى الطين للكفن
يا شد ما افترقا من بعد ما اعتلقا أظنها هدنة كانت على دخن
ان لم يكن فى رضى الله اجتماعهما فياله..........ا صفقة تمت على غبن

وأنشدنى بعض أصحابنا من الكتاب له رحمه الله

ما كل من شم نال رائحة للناس فى ذا تباين عجب
قوم لهم فكرة تجول بهم بين المعانى أولئك النجب
وفرقة فى القشور قد وقفوا وليس يدرون لب ماطلبوا
لا غاية تجـــلى لناظرهم منه ولا ينقضى لهم أرب
لا يتعدى امرؤ جبلته قد قسمت فى الطبيعة الرتب

ولم يزل أبو بكر هذا يجلب اليه العلماء من جميع الاقطار وينبه عليهم ويحضه على اكرامهم والتنويه بهم وهو الذى نبهه على بن الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن رشد فمن حينئذ عرفوه ونبه قدره عندهم أخبرنى تلميذه الفقيه الاستاذ ابو بكر بندود بن يحيي القرطبي قال سمعت الحكيم أبا الوليد يقول غير مرة لما دخلت على أمير المؤمنين ابى يعقوب وجدته هو وأبو بكر بن طفيل ليس معهما غيرهما فأخذ أبو بكر يثنى عليّ ويذكر بيتي وسلفي ويضم بفضله الى ذلك اشياء لا يبلغها قدرى فكان أول ما فاتحنى به أمير المؤمنين بعد أن سألنى عن اسمي واسم أبى ونسبي أن قال لى ما رأيهم فى السماء يعنى الفلاسفة أقديمة هي أم حادثة فادركنى الحياء والخوف فأخذت أتعلل وأنكر اشتغالى بعلم الفلسفة ولم أكن أدرى

ما قرر معه ابن طفيل ففهم أمير المؤمنين من الروع والحياء فالتفت الى ابن طفيل وجعل يتكلم على المسئلة التي سألني عنها ويذكر ما قاله ارسطوطاليس وأفلاطون وجميع الفلاسفة ويورد مع ذلك احتجاج أهل الاسلام عليهم فرأيت منه غزارة حفظ لم أظنها في أحد من المشتغلين بهذا الشأن المتفرغين له ولم يزل يبسطني حتي تكلمت فعرف ما عندي من ذلك فلما انصرفت امر لي بمال وخلعة سنية ومركب وأخبرني تلميذه المتقدم الذكر عنه قال استدعاني ابو بكر بن طفيل يوما فقال لي سمعت اليوم أمير المؤمنين يتشكي من قلق عبارة ارسطوطاليس او عبارة المترجين عنه ويذكر غموض اغراضه ويقول لو وقع هذه الكتب من يلخصها ويقرب اغراضها بعد أن يفهمها فهما جيداً لقرب مأخذها علي الناس فان كان فيك فضل قوة لذلك فافعل واني لارجو أن تفي به لما أعلمه من جودة ذهنك وصفاء قريحتك وقوة نزوعك الى الصناعة وما يمنعني من ذلك الا ما تعلمه من كبرة سني واشتغالي بالخدمة وصرف عنايتي الي ما هو أهم عندي منه قال ابو الوليد فكان هذا الذي حملني على تلخيص ما لخصته من كتب الحكيم ارسطوطاليس وقد رأيت انا لابو الوليد هذا تلخيص كتب الحكيم في جزء واحد في نحو من مائة وخمسين ورقة ترجمه بكتاب الجوامع لخص فيه كتاب الحكيم المعروف بسمع الكيان وكتاب السماء والعالم ورسالة الكون والفساد وكتاب الآثار العلوية وكتاب الحس والمحسوس ثم لخصها بعد ذلك وشرح اغراضها في كتاب مبسوط في أربعة أجزاء وبالجملة لم يكن في بني عبد المؤمن في من تقدم منهم وتأخر ملك بالحقيقة غير ابي يعقوب هذا

(وزراؤه) وزر له أخوه عمر أياما يسيرة ثم ارتفع قدره عن

الوزارة اذ رآها دونه ثم وزر له ابو العلاء ادريس بن ابراهيم بن جامع الى أن قبض عليه واستصفى أمواله فى شهور سنة ٥٧٧ ووزر له بعده ابنه ابو يوسف ولى عهده الى أن مات سنة ٥٨٠ فكانت ولايته من حين بويع له الى أن استشهد رحمة الله عليه ببلاد الروم اثنتين وعشرين سنة الا أشهرا

(كتابه) ابو محمد عياش بن عبد الملك بن عياش كاتب أبيه وابو القاسم المعروف بالقالمي وأبو الفضل جعفر بن احمد المعروف بابن محشوة من أهل مدينة بجاية كان يخدم أبا القاسم القالمى الى أن مات فكتب مكانه هؤلاء كتبة الانشاء خاصة وكتاب الجيش ابو الحسين الهوزنى الاشبيلى وابو عبد الرحمن الطوسى

(حاجبه) كافور مولاه الخصى كان يدعى كافور بغرة

(أولاده) كان له من الولد ثمانية عشر ذكرا وهم عمر ويعقوب وهو ولى عهده وابو بكر وعبد الله واحمد ويحيي كان يحيي هذا رحمه الله لى صديقاً ومن جهته تلقيت أكثر أخبارهم لم أرفى الملوك ولافى السوق مثله رحمة الله عليه وما استخرت لفظة الصداقة مع ان الواجب لفظ الخدمة الا لما كان رحمه الله يكتب الى أخى وصديقى في بعض الاوقات وولى في بعضها اجتمعت عندى بخطه رقاع كثيرة خلع على فيها فضله وحلانى بما لم أكن استحقه وموسى وابراهيم وادريس وعبد العزيز وطلحة واسحق ومحمد وعبد الواحد وعثمان وعبد الحق وعبد الرحمن واسماعيل وبنات

(قضاته) ابو محمد المالقى المتقدم الذكر ثم عزله وولى بعده عيسي ابن عمران التازي من أهل رباط تازا من أعمال مدينة فاس من قبيلة

يقال لها تسول من البربر يرجعون الى زناتة كان عيسى هذا من فضلاء أهل المغرب ونبهائهم وكان خطيباً مصقعاً وبليغا لسنا وشاعراً مفلقا مشاركا فى كثير من العلوم ونال فى أيام أبى يعقوب حظوة ومكانة كان يتكلم عن الوفود ويخطب فى النوازل فيأتي بكل عجيبة وكان مع هذا ذا مروءة تامة وتعصب لمن ينقطع اليه مفرط اخبرني ابنه ابو عمران قاضى الجماعة فى وقتنا هذا قال سمعت أبى يقول وقد لامه بعض من يلوذ به فى التنويه بأقوام ليست لهم سوابق ولا اقدار رفعهم من الحضيض جاهه ونبههم بعد الخمول اعتناؤه ليس العجب ممن يأتي الى رجل نبيه القدر يرفعه انما العجب ممن يحيي الميت وينبه الخامل ويرفع الوضيع فاما نبيه القدر فنباهته تكفيه وبلغ من افراطه في التعصب ان قال يوما ليس بحماية أن تحمي صاحبك وهو محق فان الحق أظهر وأقوى من أن يحمي انما الحماية ان تحميه وهو مبطل فى اشباه لهذه الاخبار وكان له أولاد ما منهم الا من ولى القضاء وهم علىّ وكان علىّ هذا رجل صالحاً ولى فى حياة أبيه قضاء مدينة بجاية ثم عزل عنها وولي مدينة تلمسان وهو عندنا من المشهورين بالتصميم والتبتل في دينه وممن لا تأخذه هوادة في الحق ومن أولاده طلحة ولى قضاء تلمسان ويوسف تركته قاضياً بمدينة فاس بلغتني وفاته وانا بمكة فى سنة ٦٢٠ وابو عمران موسى قاضى الجماعة في وقتنا هذا وسيأتى ذكره فى موضعه ان شاء الله عز وجل ثم ولى بعد أبي موسى هذا رجل اسمه حجاج بن ابراهيم التجيبى من أهل مدينة اغمات من أعمال مدينة مراكش كان حجاج هذا رجلا صالحاً يعد فى الزهاد المتبتلين وكان له تبحر في الفقه ومعرفة بأصوله

وبصر بعلم الحديث هذا مع نزاهة نفس وطهارة عرض وتصميم فى الحق
افرط فى ذلك حتى ثقلت على كثير من وجوه الدولة وطأته ونالوا منه
عند أبى يعقوب فما زاده ذلك الا حباً وتقريبا الى أن مات رحمه الله فى
حياة أبى يعقوب بلغ من رقة قلبه وسرعة دمعته انه دخل يوما على أمير
المؤمنين ابى يعقوب وقد بل لحيته ورداءه بدموعه فلما مثل بين يديه
زاد فى البكاء فسأله أمير المؤمنين عما أبكاه فقال يا أمير المؤمنين سألتك
بالله الا اعفيتنى قال عزمت عليك لتخبرني أولا بسبب بكائك قال بينا
انا قاعد فى مجلس الحكم اذ أتيت بشيخ سكران كنت قد حددته مراراً
فكان من كلامي ان قلت له يا شيخ كيف تحشر ففتح يديه وقال هكذا
فوالله ماملكت دمعى حين عرفت ماعنى بقوله انما عرض لى بقول
النبي صلى الله عليه وسلم ان القاضي يحشر مطوّلة يداه الى عنقه فاما
أن يحله عدله أو يهوى به جوره هذا معنى الحديث فاسئلك بالله الا
اعفيتني فوعده بذلك فقال عسى ان يكون في مقامى هذا فقال له لاافعل
حتي أجد عوضا منك فخرج من عنده فما لبث الا أياما يسيرة حتى مات
رحمة الله عليه ثم ولى بعده القضاء ابو جعفر احمد بن مضاء من أهل
مدينة قرطبة فلم يزل ابو جعفر هذا قاضيا الى أن مات أمير المؤمنين
ابو يعقوب وصدراً من خلافة ابى يوسف المنصور رحمه الله

﴿ فصل ﴾ ولما استوثق لابى يعقوب هذا الامر لم يزل مقيما
بمراكش الى أن كانت سنة ٥٦٧ فبدأ له أن يعبر الى جزيرة الاندلس
مظهراً قصد غزو الروم ومبطنا اتمام تملك الجزيرة والتغلب على ما في
يد محمد بن سعد المعروف بابن مردنيش منها وكان يملك منها ابن سعد

المذكور من اول اعمال مرسية الى آخر ما يملكه المسلمون اليوم من شرقيها وقد تقدم تلخيص التعريف بمملكته اياها ومن اين اتصلت اليه فجمع امير المؤمنين ابو يعقوب جموعا عظيمة من قبائل الموحدين وغيرهم من اصناف الجند وسار حتى نزل مدينة سبتة فبنى له بها منزل هو باق هنالك الى اليوم فأقام بها الى أن تكاملت جموعه ولحق به من كان تأخر عنه من العساكر ثم عبر البحر وقصد مدينة اشبيلية فنزلها وجهز العساكر الى محمد بن سعد وكان أخو ابي يعقوب عثمان بن عبد المؤمن والياعلى مدينة اغرناطة فكتب اليه أن يقصد بالعساكر الى مدينة مرسية دار مملكة محمد بن سعد فخرج عثمان بالعساكر حتى نزل قريبا منها بموضع يدعي الجلاب وخرج اليه محمد بن سعد في جموع عظيمة أكثرها من الافرنج لان ابن سعد كان مستعينا بهم في حروبه قد اتخذهم اجنادا له وأنصاراً وذلك حين احس باختلاف وجوه القواد عليه وتنكرا كثر الرعية له فقتل من أولئك القواد الذين اتهمهم جماعة بأنواع من القتل بلغنى أن منهم من بني عليه في حائط وتركه حتى مات جوعا وعطشا الى غير هذا من ضروب القتل واستدعي النصارى كما ذكرنا فجعلهم اجنادا له وأقطعهم ما كان أولئك القواد يملكونه وأخرج كثيراً من أهل مرسية وأسكن النصارى دورهم فزحف كما ذكرنا بجيشه ومعظمهم من الافرنج فالتقى هو والموحدون بالموضع المعروف بالجلاب على أربعة أميال من مرسية فانهزم أصحاب محمد بن سعد انهزاما قبيحا وقتل من أعيان الروم جملة ودخل محمد بن سعد مدينة مرسية مستعداً للحصار فضايقه الموحدون وما زالوا محاصرين له الى أن مات وهو في الحصار حتف انفه وسترت وفاته الى الى أن ورد أخوه يوسف بن سعد الملقب

بالرئيس من بلنسية وكان واليا عليها من جهة أخيه محمد فاجتمع رأيه ورأى أكابر ولد محمد بن سعد بعد أن اتهموا وأنجدوا وأخذوا في كل وجه من وجوه الحيـــل على أن يلقوا ايديهم في يد أمير المؤمنين أبي يعقوب ويسلموا اليه البلاد ففعلوا ذلك وقيل ان أبا عبد الله محمد بن سعد حين حضرته الوفاة جمع بنيه وكان له من الولد على عامي ثمانية ذكور وهم هلال يكنى أبا القمر وهو أكبر ولده واليه أوصي وغانم والزبير وعزيز ونصير وبدر وأرقم وعسكر وأصاغر لا علم لي باسمائهم وبنات تزوج احداهن أمير المؤمنين ابو يعقوب وتزوج الاخرى أمير المؤمنين ابو يوسف يعقوب بن يوسف فكان فيما أوصاهم به أن قال يا بني اني أرى أمر هؤلاء القوم قد انتشر واتباعهم قد كثروا ودخلت البلاد في طاعتهم واني أظن انه لا طاقة لكم بمقاومتهم فسلموا اليهم الامر اختياراً منكم تحظوا بذلك عندهم قبل أن ينزل بكم ما نزل بغيركم وقد سمعتم ما فعلوا بالبلاد التي دخلوها عنوة ففعلوا ما أمرهم به فالله أعلم أي الامرين كان وخرج أمير المؤمنين ابو يعقوب من اشبيلية قاصداً بلاد الادفنش لعنه الله فنزل على مدينة له عظيمة تسمى وبذ وذلك انه بلغه ان أعيان دولة الادفنش ووجوه أجناده في تلك المدينة فأقام محاصراً له أشهراً الى أن اشتد عليهم الحصار وأرادوا تسليم البلد أخبرني جماعة يكثر عددهم ممن أدركت من شيوخ أهل الامر ان أهل هذه المدينة لما برح بهم العطش أرسلوا الى أمير المؤمنين يطلبون الامان على أنفسهم على أن يخرجوا له عن المدينة فابى ذلك عليهم وأطمعه فيهم ما نقل اليه من شدة عطشهم وكثرة من يموت منهم فلما يئسوا مما عنده سُمع لهم في بعض الليالي لغط عظيم وجلبة أصوات وذلك انهم أخرجوا أناجيلهم واجتمع

قسيسوهم ورهبانهم يدعون ويؤمن باقيهم فجاء مطر عظيم كأفواه القرب ملأ ما كان عندهم من الصهاريج وشربوا وارتووا وتقووا على المسلمين فانصرف عنهم أمير المؤمنين راجعاً الى اشبيلية بعد أن هادن الادفنش لعنه الله مدة سبع سنين ولم يزل أمير المؤمنين مقيما بالاندلس بقية سنة سبع وثمان وتسع الى أن رجع الى مراكش فى آخر سنة ٥٦٩ وقد ملك الجزيرة بأسرها ودانت له بجملتها ولم يخرج عن طاعته شئ منها وفى سنة ٧١ خرج الى سوس لحسم خلاف وقع هنالك بين بعض القبائل الذين بدرن فتم له ما أراد من اخماد الفتنة وجمع الكلمة واطفاء النائرة وحسم الخلاف وفي صدر سنة ٧٣ رام بعض القبيلة المسماة بغمارة مفارقة الجماعة وحسم اليد من الطاعة وكان رأسهم فى ذلك الذى اليه يرجعون وعميدهم الذى عليه يعولون رجل اسمه سبع بن حيان ووافقه على ذلك أخ له يسمى مرزدغ فدعوا الى الفتنة واجتمع عليهما خلق كثير والقبيلة المذكورة لا يكاد يحصرها عدد ولا يحدها حزر لكثرتها مسافة بلادها طولا وعرضاً نحو من اثنى عشرة مرحلة فخرج اليهم أمير المؤمنين أبو يعقوب بنفسه فاسلمتهما جموعهما وتفرق عنهما من كان اجتمع عليهما وأخذا قبض اليد فقتلا صبراً وصلبا ثم رجع أمير المؤمنين أبو يعقوب الى مراكش .

وفي أول سنة ٧٥ خرج ابو يعقوب من مراكش قاصداً بلاد افريقية فقصد منها مدينة قفصة وكان قد قام بها رجل اسمه على يعرف بابن الرند وتلقب بالناصر لدين النبي فحصره أبو يعقوب والموحدون الى أن استنزلوه وقطعوا دابر الخلاف وحسموا مواده ورجعوا الى مراكش وفى هذه السفرة صالحه ملك صقليه وأرسل اليه بالاتاوة بعد أن خافه

بالرئيس من بلنسية وكان واليا عليها من جهة أخيه محمد فاجتمع رأيه ورأي أكابر ولد محمد بن سعد بعد أن اتهموا وأنجدوا وأخذوا في كل وجه من وجوه الحيـــل على أن يلقوا ايديهم في يد أمير المؤمنين أبي يعقوب ويسلموا اليه البلاد ففعلوا ذلك وقيل ان أبا عبد الله محمد بن سعد حين حضرته الوفاة جمع بنيه وكان له من الولد على عامي ثمانية ذكور وهم هلال يكنى أبا القمر وهو أكبر ولده واليه أوصي وغانم والزبير وعزيز ونصير وبدر وأرقم وعسكر وأصاغر لا علم لي باسمائهم وبنات تزوج احداهن أمير المؤمنين ابو يعقوب وتزوج الاخرى أمير المؤمنين ابو يوسف يعقوب بن يوسف فكان فيما أوصاهم به أن قال يا بني اني أرى أمر هؤلاء القوم قد انتشر واتباعهم قد كثروا ودخلت البلاد في طاعتهم واني أظن انه لا طاقة لكم بمقاومتهم فسلموا اليهم الامر اختياراً منكم تحظوا بذلك عندهم قبل أن ينزل بكم ما نزل بغيركم وقد سمعتم ما فعلوا بالبلاد التي دخلوها عنوة ففعلوا ما أمرهم به فالله أعلم أي الامرين كان وخرج أمير المؤمنين ابو يعقوب من اشبيلية قاصداً بلاد الادفنش لعنه الله فنزل على مدينة له عظيمة تسمى وبذ وذلك انه بلغه ان أعيان دولة الادفنش ووجوه أجناده في تلك المدينة فأقام محاصراً له أشهراً الى أن اشتد عليهم الحصار وأرادوا تسليم البلد أخبرني جماعة يكثر عددهم ممن أدركت من شيوخ أهل الامر ان أهل هذه المدينة لما برح بهم العطش أرسلوا الى أمير المؤمنين يطلبون الامان على أنفسهم على أن يخرجوا له عن المدينة فابى ذلك عليهم وأطمعه فيهم ما نقل اليه من شدة عطشهم وكثرة من يموت منهم فلما يئسوا مما عنده سُمع لهم في بعض الليالي لغط عظيم وجلبة أصوات وذلك انهم أخرجوا أناجيلهم واجتمع

قسيسوهم ورهبانهم يدعون ويؤمن باقيهم فجاء مطر عظيم كأفواه القرب
ملا ما كان عندهم من الصهاريج وشربوا وارتووا وتقووا على المسلمين
فانصرف عنهم أمير المؤمنين راجعاً الى اشبيلية بعد أن هادن الادفنش
لعنه الله مدة سبع سنين ولم يزل أمير المؤمنين مقيما بالاندلس بقية سنة
سبع وثمان وتسع الي أن رجع الى مراكش فى آخر سنة ٥٦٩ وقد
ملك الجزيرة بأسرها ودانت له بجملتها ولم يخرج عن طاعته شئ منها
وفى سنة ٧١ خرج الي سوس لحسم خلاف وقع هنالك بين بعض القبائل
الذين بدرن فتم له ما أراد من اخماد الفتنة وجمع الكلمة واطفاء النائرة
وحسم الخلاف وفي صدر سنة ٧٣ رام بعض القبيلة المسماة بغمارة
مفارقة الجماعة وحسم اليد من الطاعة وكان رأسهم فى ذلك الذى اليه
يرجعون وعميدهم الذى عليه يعولون رجل اسمه سبع بن حيان ووافقه
على ذلك أخ له يسمى مرزدغ فدعوا الى الفتنة واجتمع عليهما خلق
كثير والقبيلة المذكورة لا يكاد يحصرها عدد ولا يحدها حزر لكثرتها
مسافة بلادها طولا وعرضاً نحو من اثنى عشرة مرحلة فخرج اليهم
أمير المؤمنين أبو يعقوب بنفسه فاسلمهما جموعهما وتفرق عنهما من كان
اجتمع عليهما وأخذا قبض اليد فقتلا صبراً وصلبا ثم رجع أمير المؤمنين
أبو يعقوب الي مراكش .

وفي أول سنة ٧٥ خرج ابو يعقوب من مراكش قاصداً بلاد افريقية
فقصد منها مدينة قفصة وكان قد قام بها رجل اسمه على يعرف بابن
الرند وتلقب بالناصر لدين النبي فحصره أبو يعقوب والموحدون الى أن
استنزلوه وقطعوا دابر الخلاف وحسموا موادّه ورجعوا الى مراكش
وفى هذه السفرة صالحه ملك صقليه وأرسل اليه بالاتاوة بعد أن خافه

خوفا شديداً فقبل منه ما وجه به اليه وهادنه على أن يحمل اليه فى كل
سنة مالا اتفقا عليه وبلغنى انه اتصلت اليه منه ذخائر لم يكن عند ملك مثلها
مما اشتهر منها حجر ياقوت يسمى الحافر جعلوه فيما كللوا به المصحف
لا قيمة له على قدر استدارة حافر الفرس هو في المصحف الى اليوم
مع أحجار نفيسة وهذا المصحف الذى ذكرناه وقع اليهم من نسخ
عثمان رضى الله عنه من خزائن بني أمية يحملونه بين أيديهم أنى توجهوا
على ناقة حمراء عليها من الحلى النفيس وثياب الديباج الفاخرة مايعدل
أموالا طائلة وقد جعلوا تحته بردعة من الديباج الاخضر يجعلونه عليها
وعن يمينه ويساره عصيان عليهما لوا آن أخضران وموضع الاسنة منهما
ذهب شبه تفاحتين وخلف الناقة بغل محلى أيضاً عليه مصحف آخر
يقال انه بخط ابن تومرت دون مصحف عثمان في الجرم محلى بفضة
مموهة بالذهب هـذا كله بين يدى الخليفة منهم ورجع أمير المؤمنين
ابو يعقوب الى مراكش من افريقية بعد أن لم يبق بجميع المغرب
مختلف عليهم ولا معاند لهم ودانت له جزيرة الاندلس بأسرها كما ذكرنا
وكثرت في أيامه الاموال واتسع الخراج وكان كما ذكرنا سخياً جواداً
بلغنى انه اعطي هلال بن محمد بن سعد المتقدم الذكر صاحب شرقي
الاندلس اثنى عشر ألف دينار في يوم واحد وهلال هذا معه أخبار
عجيبة من تقريبه اياه واحسانه اليه وحبه له أخبرنى بعض ولد هلال
هذا انه سمع أباه يقول رأيت فى المنام فى بعض الليالى كأن أمير المؤمنين
ابو يعقوب ناولنى مفتاحا فلما أصبحت اذا رسوله يستحثنى فركبت
وأتيت القصر فدخلت عليه وسلمت فاستدناني حتي مست ثيابي ثيابه ثم
أخرج إلي من تحت برنسه مفتاحا على النحو الذي رأيت في المنام وقال

خذ اليك هذا المفتاح فتهيبت أن أسأل عن شأن المفتاح فقال لي ابتداء يا أبا القمر ان عامل مرسية أرسل الينا في جملة ما أرسل صندوقا وجده زعم في بعض خزائنكم لا يدرى ما فيه وهذا مفتاحه ونحن لا ندرى ما فيه فقلت هلا أمر أمير المؤمنين ان يفتح بين يديه فقال لو أردنا أن يفتح بين أيدينا لم نسلم اليك المفتاح وأمر بحمل الصندوق إلي ففتحته فاذا فيه حلي وذخائر من ذخائر أبي ما يساوي أكثر من أربعين ألف دينار ولما تجهز أمير المؤمنين الى غزو الروم أمر العلماء أن يجمعوا أحاديث في الجهاد تملى على الموحدين ليدرسوها وهكذا جرت عادتهم الى اليوم فجمع العلماء ذلك وجاؤا به اليه فكان يمليه على الناس بنفسه فكان كل واحد من الموحدين والسادة يجيء بلوح يكتب فيه الاملاء فجاء هلال هذا المذكور يوما ولا لوح معه فأخرج القوم ألواحهم فقال له الوزير اين لوحك يا أبا القمر فخجل وافتتح يعتذر فاخرج له أمير المؤمنين من تحت برنسه لوحا وناوله اياه وقال هذا لوحه فلما كان من الغد جاء ومعه لوح غير الذى دفعه له أمير المؤمنين فلما نظر اليه قال له أين لوحك بالامس يا أبا القمر فقال خبأته وأوصيت اذا مت ان يجعل بين جلدى وكفنى واتبع ذلك بكاء حتى أبكي بعض من كان فى المجلس فقال أمير المؤمنين هذا المحب الصادق وأمر له بخيل وأموال وخلع ولبنيه بمثل ذلك وكان الذى يسهل عليه بذل الاموال مع ما جبل عليه من ذلك سعة الخراج وكثرة الوجوه التي يتحصل منها الاموال كان يرتفع اليه خراج افريقية وجملته فى كل سنة وقر مائة وخمسين بغلا هذا من افريقية وحدها خلا بجاية واعمالها وتلمسان وأعمالها والمغرب وحد عمل المغرب عندهم الذين يطلقون عليه هذا الاسم من مدينة تدعى رباط

تازا الى مدينة تدعى مكناسة الزيتون طول هذه المسافة وعرضها نحو من سبعة مراحل وهي اخصب رقعة على الارض فيما علمت وأكثرها أنهاراً مطردة وأشجاراً ملتفة وزروعا وأعنابا ومدينة سلا وأعمالها وسبتة وأعمالها وأعمال سبتة هذه في غاية السعة والضخامة لان بلاد غمارة كلها ترجع اليها وهي كما ذكرنا طولا وعرضاً نحو من اثنتى عشرة مرحلة وجزيرة الاندلس قاطبة أول ذلك آخر بلاد المسلمين مما يتاخم أرض الروم وآخره أيضاً مما يتاخم أرض الروم من أعمال شلب ومسافة ذلك طولا وعرضا نحو من أربع وعشرين مرحلة هذا كله لا ينازعه اياه أحد ولا يمتنع عليه منه درهم مضافا الى مراكش وأعمالها وأعمال مراكش أيضا فى نهاية من السعة لان بالقرب منها قبائل ضخمة وبلاداً كثيرة فلم يرتفع للملك من الملوك اعنى ملوك المغرب قبل أبي يعقوب هذا وبعده ما ارتفع اليه من الاموال وقد بلغنى من جهة رجل من أصحابنا كان يتولى بيوت الاموال قال لى وجدت خرائط كثيرة مما كان يرتفع الى أمير المؤمنين ابى يعقوب بختمها قال لى هذا القول فى غرة سنة ٦١١ وفى أيام أبى يعقوب ورد علينا المغرب أول من وردها من الغز وذلك فى آخر سنة ٧٤ وما زالوا يكثرون عندنا الى آخر أيام أبي يوسف ولم تزل أيام أبى يعقوب هذا أعياداً وأعراساً ومواسم كثرة خصب وانتشار امن ودرور أرزاق واتساع معايش لم ير أهل المغرب أياماً قط مثلها واستمر هذا صدراً من امارة أبى يوسف

ولما كانت سنة ٧٩ تجهز ابو يعقوب للغزو واستنفر أهل السهول والجبال من المصامدة والعرب وغيرهم وخرج بجيوشه قاصداً جزيرة الاندلس فعبر البحر بعساكره كما ذكرنا وقصد مدينة اشبيلية على

عادته اذ هي منزله ومنزل الامراء من بنيه بالاندلس أيام كونهم بها فاقام بها ريث ما أصلح الناس شؤنهم وأخذوا أهبتهم ثم خرج يقصد مدينة شنترين أعادها الله للمسلمين وهذه المدينة أعني شنترين بغرب الاندلس وهي من أمنع المدائن وقد تقدم ذكرها في أخبار الدولة اللمتونية يملكها وجهاتها مع بلاد كثيرة هنالك ملك من ملوك النصارى يعرف بابن الريق لعنه الله فخرج أمير المؤمنين كما ذكرنا في جيوشه حتى نزل عليها فضايقها وأخذ في قطع ثمارها وافساد زروعها وشن الغارات على نواحيها وكان بن الريق لعنه الله حين سمع بحركة ابي يعقوب اليه وصح عنده انه يقصده نظر في أمره فلم ير له طاقة بدفاعه ولا نهضة لمقاومته فلم يكن له هم الا ان جمع وجوه دولته وأعيان جنده وذوي الغناء من قواده وسائر اتباعه ودخل بهم مدينة شنترين واثقا بحصانته وشدة منعتها هذا بعد ان ملأها أقواتاً وسلاحا وجميع مايحتاج اليه وجلل اسوارها مقاتلة معهم الدرق والقسي والحراب الى غير ذلك مما يحتاج اليه فنزل عليها ابو يعقوب فالفاها كما ذكرنا قد استعد اهلها بكل مايظنونه نافعا لهم ودافعا عنهم وهذه المدينة على نهر عظيم من انهار الاندلس المشهورة يسمى تاجوا فبالغ أبو يعقوب كما ذكرنا في التضييق عليها وانتساف معايشها وقطع المواد والمدد عنها فما زاد ذلك أهلها الا صرامة وشدة وجلدا فخاف المسلمون هجوم البرد وكان في آخر فصل الخريف وخافوا ان يعظم النهر فلا يستطيعوا عبوره وينقطع عنهم المدد فأشاروا على أمير المؤمنين بالرجوع الى اشبيلية فاذا كان وجه الزمان عادوا اليها أو بعث من يتسلمها وصوروا له انها في يده لا يمنعه منها مانع فقبل ذلك منهم ووافقهم عليه وقال نحن راحلون غداً ان شاء الله ولم ينتشر هذا

القول كل الانتشار لانه كان قاله فى مجلس الخاصة فكان أول من قوض خباءه واظهر الاخذ فى أهبة الرحيل ابو الحسن على بن عبد الله بن عبد الرحمن المعروف عندهم بالمالقى وقد تقدم ذكر ابيه فى قضاة عبد المؤمن وكان ابو الحسن هذا خطيبهم ومعتبراً عنـدهم يدعى خطيب الخلافة وكان له حظ جيد من الفقه ومعرفة الحديث وقسم وافر من قرض الشعر وصناعة الكتابة فلما رآه الناس قوض خبـاءه قوضوا أخبيتهم ثقة به لمكانه من الدولة ومعرفته بأخبارها فعبر فى تلك العشية أكثر العسكر النهر يريدون التقدم خشية الزحام وحرصاً على أخذ جيد المواضع واختيار المنازل ولم يبق الا من كان بقرب خباء أمير المؤمنين وبات الناس يعبرون الليل كله وأمير المؤمنين لا علم له بذلك فلما رأى الروم عبور العساكر وبلغهم من جهة عيونهم الذين بالعسكر ما عزم عليه ابو يعقوب والمسلمون من الرحيل ورأوا انفضاض الاجناد وافتراق أكثر الجموع خرجوا منتهزين للفرصة التى أمكنتهم فى خيل كثيفة فحملوا على من يليهم من الناس فانهزموا أمامهم حتى بلغوا الخباء الذى فيه أمير المؤمنين ابو يعقوب فقتل على باب الخباء من اعيان الجند خلق كثير أكثرهم من أعيان الاندلس وخلص الى أبى يعقوب فطعن تحت سرته طعنة مات منها بعد أيام يسيرة وتدارك الناس فانهزم الروم راجعين الى بلدهم بعد أن قضوا ما قضوا وعـبر بأمير المؤمنين النهر جريحاً فجعل فى محفة وسير به وسأل أمير المؤمنين من كان السبب فى حركة الناس على هذا الوجه المؤدى الى هذا الاختلال فأخبر بما فعله ابو الحسن المالقى فقال يتوعده سيجنى ثمرتها ان شاء الله فلما بلغه ذلك هرب حتى دخل مدينة شنترين فاراً بنفسه على ملك الروم ابن الريق فأحسن

نزله وأكرم مثواه وأجري عليه رزقا واسعاً ولم يزل عنده مكرما الي أن
بدا له من سوء رأيه ان يكتب كتابا الى الموحدين يستعطفهم ويسأل من
عرفه من أعيانهم الشفاعة له وأدرج في ضمن ذلك فصلا يذكر فيه ضعف
المدينة وانهم لو كانوا أقاموا عليها ليلة أخرى أخذوها ويدلهم على بعض
عوراتها مما كان خفي عنهم وقال لملك الروم ابن الريق اني أحب أن
أكتب كتابا الي عيالي وأولادي وأخبرهم بسلامتي وأعلمهما كرام الملك
اياي واحسانه إلي وما أنا فيه من العافية حتي تطمئن نفوسهم وأريد أن
توجه مع الذي يحمله من يخفره الى أول بلاد المسلمين فاذن له في ذلك
وأجابه اليه فكتب الكتاب وكان العلج الموكل به الذي يقوم عليه ويأتيه
بكل ما يحتاج اليه يعرف لسان العرب الا أنه لم يكن يتكلم به ويقرأ الخط
العربي فقام أبو الحسن المذكور لبعض حوائجه وترك الكتاب منشوراً
ولم يخطر له ان العلج يعرف شيئاً من لسان العرب ولا يقرأ الخط العربي
فلمح العلج الكتاب لمحة ووقف على الفصل المذكور وفهم مقصوده فمضى
حتي دخل على الملك وأخبره الخبر وختم ابو الحسن الكتاب ودفعه الي
بعض عبيده فلما خرج العبد بالكتاب وفصل عن المدينة بنحو من مرحلة
أمر بالقبض عليه هناك وأخذ الكتاب منه فلما أتى بالكتاب فتحه وجمع
المسلمين الذين بالمدينة والقى اليهم الكتاب وأمرهم بقراءة ذلك الفصل المذكور
واستحضر أبا الحسن وقال لترجمانه قل له ما حملك على ما صنعت مع اكرامي
لك وبري بك فكان من جوابه ان قال ان برك بي واكرامك اياي لا يمنعاني
من النصح لأهل ديني والدلالة لهم على ما فيه مصلحتهم فشاور ابن الريق
لعنه الله قسيسيه في أمره فاشاروا عليه باحراقه فأحرقه وأما ما كان من
أمر أمير المؤمنين ابي يعقوب فانهم لما عبروا به النهر كما ذكرنا أثقله الجرح

واشتد عليه فما ساروا به الا ليلتين أو ثلاثا حتى مات رحمه الله فاخبرني من
كان معهم فى تلك السفرة انه سمع النداء فيما بين العشاءين فى العسكر
كله الصلاة على الجنازة جنازة رجل فصلى الناس قاطبة على الجنازة
لا يعرفون على من صلوا ولم يعلم بذلك الا خواص أهل الدولة وساروا
به حتى بلغوا اشبيلية فنزلوها فصبروه وبعثوا به فى تابوت مع كافور
الحاجب مولاه المتقدم الذكر الى تينملل فدفن هناك مع أبيه عبد المؤمن
وابن تومرت وكانت وفاته يوم السبت قبيل غروب الشمس لسبع خلون
من رجب الفرد سنة ٥٨٠ اخبرنى ابنه ابو زكريا يحيى رحمة الله عليه
انه كان قبل موته بأشهر يسيرة كثيراً ما يردد هذا البيت

طوى الجديدان ماقد كنت أنشره   وأنكرتنى ذوات الأعين النجل

﴿ ذكر ولاية أبي يوسف يعقوب بن يوسف ﴾

(ابن عبد المؤمن)

هو يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن بن على كما ذكرنا يكنى
أبا يوسف أمه أم ولد رومية اسمها ساحر بويع له في حياة أبيه بامره
بذلك وكانت سنه يوم صار اليه الامر اثنتين وثلاثين سنة فكانت مدة ولايته
منذ وفاة أبيه إلى أن توفى فى شهر صفر الكائن فى سنة ٥٩٥ ست عشرة
سنة وثمانية أشهر وأياما وتوفى وله من العمر ثمان وأربعون سنة
وقد وخطه الشيب

(صفته) كان صافى السمرة جداً الى الطول ماهو جميل الوجه

أعين افوه أقني شديد الكحل مستدير اللحية ضخم الاعضاء جهوري الصوت جزل الالفاظ أصدق الناس لهجة واحسنهم حديثا واكثرهم اصابة بالظن كان لا يكاد يظن شيئاً إلا وقع كما ظن مجربا للامور عارفا باصول الشر والخير وفروعهما ولي الوزارة أيام أبيه فبحث عن الامور بحثاً شافياً وطالع أحوال العمال والولاة والقضاة وسائر من ترجع اليه الامور مطالعة أفادته معرفة جزئيات الامور فدبرها بحسب ذلك فجرت أموره على قريب من الاستقامة والسداد حسب مايقتضيه الزمان والاقاليم

(أولاده) كان له من الولد محمد ولي عهده وسيأتي ذكر مولده ووفاته وابراهيم وعبد الله وعبد العزيز وابو بكر وزكريا وإدريس وعيسي وموسى وصالح وعثمان ويونس وسعد ومساعد والحسن والحسين هؤلاء أولاده المخلفون بعده ومات له في حياته عدة من الولد وله بنات فيهن كثرة

(وزراؤه) ابو حفص عمر بن ابي زيد الهنتاتي إلى أن مات ثم وزر له بعده أبو بكر بن عبد الله بن أبي حفص عمر اينتي المتقدم الذكر واستمرت وزارة أبي يحيي هذا الي أن استشهد رحمه الله ببلاد الروم على ما سيأتي بيانه إن شاء الله فاضطرب أمر الوزاة قليلاً ثم وقع اختيارهم على أبي عبدالله محمد بن أبي بكر ابن الشيخ ابي حفص المتقدم الذكر وابو عبد الله هذا هو الملقب عندهم بالفيل هو ابن عم الوزير الشهيد المذكور آنفاً فوزر ابو عبد الله هذا أياما يسيرة ثم ترك الوزارة مختارا وهرب الي بعض نواحي اشبيلية فخلع ثيابه ولبس عباءة وتزهد فأرسلوا اليه من رده وأعفوه من الوزارة ثم وزر له ابو زيد عبد الرحمن ابن موسى بن يوجان الهنتاتي فلم يزل عبد الرحمن هذا وزيراً الي أن مات

ابو يوسف وصدرا من امارة ابنه ابى عبد الله ثم عزل عن الوزارة

﴿ حجابه ﴾ عنبر الخصى مولاه ثم ريحان الخصي مولاه أيضاً الى أن مات وحجب ابنه ابا عبد الله فلم يزل حاجباً له الى أن مات ريحان المذكور

﴿ كتابه ﴾ ابو الفضل جعفر المعروف بابن محشوة كان من كتاب أبيه حسب ما تقدم جمع أبو الفضل هذا الى براعة الكتابة سعة الرواية وغزارة الحفظ وذكاء النفس لم يزل كاتباً له الى أن توفي أعني ابا الفضل فكتب له بعده أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن عياش من أهل برشانة من أعمال المرية من بلاد الأندلس لم يزل ابو عبد الله هذا كاتبا له ولابنه محمد ولابن ابنه يوسف تركته حيا حين ارتحلت عن البلاد سنة ٦١٤ ثم اتصلت بي وفاته في شهور سنة ٦١٩ وأنا يومئذ بالبلاد المصريه هذان الكاتبان اللذان ذكرناهما كاتبا الانشا خاصة وكتاب الجيش رجل يعرف بالكباشي ذهب عني اسمه كان يكتب الجيش وقد كان يكتب قبله ابو الحسن بن مغن استمرت كتابة الكباشي هذا ديوان الجيش الى ان مات أمير المؤمنين ابو يوسف ولم يكتب لهم منذ قام امرهم اعنى من كتبة الانشا من عرف طريقتهم وصب فى في قالبهم وجرى على مهيعهم وأصاب ما في أنفسهم كأبي عبد الله بن عياش هذا فأن القوم لهم طريقة تخالف طريقة الكتاب ثم جرى الكتاب بعده على أسلوبه وسلكوا مسلكه لما رأوا من استحسانهم لتلك الطريقة

﴿ قضاته ﴾ ابو جعفر احمد بن مضاء المتقدم الذكر الى أن مات وولى بعده ابو عبد الله محمد بن مروان من أهل مدينة وهران ثم

غزله وولى بعده أبا القاسم احمد بن محمد رجلا من ولد بقى بن مخلد الفقيه المحدث الذى يروى عن احمد بن حنبل وقد تقدم ذكر بقى هذا وطرف من أخباره فى صدر الدولة الاموية فى أخبار الامير محمد ابن عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبدالرحمن بن معاوية الداخل بالاندلس لم يزل ابو القاسم هذا قاضياً الى أن توفى أمير المؤمنين ابو يوسف وشيئا من أيام ابنه محمد

﴿ تلخيص التعريف بخبر بيعته ﴾

ولما مات ابو يعقوب كما ذكرنا على مراحل من مدينة شنترين سترت وفاته الى أن بلغوا اشبيلية وهم فى كل يوم يصبحون يمشون بين يدي الدابة التى عليها المحفة مشاة على أرجلهم كما جرت العادة ثم يركبون والمحفة مسدول عليها ستر أخضر الى أن بلغوا اشبيلية كما ذكرنا فخرج الاذن من أمير المؤمنين ابى يعقوب زعموا بتجديد البيعة لابنه ابى يوسف فبايعه المصامدة والناس عامة من جميع الاصناف وكان الذى سعي فى بيعته وقام بها ورغب فيها وتولي كبر أمرها ابن عمه ابو زيد عبدالرحمن ابن عمر بن عبد المؤمن فتم له الامر وبايعه الناس يحسبون ذلك باذن أبيه فلما فرغ مما أراده من ذلك وتهيأ له أعلن وفاة أبيه عند خواص الدولة ولم تجر عادتهم باعلان موت خلفائهم عند العامة الى هلم وكان له من أخوته وعمومته منافسون لا يرونه أهلا للامارة لما كانوا يعرفون من سوء صباه فلقى منهم شدة على ما سيأتى بيانه وكانت هذه البيعة العامة كما ذكرنا في سنة ٥٨٠ ولما استوثق أمره على ما تقدم عبر البحر بعساكره وسار حتي نزل مدينة سلا وبها تمت بيعته واستجاب له من كان تلكأ عليه من أعمامه من ولد عبد المؤمن بعد ما ملأ أيديهم أموالا

واقطعهم الاقطاع الواسعة ثم شرع فى بنيان المدينة العظمى التى على ساحل البحر والنهر من العدوة التى تلى مراكش وكان ابو يعقوب رحمه الله هو الذي اختطها ورسم حدودها وابتدأ فى بنيانها ففاقه الموت المحتوم عن إتمامها فشرع ابو يوسف كما ذكرنا في بنيانها الى أن أتم سورها وبنى فيها مسجداً عظيما كبير المساحة واسع الفناء جداً لا أعلم فى مساجد المغرب أكبر منه وعمل له مأذنة فى نهاية العلو على هيئة منار الاسكندرية يُصعد فيه بغير درج تصعد الدواب بالطين والآجر والجص وجميع مايحتاج اليه الى أعلاها ولم يتم هذا المسجد الى اليوم لان العمل ارتفع عنه بموت أبي يوسف ولم يعمل فيه محمد ولا يوسف شيئا وأما المدينة فتمت في حياة أبي يوسف وكملت أسوارها وأبوابها وعمر كثير منها وهي مدينة كبيرة جداً منها تجيء في طولها نحواً من فرسخ وهي قليلة العرض ثم خرج بعد أن رتب أشغال هذه المدينة وجعل عليها من أمناء المصامدة من ينظر فى أمر نفقاتها وما يصلحها فلم يزل العمل فيها وفي مسجدها المذكور طول مدة ولايته الى سنة ٥٩٤ وسار هو حتى نزل مراكش

وفى هذه السنة أعنى سنة ٥٨٠ خرج الميرقيون بنو ابن غانية من جزيرة ميرقة قاصدين مدينة بجاية فملكوها وأخرجوا من بها من الموحدين وذلك لست خلون من شعبان من السنة المذكورة وهذا أول اختلال وقع فى دولة المصامدة لم يزل أثره باقيا إلى وقتنا هذا وهو سنة ٦٢١ وتلخيص خبر هؤلاء القوم اعني بني بن غانية إن أمير المسلمين على بن يوسف بن تاشفين وجه إلى الاندلس برجلين إسم أحدهما يحيي والاخر محمد ابنى علي من قبيلة مسوفة يعرفان بابنى غانية وهى أمهما فاما يحيي

منهما وهو الاكبر فكان حسنة من حسنات الدهر اجتمع له من المناقب ما افترق فى كثير من الناس فمنها انه كان رجلاً صالحاً شديد الخوف لله عز وجل والتعظيم له والاحترام للصالحين هذا مع علو قدم فى الفقه واتساع رواية للحديث وكان مع هذا شجاعا فارساً اذا ركب عدو وحده بخمسمائة فارس وكان على بن يوسف يعده للعظائم ويستدفع به المهمات وأصلح الله على يديه كثيراً من جزيرة الاندلس ودفع به عن المسلمين غير مرة مكاره قد كانت نزلت بهم كان أمير المسلمين ولاه مدينة بلنسية ثم عزله عنها وولاه قرطبة فلم يزل بها واليا الى أن مات رحمة الله عليه أول الفتنة الكائنة على المرابطين لا أعلم له عقباً وكان أخوه محمد واليا من قبله على بعض أعمال قرطبة فلما مات اضطرب أمر محمد هذا وبقى يجول فى بلاد الاندلس والفتنة تتزايد ودعوة المصامدة تنتشر فلما اشتد خوف محمد هذا أتي مدينة دانية فعبر منها الى جزيرة ميرقة فى حشمه وأهل بيته فملكها والجزيرتين اللتين حولها منرقة ويابسة ويقال ان أمير المسلمين على بن يوسف نفاه اليها على طريق السجن بها فالله أعلم وهذه الجزيرة أعنى ميرقة أخصب الجزر أرضاً وأعدلها هواء وأصفاها جواً طولها وعرضها نحو من ثلاثين فرسخاً اتفق أهلها على أنهم لم يروا فيها شيئاً من الهوام المؤذية قط منذ عمرت من ذئب أو سبع أو حية أو عقرب الى غير ذلك مما يخشى ضرره ويجاورها بالقرب منها جزيرتان تقربان منها فى الخصب تسمى احداهما منرقة والأخرى يابسة وقد تقدم ذكرهما فاستقل محمد بمملكة هذه الجزر وضبطها لنفسه وأقام فيها جاريا على أمر لمتونة الاول يدعو لبنى العباس وكان له من الولد عبد الله واسحاق والزبير وطلحة وبنات فعهد فى حياته الى أكبر ولده

عبد الله فنفس ذلك عليه اخوه اسحاق ودخل عليه فى جماعة من الجند وعبيد له فقتله قيل فى حياة أبيه وقيل بعد وفاته وتوفي عبد الله المذكور واستقل ابو ابراهيم بالملك استقلالا حسنا وحسنت حاله وكثر الداخلون عليه بجزيرة ميرقة من فل لمتونة وبقاياهم فكان يحسن اليهم ويصلهم حسب طاقته وأقبل على الغزو وصرف عنايته اليه فلم يكن له هم غيره فكان له فى كل سنة سفرتان الى بلاد الروم يغنم ويسبى وينكي فى العدو أشد نكاية الى أن امتلأت أيدى أصحابه أموالا فقوى بذلك أمره وتشبه بالملوك ولم يزل هذه حاله ان أن توفي فى سنة ٧٩ فى أولها وفى آخر أيام أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن وكان يراسل الموحدين ويهاديهم ويهادنهم ويختصهم من كل ما يسبي ويغنم بنفيسه وجيده يشغلهم بذلك عنه مع احتقارهم لأمر تلك الجزيرة وقلة التفاتهم اليها فلما كان في شهور سنة ٥٧٨ والوا اليه الكتب يدعونه الى الدخول فى طاعتهم والدعاء لهم على المنابر ويتوعدونه على ترك ذلك فوعدهم ذلك واستشار وجوه أصحابه فاختلفوا عليه فمن مشير عليه بالامتناع بمكانه وخاض له على الدخول فيما دعوه اليه فلما رأى اختلافهم أرجأ الامر الى أن ينظر وخرج الى بلاد الروم غازيا فاستشهد رحمه الله هناك وقيل انه طعن طعنة فى حلقه لم يمت منها مكانه وانما جيء به حيا حتي أدخل قصره فمات فيه فالله أعلم وكان له من الولد على وهو أكبر ولده والقائم بأمره من بعده ويحيي وأبو بكر وسير وتاشفين ومحمد والمنصور وابراهيم توفى ابراهيم هذا بدمشق حين كان نازلا بها على السلطان الملك العادل ولما توفى أبو ابراهيم اسحق بن محمد المذكور قام بالامر من بعده ابنه على بعهد أبيه اليه وخرج بأسطول ميرقة الى العدوة وقصد مدينة

بجاية حين راسله جماعة من أعيانها على ما يقال يدعونه الى أن يملكوه ولولا ذلك لم يجسر على الخروج ومما جرأه أيضا كون الموحدين بالاندلس وسماعه خبر موت أبي يعقوب واشتغالهم ببيعة أبي يوسف وظن ان الامر سيضطرب وان الخلاف سينشأ فكان هذا أيضا مما أعانه على الخروج ولولا هذه الاسباب التي ذكرنا لم يجسر على الخروج فقصد ساحل بجاية فنزل به فقاتله أهلها قتالا غير كثير ثم دخلها وكان دخوله اياها كما ذكرنا يوم الاثنين لست خلون من شعبان من السنة المذكورة وكان فيها اذ دخلها أبو موسى عيسى بن عبد المؤمن لم يكن واليا عليها وانما كان الوالي عليها أبو الربيع سليمان بن عبد الله بن عبد المؤمن وكان أبو موسي ماراً بها حين رجع من افريقية وكان واليا عليها هو وأخوه الحسن من قبل أخيهما أبي يعقوب فظهر من العرب افساد ببعض نواحي افريقية فخرج أبو موسى هذا وأخوه أبو علي بجيش من المصامدة ومن انضاف اليهم من العرب وسائر الجند فالتقوا هم وأولئك العرب المفسدون فانهزم جند افريقية عنهما وأخذتهما العرب أسيرين فاقاما عندهم وانتهي الخبر الي أبي يعقوب فأرسل الى أولئك العرب فطلبوا مالا اشتطوا فيه غاية الاشتطاط ثم ان الامر تقرر بينهم وبين الموحدين على ستة وثلاثين ألف مثقال فلما أخبر بذلك أبو يعقوب استكثر المال وقال هذه أيضا مضرة أخري ان أعطيناهم مثل هذا المال تقووا به على ما يريدونه من الفساد ثم اتفق رأيهم على أن يضربوا لهم دنانير من الصفر مموهة ففعلوا ذلك وأرسلوا بها اليهم فأطلقوا أبا علي وأبا موسي ومن كان معهما من خدمهما وحاشيتهما فهذا ما أوجب كون أبي موسي ببجاية فخرج من أسر العرب الى أسر الميرقيين

فدخل على بن اسحق كما ذكرنا بجاية فى اليوم المؤرخ وأقام بها سبعة
أيام صلى فيها الجمعة فخطب ودعا لبنى العباس ثم للامام أبى العباس أحمد
الناصر منهم وكان خطيبه الفقيه الامام المحدث المتقن ابو محمد عبد الحق
ابن عبد الرحمن الازدي الاشبيلى مؤلف كتاب الاحكام وغيره من
التآليف فأحنق ذلك عليه أبا يوسف يعقوب أمير المؤمنين ورام سفك
دمه فعصمه الله منه وتوفاه حتف أنفه وفوق فراشه وخرج على بن
اسحق من بجاية بعد أن أسس أموره فيها وصار حتى نزل على قلعة
بنى حماد فملكها وملك جميع تلك النواحي فانتهى ذلك الى أمير المؤمنين
يعقوب فخرج بالموحدين قاصداً مدينة بجاية فلما سمع علي بقدومه خرج
له عنها وقصد بلاد الجريد ونزل أمير المؤمنين بالقرب من بجاية فتلقاه
أهلها فلقيهم منشرح الصدر ظاهر البشر وقال لهم من القول ما بسط به
نفوسهم ورد اليهم نافر أنسهم وقد كانوا يظنون غير ذلك فخرجوا من
عنده متعجبين مما رأوا منه وسمعوا واستعمل على بجاية من أعيان
الموحدين رجلا اسمه محمد بن أبى سعيد الجنفيسي ثم سار حتى نزل
مدينة تونس فجهز جيشا عظيما أمّر عليهم رجلا من ولد عمر بن عبد
المؤمن اسمه يعقوب وذلك لما كانوا يرونه فى ملحمة كانت عندهم
من أنهم سيهزمون مع رجل اسمه يعقوب بموضع يعرف بوطا عمره
فسار يعقوب هذا بالجيش المذكور وأقام هو في تونس فكانت الهزيمة
على يعقوب بن عمر كما ذكر وذلك ان الموحدين التقوا هم وأصحاب
على بن غانية فانهزم الموحدون انهزاما قبيحا واتبعهم العرب والبربر
يقتلونهم في كل وجه وهلك أكثرهم عطشا ورجع بقيتهم الى تونس
حيث أمير المؤمنين فلمّ شعثهم وجبر ما وهي من أحوالهم وخرج هو

بنفسه حتى لقي على بن غانية بموضع يعرف بالحامة حامة دقيوس فما
وقف أصحاب على الا يسيرا حتى انكشفوا عنه وأبلى هو عذرا فأثخن
جراحا وخرج فارا بنفسه فمات في خيمة لعجوز اعرابية وكان حين
خرج من ميرقة خرج معه من اخوته عبد الله ويحيي وأبو بكر وسير
فبقي هؤلاء المذكورين بعد موت أخيهم على من كان معهم من أصحابهم
ثم رأوا أن يقدموا عليهم يحيي لما رأوا من شهامته وشجاعة نفسه
فقدموه ثم لحقوا بالصحراء فكانوا بها مع العرب الكائنين هنالك الى
أن رجع أمير المؤمنين من هذا الوجه وفي هذه السفرة انتقضت عليهم
أيضا مدينة قفصة ونزع أهلها أيديهم من طاعتهم ودعوا للميرقيين فنزل
عليها أمير المؤمنين أبو يوسف فحاصرها أشد الحصار ثم دخلها عنوة
فقتل أهلها قتلا ذريعا بلغني انه قتل أكثرهم ذبحا وأمر بأسوارها
فهدت وفي ذلك يقول رجل من أصحابنا من الكتاب اسمه ابراهيم
يعرف عندنا بالزويلي في قصيدة طويلة له يمدح بها أمير المؤمنين أبا
يوسف ويذكر شان قفصة ورميهم اياها بحجارة المنجنيق

سائل بقفصة هل كان الشقي لها بعلا وكانت له حمالة الحطب
تبت يدا كافر بالله أهلها فكان كالكافر الاشقى أبي لهب

وفيها يقول

لما زنت وهي تحت الامر محصنة حصبتموها اتباع الشرع بالحصب.

أنشدني رحمه الله هذه القصيدة بلفظه من أولها الى آخرها فلما
انتهى الى هذا البيت لما زنت غلبني الضحك لما سبق الى خاطري
من سوء معناه فسترت وجهي وقال لي مالك فلم أملك ان قهقهت فتغير
لي فلما خفت غضبه أخبرته بما سبق الى خاطري فسبني وقال لي أنت

والله شيطان سيئ القريحة غالب على طباعك اللهو واستمر فى انشاده
حتى أتم القصيدة وأبو اسحق الزويلى هذا من شيوخ الكتاب وظرفاء
الشعراء جمعتنى واياه مجالس عند السيد الاجل أبى زكريا يحيي بن
يوسف بن عبد المؤمن شاهدت فيها من ظرفه وغزارة بديهته ماقضيت
منه العجب ولما فرغ أبو يوسف من أمر افريقية كر راجعا الى المغرب
ولم يزل يحيي بن غانية قائما بما كان يقوم به أخوه من تدبير الامور ورجع
منهم عبد الله خاصة الى جزيرة ميرقة فالفاها قد انتقضت عليهم ودعى
فيها للموحدين فعل ذلك أخوهم أبو عبد الله محمد بن اسحق فلما قدم
عبد الله قام معه علج من علوج أبيه يسمى نجاحا كان نجاح هذا لم ينقض
عهدا ولا نزع يدا من طاعة وكان متحصنا في قلعة ومعه جماعة على رايه
من الموالى والجند فلما قدم عبد الله كما ذكرنا تلقوه وانضاف اليهم
خلق من بوادى الجزيرة من الفلاحين ورعاة الغنم فنهد بهم عبد الله
الى المدينة فلم يدفعه عنها أحد ولا امتنع عليه من أهلها ممتنع ففتحوا
له الابواب ودخلها بمن معه وأخرج أخاه محمدا ونفاه الى الاندلس
فحظى محمد هذا عند المصامدة حظوة عظيمة وولوه مدينة دانية فلم
يزل واليا عليها حتى مات واستقر عبد الله بميرقة فضبط أمرها وجرى
فى الغزو واخافة العدو على سنن أبيه فلم يزل كذلك الى أن دخلها عليه
الموحدون فى سنة ٥٩٩ على ماسيأتي بيانه ان شاء الله ولم يزل أمر
يحيي بافريقية يتنبه تارة ويخمل أخرى وله أخبار يطول شرحها ويخرج
عن الغرض بسطها وحين كان أمير المؤمنين أبو يوسف غائبا فى هذا
الوجه الذى ذكرنا طمع في الامر أخوه أبو حفص عمر المتلقب بالرشيد
وعمه سليمان بن عبد المؤمن وكان أحدهما بشرقى الاندلس بمدينة مرسية

والآخر بتادلا من بلاد صنهاجة فأما أبو الربيع سليمان فسولت له نفسه وزين له سوء رأيه أن يجمع على نفسه قبائل صنهاجة ليقوموا بدعوته وصرح بذلك ودعا أشياخهم فالقى اليهم ماأراد فلم يتفق له من ذلك أكثر من أن تشعثت عليه البلاد وانتشرت عنه هذه الاشنوعة القبيحة وبلغ الخبر أمير المؤمنين وأما عمر فكان قد بدأ من ذلك بتنقص أمير المؤمنين أبي يوسف على رؤس الاشهاد تعريضا مرة وتصريحا تارة والقاء ذلك الى خواصه ليلقوه الى وجوه الاندلس وانتهى ان قتل قاضي مرسية وخطيبها المعروف بابن أبي جمرة قيل انه وكزه برئاس السيف في صدره وكزة مات منها بعد أيام فاستحثت هذه الاخبار أمير المؤمنين وأزعجته فعمل من بجاية الى فاس سبع عشرة مرحلة وهذا نهاية مايكون من سرعة السير لمثله فلما سمع بقدومه ابو الربيع سليمان وعمر المذكوران خرجا بالتقيانه فعبر عمر البحر وجاء سليمان بمن معه من تادلا للقائه أيضاً فأما عمر فلقيه بالقرب من مدينة مكناسة فلما رآه نزل عن دابته على العادة ليسلم عليه فلما قرب منه لم تدر بينهما كلمتان حتى أمر بالقبض عليه وتقييده وحمل بعد التقييد الى مدينة سلا ولقيه سليمان عمه ففعل به مثل ذلك وسار حتى نزل مدينه سلا وفصل عنها بعد أن وكل بهما من يقوم عليهما وأثقلهما بالحديد وسار حتى بلغ مراكش فكتب الى القيم عليهما بقتلهما وتكفينهما والصلاة عليهما ودفنهما فقتلهما صبراً ودفنهما وكتب يعلمه بذلك فبلغني انه قال له بنيت قبريهما بالكدان والرخام وجعل يذكر حسنهما فكتب اليه ما لنا ولدفن الجبابرة انما هما رجلان من المسلمين فادفنهما كيف يدفن عامة المسلمين وبعد قتله هذين الرجلين هابه بقية القرابة وأشربت قلوبهم خوفه بعد أن كانوا

متهاونين بأمره محتقرين له لاشياء كانت تظهر منه في صباه توجب ذلك وكان قتله هذين الرجلين فى سنة ٥٨٣ وأظهر بعد ذلك زهداً وتقشفاً وخشونة ملبس ومأكل وانتشر فى أيامه للصالحين والمتبتلين وأهل علم الحديث صيت وقامت لهم سوق وعظمت مكانتهم منه ومن الناس ولم يزل يستدعى الصالحين من البلاد ويكتب اليهم يسئلهم الدعاء ويصل من يقبل صلته منهم بالصلات الجزيلة وفى أيامه انقطع علم الفروع وخافه الفقهاء وأمر باحراق كتب المذهب بعد ان يجرد مافيها من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم والقرآن ففعل ذلك فأحرق منها جملة فى سائر البلاد كمدونة سحنون وكتاب ابن يونس ونوادر ابن أبي زيد ومختصره وكتاب التهذيب للبرادعى وواضحة ابن حبيب وماجانس هذه الكتب ونحا نحوها لقد شهدت منها وانا يومئذ بمدينة فاس يؤتى منها بالاحمال فتوضع ويطلق فيها النار وتقدم الى الناس فى ترك الاشتغال بعلم الرأى والخوض فى شئ منه وتوعد على ذلك بالعقوبة الشديدة وأمر جماعة ممن كان عنده من العلماء المحدثين بجمع أحاديث من المصنفات العشرة الصحيحين والترمذى والموطئ وسنن أبي داود وسنن النسائى وسنن البزار ومسند ابن أبي شيبة وسنن الدارقطنى وسنن البيهقى في الصلاة وما يتعلق بها على نحو الاحاديث التى جمعها محمد بن تومرت في الطهارة فأجابوه الي ذلك وجمعوا ماأمرهم بجمعه فكان يمليه بنفسه على الناس ويأخذهم بحفظه وانتشر هذا المجموع في جميع المغرب وحفظه الناس من العوام والخاصة فكان يجعل لمن حفظه الجعل السنى من الكسا والاموال وكان قصده فى الجملة محو مذهب مالك وازالته من المغرب مرة واحدة وحمل الناس على الظاهر من القرآن والحديث

وهذا المقصد بعينه كان مقصد أبيه وجده الا انهما لم يظهراه وأظهره يعقوب هذا يشهد لذلك عندي ما أخبرني غير واحد ممن لقى الحافظ أبا بكر بن الجد انه أخبرهم قال لما دخلت على أمير المؤمنين أبي يعقوب أول دخلة دخلتها عليه وجدت بين يديه كتاب ابن يونس فقال لى ياأبا بكر أنا أنظر فى هذه الاراء المتشعبة التى أحدثت فى دين الله أرأيت ياأبا بكر المسئلة فيها أربعة أقوال أو خمسة أقوال أو أكثر من هذا فى أي هذه الاقوال هو الحق وأيها يجب ان يأخذ به المقلد فافتتحت أبين له ما أشكل عليه من ذلك فقال لى وقطع كلامى ياأبا بكر ليس الاهذا وأشار الى المصحف أو هذا وأشار الى كتاب سنن أبى داود وكان عن يمينه أو السيف فظهر فى أيام يعقوب هذا ما خفى فى أيام أبيه وجده ونال عنده طلبة العلم أعنى علم الحديث مالم ينالوا في أيام أبيه وجده وانتهي أمره معهم الى ان قال يوما بحضرة كافة الموحدين يسمعهم وقد بلغه حسدهم للطلبة على موضعهم منه وتقريبه اياهم وخلوته بهم دونهم يامعشر الموحدين أنتم قبائل فمن نابه منكم أمر فزع الى قبيلته وهؤلاء يعني الطلبة لاقبيل لهم الا انا فمهما نابهم أمر فانا ملجأهم والى فزعهم والي ينتسبون فعظم منذ ذلك اليوم أمرهم وبالغ الموحدون فى برهم واكرامهم

ولما كان فى سنة ٥٨٥ قصد بطرو بن الزيق لعنه الله مدينة شلب من جزيرة الاندلس فنزل عليها بعساكره وأعانه من البحر الافرنج بالبطس والشوانى وكان وقد وجه اليهم يستدعيهم الى ان يعينوه على ان يجعل لهم سبي البلد وله هو المدينة خاصة ففعلوا ذلك ونزلوا عليها من البر والبحر فملكوها وسبوا أهلها وملك ابن الريق لعنه الله البلد

وتجهز أمير المؤمنين في جيوش عظيمة وسار حتي عبر البحر ولم يكن له هم الا مدينة شلب المذكورة فنزل عليها فلم تطق الروم دفاعه وخرجوا عنها وعن ماكانوا قد ملكوه من أعمالها ولم يكفه ذلك حتى أخذ حصنا من حصونهم عظيما يقال له طرش ورجع الى مراكش وبعد رجوعه مرض مرضا شديدا خيف عليه منه وكان قد ولى أخاه أبا يحيي الاندلس فجعل يتلكأ في خروجه ويبطيء تربصاً به وطمعا فى وفاته وكلما أفاق هو سأل هل عبر أبو يحيي أم لا فلما بلغ أبا يحيي استحثاثه اياه أسرع الي العبور وهو لايشك ان أول مايرد عليه خبر وفاته فاستمال أشياخ الجزيرة ودعاهم الى نفسه وقال ماتركت أمير المؤمنين الا هامة اليوم أوغد والبس لها غيرى فجعل أشياخ الجزيرة يحيل بعضهم على بعض وأهل بلد على أهل بلد حتي بلغ مرسية وكتبوا بذلك مساطير خوفا على أنفسهم وأفاق أمير المؤمنين من مرضه وأشار عليه الاطباء بالسفر فخرج قاصدا مدينة فاس يحمل في محفة على بغالين وبلغه أمر أبي يحيي المذكور وجاءته كتب أهل الاندلس والمساطير التى كتبوها ولما سمع أبو يحيي بحركته جاء معتذراً اليه حتي عبر البحر فلقيه بمدينة سلا فلما وقعت عينه عليه قال لمن عنده هذا الشقى قد جاء وأمر به فقيد ووجه الى أشياخ الاندلس فحضروا وأدوا شهاداتهم وأمر به فأحضر وقال انما أقتلك بقوله صلى الله عليه وسلم اذا بويع خليفتان بأرض فاقتلوا الآخر منهما وأمر به فضربت عنقه تولي قتله أخوه لابيه عبد الرحمن بن يوسف وذلك بمحضر من الناس وأمر به فكفن ودفن وأقبل على القرابة فنال منهم بلسانه وأخذ منهم أخذا شديداً وأمر باخراجهم علي أسوأ حال حفاة عراة الرؤس فخرجوا وكل واحد منهم لايشك انه مقتول ولم يزل أمر

القرابة من يومئذ في خمول وهلم وقد كانوا قبل ذلك لا فرق بين أحدهم وبين الخليفة سواء نفوذ العلامة فكان جملة من قتل يعقوب أخويه وعمه

ولما كان في سنة ٩٠ انتقض ما بينه وبين الادفنش لعنه الله من العهد فخرجت خيل الادفنش تدوس البلاد وتجوس خلالها الى ان كثر عيثها بالاندلس وتجهز أمير المؤمنين وأخذ في العبور فعبر البحر في جمادى الآخرة من سنة ٥٩١ بجموع عظيمة ونزل مدينة اشبيلية فلم يقم بها الا يسيرا ريثما اعترض الجند وقسم الاموال وخرج يقصد بلاد الروم وسمع الادفنش لعنه الله بقصده فتجهز هو أيضاً في جموع ضخمة والتقوا بموضع يعرف بفحص الجديد وكان الادفنش قد جمع جموعا لم يجتمع له مثلها قط فلما تراءى الجمعان اشتد خوف الموحدين وساءت ظنونهم لما رأوا من كثرة عدوهم وأمير المؤمنين في ذلك كله لامستند له الا الدعاء والاستعانة بكل من يظن عنده خيرا من الصالحين فلما كان يوم الاربعاء وهو الثالث من شعبان من هذه السنة المذكورة التقى المسلمون وعدوهم فأنزل الله على الموحدين نصره وأفرغ عليهم صبره ومنحهم اكتاف الروم وكانت الدائرة على الادفنش لعنه الله وأصحابه ولم ينج الا هو في نحو من ثلاثين من وجوه قواده واستشهد من المسلمين جماعة من أعيان الموحدين وغيرهم منهم الوزير أبو يحيي أبو بكر بن عبد الله بن الشيخ ابي حفص المتقدم الذكر في وزراء أبي يوسف وخرج أمير المؤمنين بنفسه حتى أتى قلعة رباح وقد انجلى عنها أهلها فدخلها وأمر بكنيستها فغيرت مسجدا فصلي فيها المسلمون واستولى على ما حول طليطلة من الحصون ثم رجع الى مدينة اشبيلية منصورا مفتوحا عليه وكانت هذه الهزيمة أختا لهزيمة الزلاقة المتقدم

ذكرها فى مدة يوسف بن تاشفين أمير المرابطين

وأقام أمير المؤمنين باشبيلية بقية سنة ٥٩١ وقصد بلاد الروم في السنة الثانية فنزل على مدينة طليطلة بعساكره فقطع أشجارها وانتسف معايشها وغور مياهها وأنكى في الروم أشد نكاية ثم عاد في السنة الثالثة أيضا وتوغل بلاد الروم ووصل الى مواضع لم يصل اليها ملك من ملوك المسلمين قط ورجع الي مدينة اشبيلية فارسل الادفنش اليه لعنه الله يسئله المهادنة فهادنه الي عشر سنين فعبر البحر بعد أن أصلح الجزيرة ورتب فيها من يقوم بحمايتها وقصد مدينة مراكش وذلك في سنة ٥٩٤ فبلغني عن غير واحد انه صرح للموحدين بالراحة الى المشرق وجعل يذكر البلاد المصرية وما فيها من المناكر والبدع ويقول نحن ان شاء الله مطهروها ولم يزل هذا عزمه الى أن مات رحمه الله فى صدر سنة ٥٩٥ كما ذكر ودفن بتينملل مع آبائه وكان فى جميع أيامه وسيره مؤثرا للعدل متحريا له بحسب طاقته وما يقتضيه اقليمه والامة التي هو فيها كان في أول أمره أراد الجرى على سنن الخلفاء الاول فمن ذلك انه كان يتولى الامامة بنفسه فى الصلوات الخمس لم يزل على ذلك مستمرا أشهرا الى أن أبطأ يوما عن صلاة العصر ابطاء كاد وقتها يفوت وقعد الناس ينتظرونه فخرج عليهم فصلى ثم أوسعهم لوما وتأنيباً وقال ما أرى صلاتكم الا لنا والا فما منعكم عن أن تقدموا رجلا منكم فيصلي بكم أليس قد قدم أصحاب رسول الله صلي الله عليه وسلم عبد الرحمن بن عوف حين دخل وقت الصلاة وهو غائب أما لكم بهم أسوة وهم الائمة المتبعون والهداة المهتدون فكان ذلك سبباً لقطعه الامامة وكان يقعد للناس عامة لايحجب عنه أحد من صغير ولا

كبير حتى اختصم اليه رجلان في نصف درهم فقضى بينهما وأمر الوزير أبا يحيي صاحب الشرطة أن يضربهما ضربا خفيفاً تأديباً لهما وقال لهما أما كان في البلد حكام قد نصبوا لمثل هذا فكان هذا أيضاً مما حمله على القعود في أيام مخصوصة لمسائل مخصوصة لاينفذها غيره ولما ولى أبا القاسم بن بقي المتقدم الذكر كان فيما اشترط عليه أن يكون قعوده بحيث يسمع حكمه في جميع القضايا فكان يقعد فى موضع بينه وبين أمير المؤمنين ستر من ألواح وكان قد أمر أن يدخل عليه أمناء الاسواق وأشياخ الحضر في كل شهر مرتين يسألهم عن أسواقهم وأسعارهم وحكامهم وكان اذا وفد عليه أهل بلد فأول مايسألهم عن عمالهم وقضاتهم وولاتهم فاذا أثنوا خيرا قال اعلموا انكم مسؤلون عن هذه الشهادة يوم القيامة فلا يقولن أحد منكم الا حقا وربما تلا في بعض المجالس (ياأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أوالوالدين والاقربين) ولما خرج الى الغزوة الثانية سنة ٩٢ وهي الغزوة التي كانت بعد الوقعة الكبرى التى أذل الله فيها الادفنش وجموعه وأعز الاسلام وأنصاره كتب قبل خروجه الى جميع البلاد بالبحث عن الصالحين والمنتمين الى الخير وحملهم اليه فاجتمعت له منهم جماعة كبيرة كان يجعلهم كلما سار بين يديه فاذا نظر اليهم قال لمن عنده هؤلاء الجند لاهؤلاء ويشير الي العسكر فكان في ذلك شبيها بما حكي عن قتيبة بن مسلم والى خراسان حين لقى الترك وكان في جيشه أبو عبد الله محمد بن واسع فجعل يكثر السؤال عنه فاخبر انه فى ناحية من الجيش متكئا على سية قوسه رافعا أصبعه الى السماء ينضنض بها فقال قتيبة لاصبعه تلك أحب الى من عشرة آلاف

سيف ولما رجع أمير المؤمنين أبو يوسف من وجهه هذا أمر لهؤلاء
القوم بأموال عظيمة فقبل منهم من رأى القبول ورد من رأى الرد
فتساوى عنده رضي الله عنه الفريقان وقال لكل مذهب ولم يزد هؤلاء ردهم
ولا نقص أولئك قبولهم وكان كثير الصدقة بلغني انه تصدق قبل خروجه
الى هذه الغزوة أعني التي كانت فيها الوقعة الكبرى باربعين ألف دينار
خرج منها للعامة نحو من نصفها والباقي فى القرابة أدركتهم وقد قسموا
مدينة مراكش أرباعا وجعلوا فى كل ربع أمناء معهم أموال يتحرون
بها المساتير وأرباب البيوتات وكان كلما دخلت السنة يأمر أن يكتب له
الايتام المنقطعون فيجمعون الى موضع قريب من قصره فيختتنون
ويأمر لكل صبي منهم بمثقال وثوب ورغيف ورمانة وربما زاد على
المثقال درهمين جديدين هذا كله شهدته لا أنقله عن أحد من الناس
وبني بمدينة مراكش بيمارستان ماأظن ان فى الدنيا مثله وذلك انه تخير
ساحة فسيحة باعدل موضع فى البلد وأمر البنائين باتقانه على أحسن
الوجوه فاتقنوا فيه من النقوش البديعة والزخاريف المحكمة مازاد على
الاقتراح وأمر أن يغرس فيه مع ذلك من جميع الاشجار المشمومات
والمأكولات وأجرى فيه مياها كثيرة تدور على جميع البيوت زيادة
على أربع برك في وسطه احداها رخام أبيض ثم أمر له من الفرش
النفيسة من أنواع الصوف والكتان والحرير والاديم وغيره بما يزيد على
الوصف ويأتى فوق النعت وأجرى له ثلاثين دينارا فى كل يوم برسم
الطعام وماينفق عليه خاصة خارجا عما جلب اليه من الادوية وأقام فيه
من الصيادلة لعمل الاشربة والادهان والاكحال وأعد فيه للمرضي
ثياب ليل ونهار للنوم من جهاز الصيف والشتاء فاذا نقه المريض فان

كان فقيراً أمر له عند خروجه بمال يعيش به ريث مايستقل وان كان غنيا دفع اليه ماله وتركته وسببه ولم يقصره علي الفقراء دون الاغنياء بل كل من مرض بمراكش من غريب حمل اليه وعولج الى أن يستريح أو يموت وكان في كل جمعة بعد صلاته يركب ويدخله يعود المرضي ويسأل عن أهل بيت أهل بيت يقول كيف حالكم وكيف القومة عليكم الي غير ذلك من السؤال ثم يخرج لم يزل مستمرا على هذا الي أن مات رحمه الله وفى أول ولايته إما سنة ٨٣ أو ٨٢ ورد علينا البلاد الغز من مصر كان فيمن ورد علينا مملوك يسمى قراقش ذكروا انه كان مملوكا لتقي الدين بن أخي الملك الناصر ورجل يسمى شعبان ذكروا انه من أمراء الغز ومن أجناد المصريين رجل يعرف بالقاضي عماد الدين فى آخرين فاحسن نزلهم وبالغ فى تكرمتهم وجعل لهم مزية ظاهرة على الموحدين وذلك ان الموحدين يأخذون الجامكية ثلاث مرات في كل سنة فى كل أربعة أشهر مرة وجامكية الغز مستمرة في كل شهر لاتختل وقال الفرق بين هؤلاء وبين الموحدين أن هؤلاء غرباء لاشئ لهم في البلاد يرجعون اليه سوى هذه الجامكية والموحدين لهم الاقطاع والاموال المتأصلة هذا مع انه أقطع أعيانهم اقطاعا كاقطاع الموحدين أو أوسع أقطع رجلا منهم فيما أعرف من أهل اربل يعرف باحمد الحاجب مواضع ليس لاحد من قرابته مثلها وأقطع شعبان المذكور بالاندلس قرى كثيرة تغل فى كل سنة نحوا من تسعة آلاف دينار هذا خارجا عن جامكيتهم الكثيرة التي ليس لاحد من الاجناد غيرهم مثلها ولم يزد المغرب من هذه الطائفة أعنى الغز ألطف حسا ولا أذكي نفسا ولا أحسن محاضرة ولا أطيب عشرة من شعبان هذا

المذكور مالقيته الا استنشدنى أو أنشدنى أنشدته يوما لشاعر من أصحابنا من أهل اشبيلية

وقائل فيم لم تهجع فقلت له   كيف الهجوع لطرف نافر الوسن
لم تدر ان الكري الممنوع عن بصرى   هي السنات التى فى مقلتى حسن

فضحك وقال لقد حوم هذا الشاعر وما ورد ورفرف فما طار وأراد غاية فوقع دونها ولله من أثار هذا المعنى بأوجز لفظ وأسهل مأخذ وأيسر كلفة حيث يقول

أعيدوا صباحى فهو عند الكواعب   وردوا رقادى فهو لحظ الحبائب

قلت هو أبو الطيب قال لى نعم هو الطيب أبو الطيب وأنشدته يوما وقد جري ذكر التنجيس اللفظي فأنشد هو منه وأكثر

اذا صال ذو ود بود صديقه   فيا أيها الخل المصاحب لي صل بي
فاني مثل الماء لينا لصاحبي   وناهيك للاعداء من رجل صاب

فاستحسنهما وكتبهما عنده وقال لى رحمه الله لك على بهذين البيتين حق فما وافقنى شئ من الشعر فى هذا المعني ولا فى غيره ولا وقع منى موقعهما وفى الجملة كان له شغف بالآداب شديد وكان يقرض شيئا من الشعر وربما ندرت له الابيات الجيدة سألته ان يكتب لى شيئا من شعره أو ينشدنيه فأبي على كل الاباء وحلف لايفعل وخرج أمير المؤمنين أبو يوسف الى تينملل للزيارة ومعه هؤلاء الغز المذكورون فقعدوا تحت شجرة خروب مقابلة للمسجد وقد كان ابن تومرت قال لاصحابه فيما قال لهم ووعدهم به ليبصرن منكم من طالت حياته أمراء أهل مصر مستظلين بهذه الشجرة قاعدين تحتها فلما جلس الغز على الصفة المتقدمة تحتها كان ذلك اليوم فى تينملل يوما عظيما اتصل التكبير من كل جهة

وجاء النساء يولولن ويضربن بالدفوف ويقلن ما معناه بلسانهم صدق مولانا المهدى نشهد أنه الامام حقا فأخبرنى من رأى أمير المؤمنين أبا يوسف حين رأي ذلك يتبسم استخفافا لعقولهن لانه لايرى شيئاً من هذا كله وكان لا يرى رأيهم فى ابن تومرت فالله أعلم أخبرنى الشيخ الصالح أبو العباس احمد بن ابراهيم بن مطرف المري ونحن بحجر الكعبة قال قال لى أمير المؤمنين أبو يوسف يا أبا العباس اشهد لى بين يدى الله عز وجل انى لا أقول بالعصمة يعني عصمة ابن تومرت قال وقال لى يوما وقد استأذنته فى فعل شئ يفتقر الى وجود الامام ياأبا العباس أين الامام أين الامام واخبرنى شيخ ممن لقيته من أهل مدينة جيان من جزيرة الاندلس يسمى أبا بكر بن هانئ مشهور البيت هناك لقيته وقد علت سنه فرويت عنه قال لى لما رجع أمير المؤمنين من غزوة الارك وهي التي أوقع فيها بالادفنش وأصحابه خرجنا نتلقاه فقدمني أهل البلد لتكليمه فرفعت اليه فسألنى عن أحوال البلد وأحوال قضاته وولاته وعماله على ما جرت عادته فلما فرغت من جوابه سألنى كيف حالى فى نفسى فتشكرت له ودعوت بطول بقائه ثم قال لى ما قرأت من العلم قلت قرأت تواليف الامام أعنى ابن تومرت فنظر الىّ نظرة المغضب وقال ما هكذا يقول الطالب انما حكمك ان تقول قرأت كتاب الله وقرأت شيئاً من السنة ثم بعد هذا قل ما شئت فى اضراب بهذه الحكايات لو أوردناها لطال بها هذا التلخيص وكان عند رجوعه من السفرة التى استنقذ فيها مدينة شلب من أيدي الروم على ما تقدم أمر ان يبنى له على النهر الاعظم نهر اشبيلية حصن وان تبنى له فى ذلك الحصن قصور وقباب جاريا فى ذلك على عادته من حب البناء

وايثار التشييد فانه كان مهتما بالبناء وفي طول أيامه لم يخل من قصر يستجده أو مدينة يعمرها زاد في مدينة مراكش فى أيامه زيادة كثيرة يطول تفصيلها فتمت له هذه القصور المذكورة على ما أراد وفوقه وسمي ذلك الحصن حصن الفرج ولما رجع من غزوته العظمي المتقدم ذكرها فى سنة ٥٦١ جاس للوفود في قبة من تلك القباب مشرفة على النهر الاعظم وأذن فدخلوا عليه على طبقاتهم ومراتبهم وأنشده الشعراء فمن أنشده فى ذلك اليوم صديق لى من أهل مرسية اسمه على بن حزمون أنشده قصيدة في عروض يسمى الخبب كان يقترحه على الشعراء فوقعت القصيدة من أمير المؤمنين ومن الحاضرين موقع استحسان أولها

حيتك معطرة النفس	نفحات الفتح بأندلس
فذر الكفار ومأتمهم	ان الاسلام لفى عرس
أامام الحق وناصره	طهرت الارض من الدنس
وملأت قلوب الناس هدى	فدنا التوفيق لملتمس
ورفعت منار الدين على	عمد شم وعلى أسس
وصدعت رداء الكفر كما	صدع الديجور سنا قبس
لاقيت جموعهم فغدوا	فرساً فى قبضة مفترس
جاءوك تضيق الارض بهم	عدداً لم يحص ولم يقس
خرجوا بطراً ورئاء النا	س ليختلسوا مع مختلس
ومضيت لامر الله على	ثقة بالله ولم تخس
فأناخ الموت كلا كله	بظباك على بشر رجس
وتساوى القاع بهامهم	المرفض مع الحدب الضرس

سـقيت بجيعهم أكم ... وطئوا منهـن على دهس
فأولئك حزب الكفر ألا ... ان الكفار لفى نكس
أذوى الصلبان وراءكم ... خيل الملك الخبر الندس
ولو ان البحر تناولها ... جرعا وطئته على يبس
ولو ان الصم تراجمها ... أضحت كحل المقل النعس
مـلأ التوحيد أعنتها ... وأغاربها روح القـدس
نهضت فمضت فقضت أملا ... أنسى عنت الدنيا فنسى
جاست جنبات الكفر فلم ... تترك لهـم مالم تجس
لم يبق بهـامثوى رجل ... الا وعليه شذى فرس
لحقوا بقرون الشم فـلا ... سـقيا لطلولهم الدرس
ان كان نجـا أدفنتهم ... فالى عيش نكـد تعس
نظر الملك الاعلى فرأى ... ملكا ما بين قنا وقسى
كالصبح توشح رونقـه ... كالطور بنور الله كسى
فمضى لم يـلو على أحد ... ورمى بالدرع وبالـترس
لصليل الهنـد بمفرقـه ... لا يسمع صلصلة الجرس
سـهر الموتور وأرقه ... تذكار المنصل والمـرس
وبكاء عقائل هاتفـة ... كالورق يحن مع الغلس
برزت وكان ذوائبها ... اذناب رواحـة شمس
ترنوا كظباء الرمل على ... وجل لضراغمة شرس
قد كن مها أنس فغدت ... تحت الرايات بلا أنس
ان الايام قد ازدهرت ... كالروض يروق لمغترس
وتناسـقت الآمال لنـا ... كالثغر تنظـم في لعس

وتلألأ نور الحق على الـــأثر المهـدية فاقتبس
أجزيرة أندلس اعتصمي بامام الامــة واحترسي
رعاك حراسته ملك جبريل له أحـد الحرس
حكمت أسيافك سيدنا في كل مصر الكفر مسى
ومضت فى الروم مضاربها وكذلك تفعل في الفرس
لا يخلف ربك موعده دوخ أقطارهـم ودس

أوردتها على توالبها وان كان فيها طول لغرابة عروضها وجودة أكثر أبياتها أنشدنيها منشئها المذكور من لفظه ثم أعدتها عليه بلفظي آخر مرة لقيته بمدينة مرسية فى سنة ٦١٤ ولعلى بن حزمون هذا قدم في الآداب واتساع فى أنواع الشعر ركب طريقة أبى عبدالله ابن حجاج البغدادي سامحه الله وغفر له فاربي فيها عليه وذلك انه لم يدع موشحة تجرى على ألسنة الناس بتلك البلاد الا عمل في عروضها ورويها موشحة على الطريقة المذكورة وله مع هذا في الهجاء يد لاتطاول غير انه يفحش في كثير منه فمن أحسن ما أحفظ له من ذلك وأسلمه من الفحش والاقذاع أبيات ركب فيها طريقة الحطيئة ابتدأ بهجو نفسه ثم استطرد يهجو رجلا من أعيان قواد الاندلس يقال له محمد بن عيسى مشهور النجدة عندهم والابيات

تأملت فى المرآة وجهي نخلته كوجه عجوز قد أشارت الى اللهو
كان على الازرار مني عورة تنادي الورى غضوا ولا تنظروا نحوى
فلو كنت مما تنبت الارض لم أكن من الرائق الباهي ولا الطيب الحلو
واقبح من مرآى بطنى فانه يقرقر مثل الرعد قرقر في الجو
والا كقلب بين جنبى محمد سليل ابن عيسى حين فر ولم يلو

يود بأن لو كان في بطن أمه   حديثا ولم يسمع حديثا عن الغزو

ثقيل ولكن عقله مثل ريشة   تطير بها الارواح فى مهمه دوى

تميل بشدقيه الى الارض لحية   تظن بها ماء يفرغ من دلو

وقد حدثوا عنه بكل نقيصة   ولكن مثلى لا يروى ولا يروي

وله فى هذا المعنى أحسن من هذا كثيراً الا أنه أقذع فيه فلذلك لم أودعه هذه الاوراق لانى لاأستجيز ان ينقل مثل هذا عني ونال ابن حزمون هذا عند قضاة المغرب وعماله وولاته جاها وثروة كل ذلك خوفا من لسانه وحذرا من هجائه ولا أعلم فى جميع بلاد المغرب بلداً الاوأهاجى هذا الرجل تحفظ فيه وتدرس أسأل الله له المسامحة ولجميع أخواننا من المسلمين وأمر أمير المؤمنين بعرض الجند في هذا اليوم فى السلاح التام فلما انتشروا بين يديه واعجبه ما رأي من حسن هيأتهم قام فصلى ركعتين شكراً لله عز وجل واتفق أثر فراغه من ذلك الركوع ان جاءت سحابة فامطرت مطراً جوداً حتى ابتل الناس فقال فى ذلك صديق لى من الكتاب اسمه محمد بن عبد ربه أصله من الجزيرة الخضراء كان يكتب لابي الربيع سليمان بن عبد الله بن عبد المؤمن وكان مختصاً به

بادى الكرامة بل بادي الكرامات   قد شفع الله آيات بآيات

ياليت شعري ما شيءٌ دعوت به   قبل السلام ومن بعد التحيات

شيءٌ تأثر عنه الجو فاتصلت   من السحائب رايات برايات

من كل وطفاء لفاء الرباب همت   ماء نقيا على زعف نقيات

قل كيف لا يفتح الله البلاد وقد   تفتحت لك أبواب السموات

فاشتهر من يومئذ أبو عبد الله هذا وعرف مكانه ونبه قدره وله

احسان كثير وقدم راسخة فى صناعتى النظم والنثر مع تحقق بشئ من أجزاء الفلسفة من علوم التعاليم وعلم المنطق أنشدنى رحمه الله من شعره

قف بالقباب وأين ذاك الموقف واسألهم بعثمهم ان يعطفوا
وانشد فؤادك ان عرفت مكانه بين القباب وما أخالك تعرف
عند التي رمت الجمار غدية وبنانها بدم القلوب مطرف
نفسى الفداء لها وان لم تبق لى نفسا تذكرنى بها وتعرف

وهي قصيدة طويلة لم يبق تقادم العهد على خاطرى سوى ما أوردته وأنشدته رحمه الله يوما ونحن فى قبة على شاطئ نهر وقد أخذ المطر فى الانسكاب بيتين أحفظهما لشاعر قديم

حاكت يمين الرياح محكمة فى نهر واضح الاسارير
فكلما ضعفت به حلقاً قام لها القطر بالمسامير

فاستحسنهما وقال لى ذكرتني هذا المعنى وأنشدنى فيه لنفسه أبياتا ما سمعت بمثلها هذا على اكثار الناس فى هذا المعنى وتواردهم عليه حتى صار أخلق من الليل والنهار من كثرة تكراره على الاسماع فلا يخلص منه الا من لطف حسه وجاد طبعه وحسن ميزه والابيات

بين الرياض وبين الجو معترك بيض من البرق أو سمر من السمر
ان أوترت قوسها كف السماء رمت نبلا من الماء في زعف من الغدر
لاجل ذاك اذا هبت طلائعها تدرع النهر واهتزت قنا الشجر

فانظر حفظك الله الى حسن توطئته لهذا المعنى وقوة تخلصه الى هذا التشبيه بأحسن لفظ وأسهله على السمع والنطق واستأذنت عليه يوما وهو فى مجلس أنس له فلم ير رحمه الله ان يحجبنى فاسترفع ما كان لديه وأذن لى فدخلت فتلقانى أحسن لقاء وأخذ يحدثني وفهمت انه

مستحي خجل اذ عرف اني تفطنت لبعض الامر فانشدته رافعا عنه كلفة الخجل لبعض الشعراء

أدرها فما التحريم فيها لذاتها ولكن لاسباب تضمنها السكر
اذا لم يكن سكر يزل به الفتى فسيان ماء فى الزجاجة أو خمر

فطرب نضر الله وجهه وعاوده أنسه وانبسط ثم سكت عني ساعة واستدعى الدواة وكتب بديها فى قريب من المعنى الذي أنشدته فيه

ما ضرت الخمر لولا الشرع يشربها قوم حديثهم همس التسابيح
ليسوا برعش اذا أدوا فروضهم عند القيام ولا ميل مراجيح
بيت كبيت وفيه شادن سدن مزج الكؤس به وقد المصابيح

وأنشدني بعد هذا لنفسه في هذا المجلس من قديم شعره مقطوعة سينية لم أسمع بأحسن منها لم يبق على خاطرى منها سوى آخر بيت فيها وهو

ولكن قوما لا يغيب نهارهم اذا غربت شمس يديرونها شمساً

وله رحمه الله رحلة الى مصر لقى فيها ابن سنا الملك وأخذ عنه من شعره وهو أول من سمعت يذكره عندنا ويروى شعره ولابى عبد الله هذا اتساع فى صناعة الشعر الا أنه نحل كثيراً من شعره السيد الاجل أبا الربيع سليمان بن عبد الله بن عبد المؤمن أيام كتابته له ولم يدع بعد ذلك في شئ مما نحله اياه من شعره ولا ذكر انه له فكان أكثر شعره ينشد لابى الربيع وترويه الرواة له عرفت ذلك بعد مفارقته اياه لانى فقدت شعر السيد أبي الربيع واختلف على كلامه ورأيت بخطه أشعاراً نازلة عن رتبة الشعر جداً فعلمت ان ذلك الاول ليس من نسجه وأخبرنى ابن عبد ربه هذا قال دخلت على السيد أبي

الربيع وهو في قبة له وقد دخلت عليه الشمس من كوى صغار في أعلاها فلما رأيت ذلك المنظر أعجبني وقلت بديها

لما رأته الشمس يفعل فعلها في العالمين مقاسما ومساهما
خافت توالى الجود ينفد ماله نثرت عليه دنانراً ودراهما

لحذف الياء من دنانير وهذا جائز كما قال الاول

تظل به أمنا وفيه العصافر

ومما يتعلق بأخبار أبي يوسف رحمه الله ما أخبرني شيخي وأستاذى أبو جعفر احمد بن محمد بن يحيى الحميرى رحمه الله أيام قراءتي عليه بقرطبة سنة ٦٠٦ وذلك أنا بلغنا عليه في الحماسة الى مقطوعة ابن زيابة التيمي التي أولها

يالهف زيابة للحرث الـ صابح فالغانم فالآئب

فلما انتهينا منها الى قوله

والله لو لاقيته خالياً لآب سيفانا مع الغالب

قال لنا أحدثكم بأعجب ما اتفق لي في هذا البيت وذلك ان أمير المؤمنين أبا يوسف رحمه الله لما فصل عن قرطبة متوجها الى لقاء الأدفنش لعنه الله قال لي ولدى عصام بعد انفصاله بليلة أو ليلتين يا أبت رأيت البارحة أمير المؤمنين داخلا قرطبة وقد رجع من السفر وهو متقلد بسيفين فقلت يا بني لان صدقت رؤياك هذه ليهزمن الادفنش لعنه الله وخطر لي هذا البيت

والله لو لاقيته خالياً لآب سيفانا مع الغالب

فصدقت الرؤيا والتعبير وأبو جعفر هذا المذكور آخر من انتهى اليه علم الآداب بالأندلس لزمته نحواً من سنتين فما رأيت أروى لشعر

قديم ولا حديث ولا أذكر بحكاية تتعلق بأدب أو مثل سائر أو بيت نادر أو سجعة مستحسنة منه رضى الله عنه وجازاه عنا خيراً أدرك جلة من مشايخ الاندلس فأخذ عنهم علم الحديث والقرآن والآداب وأعانه على ذلك طول عمره وصدق محبته وافراط شغفه بالعلم قال لي ولده عصام وقد رأيت عنده نسخة من شعر أبي الطيب قرئت على أو أكثرها فألقيتها شديدة الصحة فقلت له لقد كتبتها من أصل صحيح وتحرزت في نقلها فقال لي ما يمكن ان يكون في الدنيا أصل أصح من الاصل الذى كتبت منه فقلت له أين وجدته قال هو موجود الآن بين أيدينا وعندنا وكنا في المسجد في زاوية فقلت له أين هو فقال لي عن يمينك فعلمت أنه يريد الشيخ فقلت ما على يميني الا الاستاذ فقال لي هو أصلي وبالله لانه كتبت كان يملي على من حفظه فجعلت أتعجب فسمع الاستاذ حديثنا فالتفت الينا وقال فيما أنتما فاخبره ولده الخبر فلما رأى تعجبي قال بعيدا أن تفلحوا يعجب أحدكم من حفظ ديوان المتنبي والله لقد أدركت أقواما لا يعدون من حفظ كتاب سيبويه حافظاً ولا يرونه مجتهداً توفى أبو جعفر هذا في شهر صفر من سنة ٦١٠ وقد كملت له ست وتسعون سنة لم يبق في لاندلس أعلى رواية منه في كل ما يروى ولم أر قبله ولا بعده مع اتساع علمه وشدة تمييزه وحسن اختياره ومعرفته بعلل هذه الصناعة أكثر انصافا منه ولا أسرع رجوعا الى الحق كنت أنشده من شعرى على ركاكته وكثرة تكلفه وبعده من الجودة أبياتا لا أعدها شيئاً يحملنى على انشادها اياه فرط استدعائه ذلك منى فيلهج بها ويشتد استحسانه لها وربما درسها لحفظها أنشدته يوما وقد استدعى منى ذلك على عادته بيتين ارتجلتهما

فى شاب كان يقرأ معنا كان شديد العفة رحمه الله مع حسن رائع
وظرف ناصع كان اسمه فتحاً وهما

يامن له عن كناس من المتيم قلبه
ما أنت كاسمك فتح وانما أنت قلبه

فطرب والتفت الى ابنه وقال له هذا والله الشعر لاما تصدعنى به
طول نهارك وان كنت تقول مثل هذا والا فاسكت فلما كان من الغد
قال لى رحمه الله أعلمت ما صنع عصام أمس قلت لا قال كان كما قالوا
فى المثل سكت ألفا لم يزل أمس يعمل فكرته فبعد الجهد الشديد أخذ
معنى بيتيك فسلبه روحه وأعدمه رونقه ومسخه جملة فقال

سبى فؤادى خشف فقوتي اليوم ضعف
سموه فتحاً مجازاً وفى الحقيقة حتف

ما زاد فيه أكثر من المجاز والحقيقة فقلت أنا هذا والله أحسن
من شعرى فتغير لى وقال يابنى دع عنك هذه العادة فان أسوأ ماتخلق
به الانسان الملق وتزيين الباطل سيما اذا أضاف الى ذلك الحلف
الكاذب والله انك لتعلم ان هذاليس بشئ والا فقد اختل ميزك وساء
اختيارك وما أظن هذا هكذا وسمعته من شدة انصافه رحمه الله
يستحسن بيتين هجاه بهما صاحبنا على ابن خروف رحمه الله وذلك ان
الاستاذ رحمه الله وعفا عنه كان يلقب بالوزغى وكان عنده شاب يقرأ
عليه يلقب بالغرنوق وهو اسم عندهم للكركى والفصيح فيه غرنيق
فكان بعض الطلبة يتهمون الاستاذ بالميل الى ذلك الشاب وذلك خلق
قد أعاذه الله منه ونزهه بفضله عنه فقال ابن خروف فى ذلك سامحه الله

أحقا سام أبرص ما سمعنا بأنك قد تعشقت ابن ماء

وكيف وأنت فى الحيطان تمشى　　　وذلك يطير فى جو السماء

فابعده الاستاذ رحمه الله وأنهي خبره الى القاضي أبي الوليد بن رشد فاوجعه ضربا وامتنع الاستاذ من قراءته عليه فحرمه الله بهذين البيتين فوائد علمه وابعده عن مريع جنابه وولاه الاستاذ خطته والقى حبله على غاربه فلم يفلح ابن خروف بعدها ولا حصل على شيء من العلم وانما كان يعتمد فيما يأتي به على طبعه خاصة وقد امتد بنا عنان القول الى مالا حاجة لنا بأكثره رغبة فى تنشيط الطالب وايثاراً للاحماض ولنرجع الآن الى ما قطعنا

وفى آخر أيام أبى يوسف أمر ان يتميز اليهود الذين بالمغرب بلباس يختصون به دون غيرهم وذلك ثياب كحلية واكمام مفرطة السعة تصل الى قريب من أقدامهم وبدلا من العمائم كلوتات على أشنع صورة كأنها البراديع تبلغ الى تحت آذانهم فشاع هذا الزى فى جميع يهود المغرب ولم يزالوا كذلك بقية أيامه وصدرا من أيام ابنه أبى عبد الله الى ان غيره أبو عبد الله المذكور بعد ان توسلوا اليه بكل وسيلة واستشفعوا بكل من يظنون ان شفاعته تنفعهم فأمرهم أبو عبد الله بلبسان ثياب صفر وعمائم صفر فهم على هذا الزى الى وقتنا هذا وهو سنة ٦٢١ وانما حمل أبا يوسف على ما صنعه من أفرادهم بهذا الزي وتمييزه اياهم به شكه فى اسلامهم وكان يقول لو صح عندي اسلامهم لتركتهم يختلطون بالمسلمين فى أنكحتهم وسائر أمورهم ولو صح عندى كفرهم لقتلت رجالهم وسبيت ذراريهم وجعلت أموالهم فيئاً للمسلمين ولكنى متردد في أمرهم ولم تنعقد عندنا ذمة ليهودي ولا نصراني منذ قام أمر المصامدة ولا فى جميع بلاد المسلمين بالمغرب

بيعة ولا كنيسة انما اليهود عندنا يظهرون الاسلام ويصلون في المساجد ويقرؤون أولادهم القرآن جارين على ملتنا وسلتنا والله أعلم بما تكن صدورهم وتحويه بيوتهم وفي أيامه نالت أبا الوليد محمد بن احمد بن محمد ابن رشد المقدم الذكر محنة شديدة وكان لها سببان جلى وخفى فأما سببها الخفى وهو أكبر أسبابها فان الحكيم أبا الوليد رحمه الله أخذ فى شرح كتاب الحيوان لارسطاطاليس صاحب كتاب المنطق فهذبه وبسط اغراضه وزاد فيه ما رآه لائقا به فقال فى هذا الكتاب عند ذكره الزرافة وكيف تتولد وبأى أرض تنشأ وقد رأيتها عند ملك البربر جاريا في ذلك على طريقة العلماء فى الاخبار عن ملوك الامم وأسماء الاقاليم غير ملتفت الى ما يتعاطاه خدمة الملوك ومتحيلوا الكتاب من الاطراء والتقريظ وما جانس هذه الطرق فكان هذا مما أحنقهم عليه غير انهم لم يظهروا ذلك وفي الجملة فانها كانت من أبى الوليد غفلة فقد قال القائل رحمه الله من عرف زمانه فانه وميز مكانه فكأنه وما أحسن ما قال الاول

وأنزلنى طول النوى دار غربة اذا شئت لاقيت الذى لا أشاكله

فحامقته حتى يقال سجية ولو كان ذا عقل لكنت أعاقله

واستمر الامر على ذلك الى ان استحكم ما فى النفوس ثم ان قوما ممن يناوبه من أهل قرطبة ويدعى معه الكفاءة فى البيت وشرف السلف سعوا به عند أبى يوسف ووجدوا الى ذلك طريقاً بان أخذوا بعض تلك التلاخيص التي كان يكتبها فوجدوا فيها بخطه حاكيا عن بعض قدماء الفلاسفة بعد كلام تقدم فقد ظهر ان الزهرة أحد الآلهة فاوقفوا أبا يوسف على هذه الكلمة فاستدعاه بعد ان جمع له الرؤساء

والاعيان من كل طبقة وهم بمدينة قرطبة فلما حضر أبو الوليد رحمه الله قال له بعد ان نبذ اليه بالاوراق أخطك هذا فأنكر فقال أمير المؤمنين لعن الله كاتب هذا الخط وأمر الحاضرين بلعنه ثم أمر باخراجه على حال سيئة وابعاده وابعاد من يتكلم فى شئ من هذه العلوم وكتبت عنه الكتب الى البلاد بالتقدم الى الناس في ترك هذه العلوم جملة واحدة وباحراق كتب الفلسفة كلها الا ما كان من الطب والحساب وما يتوصل به من علم النجوم الى معرفة أوقات الليل والنهار وأخذ سمت القبلة فانتشرت هذه الكتب فى سائر البلاد وعمل بمقتضاها ثم لما رجع الى مراكش نزع عن ذلك كله وجنح الى تعلم الفلسفة وأرسل يستدعى أبا الوليد من الاندلس الى مراكش للاحسان اليه والعفو عنه فحضر أبو الوليد رحمه الله الى مراكش فمرض بها مرضه الذى مات منه رحمه الله وكانت وفاته بها فى آخر سنة ٥٩٤ وقد ناهز الثمانين رحمه الله ثم توفى أمير المؤمنين أبو يوسف بعد هذا التاريخ بيسير وكانت وفاته كما ذكرنا فى غرة صفر الكائن فى سنة ٥٩٥

﴿ذكر ولاية أبي عبد الله محمد بن أبي يوسف أمير المومنين﴾

أبو عبد الله هذا هو محمد بن يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن ابن علي أمه أم ولد اسمها زهر رومية بويع له بعهد أبيه اليه فى سنة ٥٩٥ بعد وفاة أبيه وقد كان أبوه أمر ببيعته فى سنة ٨٦ وسنه اذ ذاك عشر سنين الا أشهراً وكان مولده فى آخر سنة ٥٧٦ ولم يزل مرشحا للخلافة معروفا بها الى ان مات أبوه واستقل بالامر فى التاريخ المذكور

وسنه يوم بويع له البيعة الكبرى العامة سبع عشرة سنة وأشهر وكانت وفاته لعشر خلون من شعبان سنة ٦١٠ فكانت مدة ولاينه ست عشرة سنة الا أشهراً صفته ابيض أشقر شعراللحية أشهل العينين أسيل الخدين حسن القامة كثير الاطراف شديد الصمت بعيد الغور كان أكبر أسباب صمته لثغا كان بلسانه حليما شجاعا عفيفا عن الدماء قليل الخوض فيما لايعنيه جداً الا أنه كان يجل أولاده كان قليل الولد جداً لا أعلم له من الولد سوى يوسف ولي عهده ويحيى واسحاق توفى يحيي في حياته باشبيلية سنة ٦٠٨ وبلغنى عن جماعة من الحشم انه كان رشح يحيي هذالولايةالعهد وله بنات (وزراءه) أبوزيدعبدالرحمن ابن موسى بن يوجان وزير أبيه ثم عزله بعد مدة يسيرة وولى بعده أخاه ابراهيم بن أمير المؤمنين أبى يوسف وهو خير ولده وأجدرهم بالامر لو كانت الامور جارية على ايثار الحق واطراح الهوى لا أعلم فيهم أنجب منه كان لى رحمه الله محبا وبي حفيا وصلت الىّ منه أموال وخلع جمة غير مرة لم أعرفه أيام وزارته لاني كنت اذذاك حديث السن جداً كما ناهزت الاحتلام وانما كانت معرفتي اياه حين ولوه اشبيلية فى سنة ٦٠٥ من جهة رجل من أصحابنا من الكتاب اسمه محمد بن الفضل جازاه الله عني خيرا هو الذى أوصلنى اليه أنشدته أول يوم لقيته قصيدة مدحته بها أولها

لكم على هذا الورى التقديم	وعليهم التفويض والتسليم
الله أعلاكم وأعلى أمره	بكم وأنف الحاسدين رغيم
أحييتم المنصور فهو كأنه	لم تفتقده معالم وعلوم
ومحابر ومنابر ومحارب	وحمي يحاط وأرمل ويتيم

الى ان أقول فيها فى ذكر ولايته اشبيلة

فكأنما حمص جمالا سارة ... وكأن ابراهيم ابراهيم
وأرى طليطلة كهاجر أزها ... سيزفها الادفنش وهو ذميم

أقول فيها

يذر الصليب صغيره وكبيره ... فيها جذاذا والعلوج جثوم
ويحرق الاعداء فيها اضرمت ... ويجوب نار الحرب وهي جحيم

لم يبق على خاطرى منها لتقادم عهدها وقلة اعتنائى بها سوى هذه الابيات التى أوردتها فاستحسنها رحمه الله وبالغ فى الثناء عليها تفضلا منه وسوددا وجريا على سنن الاجواد هذا مع ركاكتها وقلة انطباعها وظهور تكلفها ثم علت حالى عنده بعد ذلك نضر الله وجهه الى ان كان يقول لى فى أكثر الاوقات والله انى لاشتاقك اذا غبت عنى أشد الشوق وأصدقه ثم لم تزل حالى معه على هذا الى ان فارقته رحمة الله عليه وهو وال على اشبيلية ولايته الثانية وكان توديعي اياه قدس الله روحه آخر يوم من ذى الحجة سنة ٦١٣ ثم اتصلت بي وفاته وانا بصعيد مصر سنة ٦١٧ لم أر فى العلماء بعلم الاثر المتفرغين لذلك أنقل منه للاثر كان يذهب مذهب أبيه في الظاهرية ثم عزله أبو عبد الله وولي بعده أبا عبد الله محمد بن على بن أبي عمران الضرير جد يوسف بن عبد المؤمن لامه وكناه أبا يحيي فكان أبو عبد الله الوزير هذا من أحسن الوزراء سيرة وسريرة وكان يحضه على فعل الخير بجهده ونشر العدل حسب طاقته والاحسان الى الرعية والاجناد ورأى الناس فى أيام وزارته من الخصب وسعة الارزاق وكثرة العطاء مثل الذى رأوا فى أيام أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن أو قريبا منه

ثم عزله وولى بعده أبا سعيد عثمان بن عبد الله بن ابراهيم بن جامع كان ابراهيم بن جامع جد هذا الوزير من جملة أصحاب ابن تومرت صحبه من مراكش وكان أصله من الاندلس أباؤه من أهل مدينة طليطلة ونشأ هو أعني ابراهيم بساحل مدينة شريش على البحر الاعظم بضيعة تسمى روطة وبها مسجد مشهور بالفضل يزوره أهل الاندلس قاطبة فى كل سنة ثم انتقل ابراهيم هذا الى العدوة وكان يحاول صنعة النحاس فتعرف بابن تومرت فكان من أصحابه فهو معدود فيهم وولد له أولاد نالوا فى الدولة حظوة وجاها متسعا فمن أولاده أبو العلاء ادريس وزير أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن وقد تقدم ذكره وأبو هذا الوزير المتقدم الذكر اسمه عبد الله كان يتولى فى امارة أبي يعقوب مدينة سبتة وجهاتها وزيادة على ذلك ولاية الاسطول فى جميع بلادهم فلم يزل كذلك الى ان مات أظن أمير المؤمنين أبا يعقوب قتله وترك من الولد يوسف والحسين وعثمان الوزير هذا المذكور ويحيي وبنات فاستمرت وزارة أبي سعيد هذا الي ان توفي أمير المؤمنين أبو عبد الله ووزر بعده لابنه أبي يعقوب الى حين ارتحلت من البلاد وهو سنة ٦١٤ ثم اتصل بي في شهور سنة ٦١٧ ان أبا يعقوب عزله وولى من سياتي ذكره بعد هذا ان شاء الله عز وجل (حجابه) ريحان الخصيّ ويدعى ريحان بينك حجبه ريحان هذا الى ان مات ثم حجبه بعده مبشر الخصيّ يدعي مبشر ولدى فلم يزل مبشر هذا حاجبا له الى ان توفي أمير المؤمنين أبو عبد الله رحمه الله (كتابه) أبو عبدالله محمد بن عبدالرحمن بن عياش المتقدم الذكر فى كتاب أبيه وأبو الحسن على بن عياش بن عبد الملك

ابن عياش المتقدم ذكر أبيه في كتاب عبد المؤمن وأبي يعقوب وأبو عبد الله محمد بن يخلفتن بن أحمد الفازازى ذكره الله فيمن عنده وقرب مطالعتي تلك الغرة الميمونة وسماعي تلك الالفاظ الحلوة واستمتاعي بتلك الشمائل الشريفة فما أشد شوقى الى تقبيل يديه هؤلاء كتبة الانشا وكتاب الجيش أبو الحجاج يوسف المرانى بتخفيف الراء وضم الميم من أهل مدينة شريش من جزيرة الاندلس ثم بعده أبو جعفر احمد بن منيع الى وقتنا هذا وهو سنة ٦٢١ (قضاته) أبو القاسم أحمد بن بقى قاضى أبيه ثم عزله وولى أبا عبد الله محمد بن مروان الذى كان أبوه قد عزله فلم يزل قاضيا الى ان مات وولى بعده رجلا من أهل مدينة فاس اسمه محمد بن عبد الله بن طاهر يدعي انه من ولد الحسين بن على بن أبي طالب كان قبل اتصاله بهم ينتحل طريقة الوعظ ويتصوف لم يزل هذا دأبه ولا برح معروفا به وكان له مع هذا حظ جيد من معرفة أصول الفقه وأصول الدين وشئ من الخلاف اتصل بأمير المؤمنين أبي يوسف في شهور سنة ٥٨٧ فحظي عنده وكانت له منه منزلة سمعت أبا عبد الله الحسيني هذا يقول وأنا عنده فى بيته جملة ما وصل الىّ من أمير المؤمنين أبي يوسف منذ عرفته الى ان مات تسعة عشر الف دينار خارجا عن الخلع والمراكب والاقطاع لم يزل أبو عبد الله هذا قاضيا الى ان مات بالاندلس فى شهور سنة ٦٠٨ وكانت ولايته فى شهور سنة ٦٠١ ثم ولى بعده أبا عمران موسى بن عيسى بن عمران كان أبوه من قضاة أبي يعقوب فاستمرت ولاية أبي عمران هذا الى هذا الوقت وهو سنة ٦٢١ لم يبلغنى عزله ولا وفاته وأبو عمران هذا لى صديق لم أر صديقا لم تغيره الولاية غيره ولم يزل يعاملنى بما

كان يعاملني به قبل ذلك لم ينقضي شيئاً من برهما لقيته قط فى مركبه الا سلم عليّ مبتدئاً وجدد لى براً جزاه الله عني أفضل الجزاء وعم بذلك سائر أخواني

ولما تمت بيعة أبي عبد الله العامة كما ذكرنا وكان الذى تولاها وقام بأمرها من القرابة أبو زيد عبد الرحمن بن عمر بن عبد المؤمن وهو الذي قام ببيعة أبيه ومن الموحدين أبو زيد عبد الرحمن بن موسى وزير أبيه وأبو محمد عبد الواحد بن الشيخ أبي حفص وهو الذي ولاه محمد بعد هذا أمر أفريقية كان أول شيء شرع فيه تجهيز الجيوش الى افريقية وذلك ان يحيي بن اسحق بن غانية المتقدم الذكر كان استولى على أكثر بلادها أيام اشتغل الموحدون عنه بغزو الروم فأول جيش جهز من الموحدين الجيش الذى استعمل عليه السيد أبا الحسن عليّ بن عمر بن عبد المؤمن لم أر لهم جيشا أضخم منه ولا أكثر سلاحا ولا أحسن عدة وكان فيه من أعيان الموحدين وأشياخهم جملة وافرة فسار أبو الحسن هذا بجيشه المذكور حتى التقى هو والميرقيون فيما بين بجاية وقسطنطينة وبالقرب من قسطنطينة فانهزم الموحدون أصحاب أبي الحسن المذكور ورجع أبو الحسن الى بجاية على حالة سيئة وجهز بعد هذا الجيش جيشا على مثاله وأمر عليهم من الموحدين أبا زيد عبد الرحمن بن موسي الوزير فسار بالجيش حتى بلغ قسطنطينة المغرب ثم استعمل أمير المؤمنين أبو عبد الله على افريقية وأعمالها السيد الاجل أبا زيد عبد الرحمن بن عبد المؤمن وخرج هو في سنة ٥٩٧ الى تينملل لزيارة قبر أبيه أبي يوسف وزيارة ضريح آبائه وابن تومرت ثم رجع الى مراكش وأقام الى أول سنة

٦٠٩ فتجهز بجيوش ضخمة حتى أتى مـدينة فاس ونزل بها واشاع
انه يقصد افريقية هذا بعد ان بلغه ان الميرقي استولي على مدينة تونس
وقبض على الوالى عليها عبد الرحمن فأقام بفاس ثلاثة أشهر وأياما. وبدا
له ان يبعث بعثا الى جزيرة ميرقة ليستأصـل شأفة بني غانية ويقطع
دابرهم فعمر الاسطول والطرائد فيها الخيل والرجال واستعمل على
الاسطول عمه أبا العلاء ادريس بن يوسف بن عبد المؤمن وعلى الجيش
أبا سعيد عثمان بن أبي حفص من أشياخ الموحـدين فقصد الجزيرة
هذان الرجلان ففتحاها عنوة وقتلا عبـد الله بن اسحاق بن غانية
الامير عليها وكان الذى قتله رجـل من الاكراد يقال له عمر المقدم
وذلك انه حين نازله القوم خرج على باب من أبواب المدينة سكران
فكبت به فرسه فضربه هذا المذكور بسيفه حتي مات وقيل انه قتله
بسيف نفسه وكان دخولهما ميرقة وقتلهما أميرها المذكور فى شهر
ذي الحجة من سنة ٥٩٩ فانتهبا أمواله وسبيا حرمه ودخلا بهم مدينة
مراكش على الجمـال فى هيئة الاسارى فاما النساء فدخل بهن ليلا
فجعلن فى بعض الخانات الى ان نفذ الامر بالمنّ عليهن واطلاقهن وتزويج
من تحتاج الى التزويج منهن وتجهيزها بمال وأما الرجال فلم يزالوا فى
الحبس الى ان من عليهم بعد ان ضمنهم أكابرهم واتخذوا أجناداً فهم
كذلك الى اليوم وبلغنى ان المتولين لفتحها انتهبوا منها أموالا عظيمة
وذخائر نفيسة ثم رجع أمير المؤمنين أبو عبد الله الى مراكش وبها
اتصل به خبر فتح ميرقة وكان رجوعه الى مراكش في ذى القعدة
من السنة المذكورة وقد كان قبل هذا فى سنة ٩٧ قام بسوس رجل
من جزولة اسمه عبد الرحمن يعرف عندهم بما معناه بلسانهم ابن

الجزارة فدعا الى نفسه واجتمع اليه خلق كثير واشتد خوف الموحدين منه فلم يزالوا يجهزون اليه العساكر بعد العساكر وفى كل ذلك يهزمهم الى ان بعثوا بعثا من الموحدين والغز وأصناف الجند بعد ان تقدموا الى المصامدة والمجاورين للبلاد التى كان فيها وقالوا انما يقوي هذا الرجل بتغافلكم عنه ومسامحتكم اياه ولو شئتم لم يبق بالبلاد يوما واحداً فتحركوا عند ذلك وأظهروا الحمية والتقوا هم وأصحاب عبد الرحمن المذكور وكان يدعي أبا قصبة فاسلمته جموعه وقتل وسير برأسه الى مراكش فكتب الى بعض أخواني وهو اذ ذاك صبى صغير كان مع أبيه بسوس وكان أبوه من العمال من أهل جزيرة الاندلس من ناحية بلنسية يخبرني بهذا الفتح قبل وصوله الي من جهة كتاب الموحدين المتولين له رسالة أولها كتب من منزل سوس وقد تبلج فجر الفتح فأسفر وقال فريق الضلال وشيعته اين المفر وقد ألقى النصر جرانه وأعز الله حزبه المؤيد وأعوانه وشرح الحال على غاية الايجاز لاجل الاستعجال في انهاء هذه البشائر والاحفاز ان الناكثين النابذين للعروة الوثقى المتمسكين بالسبب الاشقى حاصرهم الموحدون أنجدهم الله أشد الحصار وقطعوا عنهم مواد المعايش وزرافات الانصار ولسان التأييد يتلو علينا بالعشي والاشراق ما ينظر هؤلاء الا صيحة واحدة ما لها من فواق ولحين ما أخذ الموحدون أنجدهم الله في حسم دائهم العضال وجردوا لهم من عزماتهم الصادقة ما هو أمضى من النصال طاحوا مجدلين بالحضيض وملأ جثمانهم الفضاء العريض وخيب الله ظنونهم الكاذبة وآمالهم وصيرهم الى امهم الهاوية فكانت أولى بهم ذلك بانهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه فاحبط أعمالهم وأمكن الله من رأس

ضلالهم المدعو بأبي قصبه فقهره الحزب المنصور وغلبه وجز الحسام منه قنة ورقبه انما أوردت هذه الرسالة هاهنا لغرابة شأن من وردت عليّ منه وذلك انه كان حين كتب بها اليّ لم يحتلم بعد ومع اتصال هذا الفتح بهم اتصل معه فتح جزيرة منرقة كان فيها من أصحاب ابن غانية رجل اسمه الزبير بن نجاح دخلوها عليه فقتلوه ووجهوا برأسه الى مراكش فهو معلق بها مع رأس أبي قصبة المذكور ولما كانت سنة ٦٠١ تجهز أمير المؤمنين أبو عبد الله في جيوش عظيمة وقصد بلاد افريقية وقد كان الميرقي يحيي بن غانية قد استولى عليها خلا قسطنطينة وبجاية هيأ له ذلك غفلة الموحدين عنه واشتغال أمير المؤمنين أبي يوسف بغزو الروم بالاندلس على ما قدمناه فسار أبو عبد الله حتى نزل بلاد أفريقية فما استعصي عليه بلد من بلادها خلا المهدية مهدية بني عبيد فانه أقام عليها أربعة أشهر قبل ان دخلها أوجب ذلك ما قدمناه من شدة منعتها وكان يحيي بن غانية قد ولى فيها ابن عمه لحا أبا الحسن على بن عبد الله بن محمد بن غانية فلما طال عليه الحصار سلم البلد وخرج بنفسه يقصد ابن عمه ثم بدا له ان يرجع الى الموحدين فارسل اليهم فتلقوه أحسن لقاء ووصلوه من الصلاة النفيسة بما لا قيمة له ولا يصل بمثله الا الخلفاء وبعد هذا نزع اليهم أخو يحيي بن غانية سير بن اسحق بن محمد فاكرموا نزله واقطعوه الاقطاع الواسعة بعد ان ملئوا يديه أموالا ولم يزل أبو عبد الله أمير المؤمنين مقيما بأفريقية يصلح ما أفسده ابن غانية الى ان تم له ما أراد من ذلك وبلغني ان جملة ما أنفق في هذه السفرة مائة وعشرون حملا ذهبا ثم رجع الى مراكش دار الملك بعد ان ترك بأفريقية من الموحدين وأصناف الجند من يقوم

بحمايتها ويذود عنها من رامها واستعمل عليها من أشياخ الموحدين أبا
محمد عبد الواحد بن الشيخ أبي حفص عمر اينتي فأقام بمراكش وكان
رجوعه اليها في شهور سنة ٦٠٤ فأقام بها كما ذكر الى أول سنة ٦٠٧
فانتقض ما بينه وبين الادفنش لعنه الله من المهادنة وبدا له ان يقصد
بلاد الروم للغزو فخرج بالجيوش حتى عبر البحر وكان عبوره فى شهر
ذى القعدة من سنة ٧ المذكورة فسار حتى نزل اشبيلية على عادة من
سلف قبله فأقام بها بقية السنة المذكورة وتحرك فى أول سنة ٨ فقصد
بلاد الروم فنزل على قلعة عظيمة لهم فى غاية المنعة تدعى شلب ترة
معناه بلسان العرب الارض البيضاء الا ان فيه تقديم وتأخير كما جرت
العادة فى لسان العجم ففتحها بعد حصار وتضييق عليها شديد وكان
أبوه قد نزل عليها قبل ذلك فحاصرها أياما يسيرة ثم تركها شفقة على
المسلمين وخوفا عليهم فراع فتح هذه القلعة الروم وخامرهم الرعب
وخرج الادفنش لعنه الله الي قاصية بلاد الروم مستنفرا من أجابه
من عظماء الروم وفرسانهم وذوى النجدة منهم فاجتمعت له جموع
عظيمة من الجزيرة نفسها ومن ألمان حتى بلغ نفيره الى القسطنطينية
وجاء معه صاحب بلاد أرغن المعروف بالبرشنوني لعنه الله وذلك ان
جزيرة الاندلس يملك جهاتها الاربع أربع ملوك من الروم احدى
الجهات تسمى أرغون وهي التى ذكرنا وهي شرقي الجزيرة مما يقابل
الجنوب منها والجهة الاخرى وهي المملكة الكبرى بلاد تسمى بلاد
قشتال يملكها الادفنش لعنه الله وحد هذه الجهة فيما بين الجنوب
والشمال أميل الى الجنوب قليلا والجهة الاخرى تسمى ليون فهو أول
الحد الشمالي المغربى يملكها رجل يدعي بالبيوج ومعنى هذا الاسم

بالعربية الكثير اللعاب والجهة الاخرى في الشمال مما يلي البحر الاعظم بحر اقنابس يملكها رجل يعرف بابن الريق وقد تقدم ذكره في مواضع من هذا الكتاب والجزيرة بأسرها أعني جزيرة الاندلس تسمى في قديم الدهر عند الروم جزيرة اشبانية وبعد رجوع أمير المؤمنين أبي عبد الله من هذا الفتح المتقدم الذكر الى اشبيلية استنفر الناس من أقاص البلاد فاجتمعت له جموع كثيفة وخرج من اشبيلية في أول سنة ٦٠٩ فسار حتى نزل مدينة جيان فأقام بها ينظر في أمره ويعبئ عساكره وخرج الادفنش لعنه الله من مدينة طليطلة في جموع ضخمة حتى نزل على قلعة رباح وهي كانت للمسلمين افتتحها المنصور أبو يوسف في الوقعة الكبرى فسلمها اليه المسلمون الذين بها بعد ان آمنهم على أنفسهم فرجع عن الادفنش لعنه الله بهذا السبب من الروم جموع كثيرة حين منعهم من قتل المسلمين الذين كانوا بالقلعة المذكورة وقالوا انما جئت بنا لتفتتح بنا البلاد وتمنعنا من الغزو وقتل المسلمين مالنا في صحبتك من حاجة على هذا الوجه وخرج أمير المؤمنين من مدينة جيان فالتقى هو والادفنش بموضع يعرف بالعقاب بالقرب من حصن يدعي حصن سالم فعبأ الادفنش جيوشه ورتب أصحابه ودهم المسلمين وهم على غير أهبة فانهزموا وقتل من الموحدين خلق كثير وأكبر أسباب هذه الهزيمة اختلاف قلوب الموحدين وذلك انهم كانوا على عهد أبي يوسف يعقوب يأخذون العطاء في كل أربعة أشهر لايخل ذلك من أمرهم فابطأ في مدة أبي عبد الله هذا عنهم العطاء وخصوصاً في هذه السفرة فنسبوا ذلك الى الوزراء وخرجوا وهم كارهون فبلغني عن جماعة منهم انهم لم يسلوا سيفاً ولا شرعوا رمحاً ولا أخذوا في شيء

من أهبة القتال بل انهزموا لاول حملة الافرنج عليهم قاصدين لذلك وثبت أبو عبد الله هذا فى ذلك اليوم ثباتا لم ير لملك قبله ولولا ثباته هذا لاستوصلت تلك الجموع كلها قتلا وأسرا ثم رجع من هذا الوجه الي اشبيلية وأقام بها الي شهر رمضان من هذه السنة ثم عبر البحر قاصداً مدينة مراكش وكانت هذه الهزيمة الكبرى على المسلمين يوم الإثنين منتصف صفر الكائن فى سنة ٦٠٩ وفصل الادفنش لعنه الله عن هذا الموضع بعد ان امتلأت يداه وأيدى أصحابه أموالا وأمتعة من متاع المسلمين فقصد مدينتى بياسة وأبذة فاما بياسة فوجدها أو أكثرها خالية فحرق ادورها وخرب مسجدها الاعظم ونزل على ابذة وقد اجتمع فيها من المسلمين عدد كثير من المنهزمة وأهل بياسة وأهل البلد نفسه فأقام عليها ثلاثة عشر يوما ثم دخلها عنوة فقتل وسبى وغنم وفصل هو وأصحابه من السبى من النساء والصبيان بما ملئوا به بلاد الروم قاطبة فكانت هذه أشد على المسلمين من الهزيمة ولم يزل أمير المؤمنين أبو عبد الله مقيما بمراكش بقية سنة ٩ وأشهراً من سنة ١٠ الى ان توفى فى شهر شعبان كما قدمنا واختلف علينا في سبب وفاته فأصح ما بلغنى انه أصابته سكتة من ورم في دماغه وذلك يوم الجمعة لخمس خلون من شعبان فأقام ساكتا لا يتكلم يوم السبت والاحد والاثنين والثلاثاء وأشار عليه الاطباء بالفصد فأبي ذلك وتوفى يوم الاربعاء لعشر خلون من شهر شعبان من سنة ٦١٠ ودفن يوم الخميس صلى عليه خاصة الحشم

﴿ ذكر ولاية أبي يعقوب يوسف بن محمد ﴾

هو يوسف بن محمد بن يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن بن علي
أمه أم ولد رومية اسمها قمر تلقب حكيمة كانت ولادته في صدر شوال
من سنة ٥٩٤ قبل وفاة جده أبي يوسف بأربعة أشهر بويع له وسنه
يومئذ ست عشرة سنة لا أعلم له ولداً لحداثة سنه ثم اتصل بي في شهور
سنة ٦٢١ ان يوسف هذا توفي في أحد الشهرين من شوال أو ذي
القعدة سنة ٢٠ فكانت مدة ولايته من يوم بويع له وذلك لاحد
عشر يوما من شعبان من سنة ٦١٠ الى ان توفي كما ذكر في التاريخ
المذكور عشرة أعوام وشهرين (صفته) كان صافي السمرة مستدير الوجه
شديد الكحل يشبهونه بجده أبي يوسف في أكثر خلقه وخلقه (وزراؤه)
أبو سعيد المتقدم الذكر وزير أبيه استمرت وزارته الى آخر سنة ٦١٥
ثم عزله وولى بعده رجلا اسمه زكريا بن يحيي بن أبي ابراهيم اسمعيل
الهزرجي صاحب ابن تومرت والمقتول في حياة عبد المؤمن كما تقدم
أم هذا الوزير هي بنت أبي يوسف المنصور فهو وزيره الى ان توفي
كما ذكر (حجابه) مبشر الخصي حاجب أبيه ثم حجبه بعده فارح
الخصي يكنى أبا السرور فلم يزل حاجبا له الى ان توفي كما قيل (قاضيه)
أبو عمران موسى بن عيسى بن عمران قاضي أبيه لم يزل أبو عمران
هذا قاضيا له الى ان توفي كما قيل (كتابه) أبو عبد الله بن عياش كاتب
أبيه وجده وأبو الحسن بن عياش ثم اتصلت بي وفاة هذين الكاتبين
ولانا بالديار المصرية في شهور سنة ٦١٩ وانهم استعادوا أبا عبد الله محمد
ابن يخلفتن الفازازي المتقدم الذكر في كتاب أمير المؤمنين أبي عبد الله

وكان قاضيا بمدينة مرسية من شرقي الاندلس وبها فارقته فأعادوه الى الكتابة كما كان واستكتبوا معه أبا جعفر احمد بن محمد بن عبد الرحمن بن عياش أبوه هو كاتبهم المشهور بكتابتهم وقد تقدم ذكره فى كتاب ثلاثة أمراء منهم وكاتب الجيش احمد بن منيع لم يتغير بويع لابي يعقوب هذا يوم دفن أبيه لا أدرى أبعهد أبيه اليه أم لا لانى أعلم ان أباه كان كثير الانحراف عنه في آخر أيامه لما كان يسمع من سوء أخباره والذين قاموا ببيعته من القرابة أبو موسى عيسى بن عبد المؤمن عم جده الذى دخل عليه الميرقيون بجاية وهو آخر من بقى من ولد عبد المؤمن لصلبه لم تبلغنى وفاته الى وقتنا هذا وأبو زكريا يحيي بن أبي حفص عمر بن عبد المؤمن كانا قائمين على رأسه يأذنان للناس ومن الموحدين أبو محمد عبد العزيز بن عمر بن أبي زيد الهنتاتى كان أبوه أول وزير وزر لابي يوسف وقد ذكر وأبو على عمر بن موسى بن عبد الواحد الشرقي وأبو مروان عبد الملك بن يوسف بن سليمان من أهل تينملل وبويع البيعة الخاصة يوم الخميس ويوم الجمعة بايعه أشياخ الموحدين والقرابة وفى يوم السبت أذن للناس عامة شهدت ذلك اليوم وأبو عبد الله بن عياش الكاتب قائم يقول للناس تبايعون أمير المؤمنين ابن أمراء المؤمنين على ما بايع عليه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم رسول الله من السمع والطاعة فى المنشط والمكره واليسر والعسر والنصح له ولولاته ولعامة المسلمين هذا ماله عليكم ولكم عليه ألا يجمر بعوثكم وان لا يدخر عنكم شيئاً مما تعمكم مصلحته وان يعجل لكم عطاءكم وان لا يحتجب دونكم أعانكم الله على الوفاء واعانه على ما قلده من أموركم يعيد هذا القول لكل طائفة الي ان

انقضت البيعة ثم اتصلت وفادة أعيان البلاد ورؤسائها ووجوه القبائل
عليه للبيعة الى ان تم له الامر ولاربعة أشهر من ولايته قبض على
رجل كان قد ثار عليهم يدعى انه من بني عبيد ويقول انه ولد العاضد
لصلبه اسمه عبد الرحمن كان قد ورد البلاد فى حياة أبى يوسف أيام
كونه باشبيلية ورام الاجتماع به فلم يأذن له وأقام بالبلاد مطرحا الى ان
حبسه أمير المؤمنين أبو عبد الله فى شهور سنة ٥٩٦ فلم يزل فى الحبس
الى ان كانت سنة ٦٠١ وتحرك أمير المؤمنين الى افريقية شفع له فيه
أبو زكريا يحيي بن أبي ابراهيم الهزرجي فاطلقه له بعد ان ضمن عنه
انه لا يتحرك فى أمر يكرهونه فلم يقم هذا العبيدي بمراكش الا أياما
يسيرة بعد خروج أمير المؤمنين أبى عبد الله ثم خرج وقصد بلاد
صنهاجة فالتفت عليه منهم جماعة وانتشر له فيهم تعظيم لان هذا الرجل
كان كثير الاطراق والصمت حسن الهيئة لقيته مرتين فلم أر فى أكثر
من شهدته من المشبهين بالصالحين مثله فى الآداب الظاهرة من هدوء
النفس وسكون الاطراف ووزن الكلام وترتيب الالفاظ ووضع
الاشياء مواضعها مع الرياضة المفرطة ثم قصد مدينة سجلماسة فى حياة
أمير المؤمنين أبي عبد الله بجيش عظيم فخرج اليه متوليها السيد أبو
الربيع سليمان بن أبى حفص عمر بن عبد المؤمن فهزمه العبيدى المذكور
وأعاده الى سجلماسة أسوأ عود ولم يزل ينتقل فى قبائل البربر من
موضع الى موضع وفى ذلك كله لا يستقيم له أمر ولا تثبت عليه جماعة
أوجب ذلك كونه غريب البلد واللسان لا عشيرة له ولا أصل بالبلاد
يرجع اليه الى ان قبض عليه بظاهر مدينة فاس لم يبلغنى تفصيل قضية
القبض عليه وكتب الى أمير المؤمنين متولي فاس أبو ابراهيم اسحاق

ابن أمير المؤمنين ابي يعـقوب يوسف بن عبد المؤمن يعلمه بالقبض
عليه وبكونه عنده في سجنه فكتب اليه يأمره بقتله وسلبه فضرب
عنقه وصلب جسده ووجه برأسه الى مراكش فهو معلق هناك مع
عدة رؤس من الثوار والمتغلبين ولم يغير أبو يعقوب هذا على الناس
شيئاً من سير آبائه ولا أحدث أمرا يتميز به عمن كان قبله خلا انى
رأيت كل من يعرفه من خواص الدولة قد ملئ قلبه منه رعباً لما يعلمون
من شهامته وشدة تيقظه لقيته وجلست بين يديه خاليا به وذلك فى غرة
سنة ٦١١ فرأيت من حـدة نفسه وتيقظ قلبه وسؤاله عن جزئيات
لا يعرفها أكثر السوق فكيف الملوك ما قضيت منه العجب والى وقتنا
هذا لم يظهر منه شئ مما يتوقع وثار في أيام يوسف هذا بعـد قتل
العبيدى رجلان أحدهما ببلاد جزولة من سوس كان يدعي بالفاطمى
قتل وجيء برأسـه الى مراكش في شهور سنة ٦١٢ وانا يومئـذ
بجزيرة الاندلس لم يبلغنى تفصيل أمره لبعدي عن الحضرة غير اني
رأيتهم أعظموا الفرح بأخذه وقتله والآخر من صنهاجة قتل فى سنة
٦١٨ بعد ان أثر آثاراً قبيحة فيما بلغني وهزم بعوثا عـدة واستفسد
خلقا كثيراً بلغنى هذا كله وانا بالبلاد المصرية في التاريخ المتقدم وكان
الذى تولى قتل هـذا الرجل والاراحة منه وحسم الخلاف الواقع
بسببه السيد الاجل أبا محمد عبد العزيز بن أمير المؤمنين أبي يعقوب
ابن عبد المؤمن بن على وهو يومئذ وال على مدينة سجلماسة وأعمالها
ثم اتصل بى فى هذه السنة وهى سنة ٦٢١ ان أبا يعقوب أمير المؤمنين
توفى فى أحد الشهرين من شوال أو ذي القعدة من سنة ٦٢٠ ولم
يبلغنى كيفية وفاته فاضطرب الامر واشرأب الناس للخلاف ثم ذكر

لى ان عامتهم ومعظمهم اجتمعوا على تقديم السيد الأجل أبي محمد عبد
العزيز بن أمير المؤمنين أبي يعقوب يوسف بن أمير المؤمنين أبي محمد
عبد المؤمن بن على رحمهما الله ونضر وجوههما وجزاهما خيرا عن
صلاحهما واصلاحهما وأبو محمد عبد العزيز هذا من أصاغر أولاد أبي
يعقوب أمه حرة اسمها مريم صنهاجية من أهل قلعة بني حماد تزوجها
أمير المؤمنين أبو يعقوب فى حياة أبيه وكانت سبيت هي وأمها ملكة
في من سبوا من أهل القلعة فاعتقهما أبو محمد عبد المؤمن وزوج مريم
هذه لابنه أبي يعقوب فولدت له ثمانية من الولد أربعة ذكور وأربع
بنات فالذكور هم ابراهيم وموسي وادريس وعبد العزيز هذا
المذكور وهو أصغرهم توفى موسى بظاهر مدينة تاهرت قتله العرب
أصحاب الميرقى فى شهور سنة ٦٠٥ وتوفى ابراهيم منهم باشبيلية وانا بها
فى شهور سنة ٦١٢ وتوفى أبو العلاء ادريس منهم بأفريقية كما سيأتى
والبنات هن زينب ورقية وعائشة وعاية لم يتولى أبو محمد عبد العزيز
هذا شيئاً من أمرهم فى حياة أبيه ولا في حياة أخيه ابي يوسف فلما
ولى ابو عبد الله الامر ولاه مدينة مالقة واعمالها من جزيرة الاندلس
وذلك في شهور سنة ٥٩٨ ثم عزله عنها فى شهور سنة ٦٠٣ وولاه
أمر قبيلة هسكورة وهي ولاية ضخمة فلم يزل واليا عليها الى ان
عزله عنها وولا أمر سجلماسة فلم يزل واليا عليها بقية مدته ومدة
ابنه أبي يعقوب الى ان قتل هذا الثائر المتقدم الذكر فى ولاية أبي
يعقوب بن أبي عبد الله فعزله أبو يعقوب عن سجلماسة وولاه مدينة
اشبيلية حين عزل عنها أخاه أبا العلاء وولاه أمر افريقية فلم يزل أبو
العلاء ادريس واليا بأفريقية الى ان مات بها فى رمضان من سنة ٦٢٠

على مابلغنى رحمة الله عليه فهذه جملة أخبار هذا الرجل أبى محمد عبد العزيز المذكور بالولاية لامرهم كما قالوا ولئن كان ما قالوا حقا وتم هذا الامر له ليملأنها خيرا وعدلا ولتزكون الارض وتخرج بركاتها ولترسلن السماء مدرارها بيمن نقيبته وحسن سيره وحميد سريرته هذا اذا ساعده الدهر وقيض الله له أعوانا صالحين فانه ما علمت صوام قوام مجتهد فى دينه شديد البصيرة فى أمره قوى العزيمة شديد الشكيمة لا تأخذه في الحق لومة لائم أرطب الناس لسانا بذكر الله وأتلاهم لكتاب الله شهدته والولاية قد اكتنفته وأمور الرعية قد استغرقت أوقاته وهو في كل ذلك لا يخل بشيء من أوراده ولا يترك وظيفة من الوظائف التى رتبها على نفسه من أخذ العلم وقراءة القرآن واذكار رتبها على أوقات الليل والنهار شهدت هذا كله منه بنفسي لا أنقله عن أحد ولا أستند فيه الي رواية هذا مع دماثة خلق ولين جانب وخفض جناح لاصحابه ولمن علم فيه خيرا من المسلمين أو ظنه مضافا الى سخاء نفس وطلاقة وجه (وصفته) أبيض تعلوه صفرة جميل الوجه جدا معتدل القامة متناسب الاعضاء وله من الولد على علمي ثلاثة محمد وهو أكبرهم وعبد الرحمن وأحمد وبنات

هذا تلخيص التعريف بأخبار دولة المصامدة من أول قيام أمرهم وهو سنة ٥١٥ الي وقتنا هذا وهو سنة ٦٢١ فذلك مائة سنة وست سنين على الاجمال لا على التفصيل وانما أوردنا من ذلك ما تدعوا الحاجة اليه وتضم الضرورة من عني بالاخبار الى معرفته من غير تعرض الي ما لا حاجة بنا اليه من ذكر اولاد عبد المؤمن وأولاد أولاده وأولاد أولاد أولاده وتفاصيل أخبارهم فى ولايتهم وعزلهم

وأمهاتهم وكتابهم وحجابهم ووزرائهم اذ لو تتبعنا ذلك لخرج هـذا المجموع عن حـد التلخيص ولحق بالكتب المبسوطة هذا على انا لو كفينا ضرورات المعاش وأعفينا من كد الزمان لاوردنا من ذلك ما أحاط به العلم وبلغته الرواية وحصلته المشاهدة ولم أثبت في هـذه الاوراق المحتوية على دولة المصامـدة وغيرها الا ما حققته نقلا من كتاب أو سماعا من ثقة عدل أو مشاهدة بنفسي هذا بعد ان تحريت الصـدق وتوخيت الانصاف فى ذلك كله وجهدت الا أنقض أحداً ذرة مما له ولا أزيده خردلة مما لا يستحقه وبالله أستعين واياه أسأل واليه أضرع في الهام الصواب والسداد فى القول والعمل فهو حسبي ونعم الوكيل

﴿ جامع سير المصامدة وأخبارهم وقبـائلهم وأحوالهم فى ظعنهم واقامتهم ﴾

قد قدمنا ان أول من صحب المهدى محمد بن تومرت عشرة أنفس وهم المسمون بالجماعـة أولهم عبد الواحد الشرقى على الصحيح ثم عبد المؤمن بن على أمير المؤمنين ثم عمر بن عبد الله الصنهاجي المعروف عندهم بعمر ازناج ثم فاصكة بن ومزال سماه بن تومرت عمر وكناه أبا حفص انتشر من ظهر عمر هذا بشر كثير وكان له عدة من الولد منهم ابراهيم واسمعيل ومحمـد أم محمد هـذا ابنة عبد المؤمن ويحيي وعيسى وموسى ويونس وعبد الحق وعثمان واحمد وعبد الواحد كان عبد الواحد هـذا يتولى أمر أفريقية ولاه أمرها أمير المؤمنين أبو

عبد الله سنة ٦٠٣ فلم يزل واليا عليها الى ان مات بها يوم الخميس وهو أول يوم من شهر محرم سنة ٦١٨ وكان ابن تومرت يسمى فاصكة هذا المبارك ويقول لا يزالون بخير ما بقى فيهم هذا الرجل أو أحد من ولده فكان الامر كما قال وانتفعوا به وبأولاده وأولاد أولاده وهو المشهور بعمر اينتي وقد تقدم ذكره فى مواضع من هذا الكتاب ولم يبق في وقتنا هذا من ولده اصابه سوى رجل واحد اسمه عثمان فارقته بمدينة مرسية وبها ودعته حين ارتحلت الى هذه البلاد وقد ولوه مدينة جيان وأعمالها هذا آخر عهدى به ثم اتصل بى بديار مصر انهم ولوه بلنسية ثم عزلوه عنها فلا أدرى أهو بالاندلس اليوم أو بمراكش وهو معدود عندى من جملة أخواني رضى الله عنه وعنا وعن جميع المسلمين ثم يوسف بن سليمان وأخوه عبد الله بن سليمان وهما من أهل تينمال من قبيلة تدعى مسكالة حسب ما تقدم ثم أبو عمران موسى بن على الضرير صهر عبد المؤمن كان ضرير البصر كان عبد المؤمن يستخلفه على مراكش اذا سافر عنها ثم أبو ابراهيم اسمعيل الهزرجي وهو الذى أسلم نفسه للقتل وفدا عبد المؤمن بذلك على ما تقدم ثم رجل من أهل تينملل يعرف عندهم بابن بيجيت انا شاك فى اسمه ثم أيوب الجدميوى وهو الذى تولى قسمة الاقطاع بين الموحدين فى أول الامر فهؤلاء العشيرة المسمون بالجماعة وبعض الناس يعد فيهم أبا محمد واسنار وهو رجل دباغ أسود من أهل مدينة اغمات صحب أبا عبد الله بن تومرت حين مر بها فاختصه أبو عبد الله بن تومرت لخدمته لما رأى من شدته في دينه وكتمانه لما يرى ويسمع فكان يتولى وضوءه وسواكه والاذن عليه للناس وحجابته والخروج

بين يديه فلم يزل على ذلك الى ان توفي ابن تومرت فكان يتولى خدمة ضريحه وضريح عبد المؤمن حين دفن هناك توفي واسنار هذا في صدر دولة أبي يعقوب بعد ان علت سنه وكان من العباد المجتهدين والزهاد المتبتلين لم يكتسب شيئاً ولا خلف دينارا ولا درهما مع انه لو شاء لكان أكثر الناس مالا لمكانه من عبد المؤمن ومن المصامدة لما كانوا يعلمون من قربه من صاحبهم وثنائه عليه فى أكثر الاوقات وانضاف الى هؤلاء القوم المسمين بالجماعة خلق من قبائلهم فعدوا فيهم ونسبوا اليهم وأول من يعترض فى العرض العام ولد عمر بن عبد الله الصنهاجي ثم فرس عبد المؤمن أومن كان من ولده يتولى الامر ثم سائر أهل الجماعة على طبقاتهم من سبق وابطاء ثم أهل خمسين وهم خلق كثير

﴿ ذكر قبائل الموحدين ﴾

وقبائل الموحدين الذين يجمعهم هذا الاسم ويعمهم وهم الجند والاعوان والانصار ومن سواهم من سائر البربر والمصامدة رعية لهم وتحت أمرهم سبع قبائل أولهم قبيلة ابن تومرت وهي قبيلة تسمى هرغة وهي قايلة العدد بالنسبة الى قبائل الموحدين ثم قبيلة عبد المؤمن تسمي كومية وهي قبيلة كثيرة العدد جمة الشعوب لم يكن لها فى قديم الدهر ولا فى حديثه ذكر في رياسة ولا حظ من نباهة انما كانوا أصحاب فلاحة ورعاة غنم وأصحاب أسواق يبيعون فيها اللبن والحطب وسوى ذلك من سقط المتاع فتبارك المعز المذل المعطى المانع فأصبح القوم اليوم وليس فوقهم أحد ببلاد المغرب ولا تطاول أيديهم يد بكون عبد المؤمن منهم هذا على انه كما قدمناه ينتسب الى غيرهم ثم

أهل تينملل وهم قبائل شتى يجمعها اسم هذا الموضع ثم هنتاتة وهي
أيضاً قبيلة ضخمة جداً وفى بعضها رياسة وشرف فى الدهر القديم ثم
جنفيسة وهي قبيلة عزيزة منيعة ولغتها أجود اللغات وأفصحها فى ذلك
اللسان ثم جدميوه وليست كلها بل بعضها رعية ثم من استجاب
للموحدين من قبائل صنهاجة ثم بعض قبائل هسكورة فهذه جملة قبائل
الموحدين المستحقين لهذا الاسم عندهم والذين يأخذون العطاء وتجمعهم
الجيوش وينفرون فى البعوث وغير هؤلاء القبائل من المصامدة رعية
واذ قد جرى ذكرهم أعنى المصامدة على هذا النسق فلنذكر لك
الآن حفظك الله وأصلحك وأصلح بك القبائل التى يجمعها هذا
الاسم أعني المصامدة وحد بلادهم لتعرفهم ممن سواهم من البربر فحد
بلادهم النهر الاعظم الذي يصب من جبال صنهاجة وينتهي الى البحر
الاعظم بحر اقنابس يدعى هذا النهر أم ربيع عليه قبيلتان احداهما
تسمى هسكورة وأخرى صنهاجة وهما من المصامدة وآخر بلادهم
الصحراء التى تسكنها قبائل لمتونة ومسوفة وسرطة وهؤلاء ليسوا
مصامدة وقد كانت المملكة في هذه القبائل أيام المرابطين كما تقدم فهذا
حد بلاد المصامدة عرضا وحدها طولا من الجبل المعروف بدرن الى
البحر الاعظم المسمى اقنابس وقبائلها الذين ينطلق عليهم هذا الاسم
هسكورة وصنهاجة ودكالة وحاحة ورجراجة وجزولة ولمطة وجنفيسة
وهنتاتة وهرغة وقبائل أهل تينملل وحول مراكش قبائل منهم أيضا
وهم هزميرو هيلانة وهزرجة يدعوهم الموحدون بالقبائل فهؤلاء الذين
يجمعهم اسم المصامدة ثم يجمع الكل جنس البربر من طرابلس المغرب
الى أقصى سوس وما وراء ذلك ممن ذكرنا من لمتونة ومسوفة وسرطة

وآخر بلادهم أول حد بلاد السودان وللمصامدة بعد هذا جند من سائر أصناف الناس كالعرب والغز والاندلس والروم وقبائل من المرابطين وغيرهم ثم من ذكرنا من الموحدين صنفان فالصنف الاول يدعون الجموع وهم المرتزقة الذين يكونون بمراكش لا يبرحونها والصنف الآخر يدعون العموم وهم الكائنون ببلادهم لا يحضرون الى مراكش الا فى النفير الاعظم وعدد المرتزقة الذين بمراكش من قبائل الموحدين وسائر من ذكرنا من الاجناد على ما صح عندى تلخيصه عشرة آلاف نفس هؤلاء الذين بمراكش خارجا عما فى سائر البلاد من الموحدين وأصناف الجند واذا كان العرض العام فأول من يعترض ذرية أبي حفص عمر الصنهاجي على طبقاتهم فى أسنانهم ثم بعدهم فرس الخليفة من بني عبد المؤمن ثم أهل الجماعة على ترتيب طبقاتهم ثم أهل خمسين ثم القبائل وأولهم عرضاً هرغة قبيلة بن تومرت ثم بعدهم أهل تينملل ثم كومية ثم الموحدون بعد هذا على طبقاتهم فى سرعة الهجرة وبطئها وقد جرت عادتهم بالكتب الى البلاد واستجلاب العلماء الى حضرتهم من أهل كل فن وخاصة أهل علم النظر وسموهم طلبة الحضر فهم يكثرون في بعض الاوقات ويقلون وصنف آخر ممن عنى بالعلم من المصامدة يسمون طلبة الموحدين ولا بد فى كل مجلس عام أو خاص يجلسه الخليفة منهم من حضور هؤلاء الطلبة الاشياخ منهم فأول ما يفتتح به الخليفة مجلســه مسئلة من العلم يلقيها بنفسه أو يلقى باذنه كان عبد المؤمن ويوسف ويعقوب يلقون المسائل بأنفسهم ولا ينفصلون من مجالس من مجالسهم الا على الدعاء يدعو الخليفة ويؤمن الوزير جهراً يسمع من بعد من الناس ثم اذا سافروا لا يزال القرآن

يقرأ بين أيديهم بالغدو والعشي ركبانا واذا نزلوا فأول شيء يصنعونه في أول النهار بعد صلاتهم الفجر ان يخرج من ينادي الاستعانة بالله والتوكل عليه هذه عندهم للركوب فحينئذ يركب الناس ويخرج الخليفة من خيمته راكبا وأعيان القرابة وأشياخ الموحدين بين يديه مشاة خطوات كبيرة ثم يأمرهم بالركوب فاذا ركبوا وقف وبسط يديه ودعا فاذا فرغ الدعاء افتتح القراءة طلبة الموحدين خلفه فيقرؤن حزبا من القرآن في نهاية الترتيل وهم سائرون سيراً رقيقا ثم شيئاً من الحديث ثم يقرؤن تواليف ابن تومرت في العقائد بلسانهم وباللسان العربي فاذا فرغوا وقف الخليفة أيضاً وبسط يديه ودعا واذا كان وقت النزول أيضا نزلوا مشاة بين يديه الى خيمته فاذا بلغها بسط يديه ودعا فلا يزال هذا دأبهم في جميع سفرهم كله

﴿ صفة أحوالهم في اقامة الجمعة ﴾

فاما صفة أحوالهم وخطبتهم في جمعهم فيخرج الخليفة منهم عند زوال الشمس من خوخة في القبلة ويخرج معه خواص حشمه ويركع ركعتين ثم يجلس فيقرأ قاريء قدر عشر آيات حسن القراءة حسن الصوت ثم يقوم رئيس المؤذنين ومعه العصى التي يتوكأ عليها الخطيب فيقول قد فاء الفيء ياسيدنا أمير المؤمنين والحمد لله رب العالمين يريد بهذا القول استئذانه في صعود الخطيب المنبر فيقوم الخطيب ويصعد المنبر ثم يناوله ذلك الرجل العصى فاذا جلس الخطيب فوق المنبر أذن ثلاثة من المؤذنين مفترقين أصواتهم في نهاية الحسن قد انتخبوا لذلك من البلاد ثم يقوم الخطيب فيخطب فأول شيء يقول الحمد لله نحمده

ونستعينه ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهدى الله
فلا مضل له ومن يضلل فلا هادى له ونشهد أن لااله الا الله وحده
لا شريك له ونشهد أن محمداً عبده ورسوله أرسله بالحق بشيراً ونذيرا
بين يدى الساعة من يطع الله ورسوله فقد رشد ومن يعص الله ورسوله
فلا يضر الا نفسه ولا يضر الله شيئاً أسأل الله ربنا أن يجعلنا ممن
يطيعه ويطيع رسوله ويتبع رضوانه ويجتنب سخطه فانما نحن به وله
ثم يتعوذ ويقرأ سورة قاف من أولها الى آخرها ثم يجلس فاذا قام
الى الخطبة الثانية قال الحمد لله نحمده ونستعينه ونتوكل عليه ونبرأ من
الحول والقوة اليه ونشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له ونشهد
أن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه الذين اتبعوه
ففاتوا الانام جداً وعزما وانفدوا وسعهم فى نصره والصبر على ما
أصابهم فيه وفاء وصدقا وحزما وعلى الامام المعصوم المهدى المعلوم أبي
عبد الله محمد بن عبد الله العربي القرشي الهاشمى الحسنى الفاطمي
المحمدى الذى أيد بالعصمة فكان أمره حتما واكتنف بالنور اللائح
والعدل الواضح الذى يملأ البسيطة حتى لايدع فيها ظلاماً ولا ظلماً
وعلى وارث شرفه الصميم قسيمه رضى الله عنه فى النسب الكريم المجتبي
لوراثة مقامه العلى الخليفة الامام أبى محمد عبد المؤمن بن علي وعلي أبى
يعقوب ولي ذلك الاستخلاص ومستوجب شرف الاجتباء والاختصاص
اللهم وارض عن المجاهد فى سبيلك المحيي سنة رسولك الخليفة الامام
أبي يوسف أمير المؤمنين ابن أمير المؤمنين ابن أمير المؤمنين وعلي
الخليفة الامام أبى عبد الله ابن الخلفاء الراشدين اللهم وانصر ولي عهدهم
الطالع في أفق سعدهم القائم بالامر من بعدهم الخليفة الامام أمير المؤمنين

أبا يعقوب ابن أمير المؤمنين ابن أمير المؤمنين ابن أمير المؤمنين ابن أمير المؤمنين اللهم كما شددت به عرى الاسلام وجمعت على طاعته قلوب الأنام ونصرت به دين نبيك محمد عليه الصلاة والسلام فاقض له بالنصر المقرون بالكمال والتمام اللهم كما اجتبيته من الخلفاء الراشدين والائمة المهدين فاجعله من المقتفين لآثارهم المهتدين بمنارهم المقتبسين من أنوارهم اللهم وأيد الطائفة المنصورة والجماعة اخوان نبيك وطائفة مهديك الذين أخبرت عنهم فى صريح وحيك انهم لايزالون ظاهرين على أمرك الى قيام الساعة وأمدهم وكافة من انتظم في سلكهم من أنصار الدين وحزبك الموحدين بمواد النصر والتمكين والفتح المبين واجعل لهم من عضدك وتأييدك أعز ظهير وأكرم نصير ثم يدعو وينزل فيصلي فاذا فرغ دعا الخليفة بنفسه وأمن الوزير على ماتقدم فهذه كليات سيرتهم مجملة علي مايقتضيه شرط التقريب وفى أثناء ذلك تفاصيل يطول شرحها وليس بالناظر فى هذا الكتاب اليها كبير حاجة اذ قد بين له مايستدل على ما لم يرسم فى هذه الاوراق بما رسم

وهذا أصلحك الله منتهى ما بلغ من أخبار المغرب وسير ملوكه ووزرائهم وكتابهم وما تعلق بذلك حسب الاستطاعة وقد تقدم بسط العذر عما يقع من التقصير أو الخلل مع أن اصغر خدم مولانا لم تجر عادته بالتصنيف ولا حدث قط نفسه به وانما بعثته عليه الهمة الفخرية أعلى الله رتبها فما كان من احسان فالى تلك الهمة العلية نسبته وعنها منبعثه وما كان من غير ذلك فأغضاؤها يستره ومسامحتها تغمره وقد رسم مولانا حرس الله مجده أن يضاف الي هذا التصنيف ذكر أقاليم المغرب وتعيين مدنه وتحديد ما بينها من المراحل عدداً من لدن برقة

الى سوس الأقصى وذكر جزيرة الاندلس وما يملكه المسلمون من مدنها على ما تقدم فلم ير المملوك بدًّا من الجرى على العادة فى سرعة الاجابة وامتثال مرسوم الخدمة لوجوب ذلك عليه شرعاً وعرفاً هذا مع أن هذا الباب خارج عن مقصود هذا التصنيف وداخل فى باب المسالك والممالك وقد وضع الناس فيه كتباً كثيرة ككتاب أبى عبيد البكرى الاندلسي وكتاب ابن فياض الأندلسى أيضاً وكتاب ابن خردادبه الفارسي وكتاب الفرغانى وغيرها من الكتب المفردة لهذا الشأن المستوعبة له ونحن ان شاء الله ذاكرون من ذلك موافقة لرأي مولانا العالي ما يقف به على حدود البلاد ويصور له صورتها على التقريب من غير تطويل جارين في ذلك على ما سلف من عادتنا في سائر الكتاب فنقول وبالله التوفيق ومنه الاعانة قد تقرر واشتهر ان أول حد البلاد المصرية مما يلى الشام العريش وآخره مما يلى المغرب مدينة انطابلس المعروفة ببرقة هذا عرض الديار المصرية وحدها فى الطول من ثغر أسوان الى مدينة رشيد الكائنة على ساحل البحر الرومى. هكذا ذكر أصحاب المسالك والممالك والمعتنون بهذا الشأن وأول حد بلاد افريقية والمغرب مدينة انطابلس المذكورة المدعوة ببرقة بناها الروم فكانت حاضرة لتلك البلاد ومجتمعاً لاهلها افتتحها المسلمون في أيام أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه ومنها كان ابتداء فتح المغرب ومن هذه المدينة أعنى انطابلس الى مدينة طرابلس المغرب قريب من خمس وعشرين مرحلة ومابين الاسكندرية وطرابلس المغرب خمس وأربعون مرحلة وكانت العمارة متصلة من مدينة الاسكندرية الى مدينة القيروان تمشي فيها القوافل ليلاً ونهاراً وكان فيما بين الاسكندرية وطرابلس المغرب

حصون متقاربة جداً فاذا ظهر فى البحر عدو نور كل حصن للحصن الذى يليه واتصل التنوير فينتهي خبر العدو من طرابلس الى الاسكندرية أو من الاسكندرية الى طرابلس فى ثلاث ساعات أو أربع ساعات من الليل فيأخذ الناس أهبتهم ويحذرون عدوهم لم يزل هذا معروفاً من أمر هذه البلاد الى أن خربت الأعراب تلك الحصون ونفت عنها اهلها أيام خلى بنو عبيد بينهم وبين الطريق الى المغرب وذلك فى حدود ٤٤٠ حين تغير ما بينهم وبين المعز بن باديس الصنهاجي وقطع الدعاء لهم على المنابر ودعا لبنى العباس فاستولى الخراب عليها الى وقتنا هذا واستوطنتها الاعراب من سليم بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس عيلان بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان وغيرهم فهم اليوم بها وآثار المدن والحصون باقية الى اليوم ومدينة انطابلس هذه خراب لم يبق منها الا آثارها وفيما بين برقة وطرابلس حصن يسمى طلميثة بالقرب منه معدن كبريت فاما مدينة طرابلس فلم تزل معمورة الى هذا الوقت وهي أول مملكة المصامدة وقد استولى عليها في مدة ملكهم وفي ملك أبي يعقوب منهم المملوك قراقش المتقدم ذكره في ترجمة أبي يوسف ثم أخرجه منها المصامدة واستولى عليها أيضاً يحيى ابن غانية وعلى كثير من افريقية حسب ما تقدم تلخيصه ثم أخرجه عنها أيضاً المصامدة فهي فى ملكهم الى وقتنا هذا وهو سنة ٦٢١ فحد بلاد افريقية مما يلي المشرق مدينة انطابلس المذكورة وحدها مما يلي المغرب المدينة المعروفة بقسطنطينة الهواء سميت بذلك لافراط علوها وشدة منعتها ومسافة ما بين انطابلس وقسطنطينة المغرب قريبة من خمس وخمسين مرحلة فهذا حد افريقية طولا وعرضها يختلف بحسب مزاحمة

الصحراء العمارة ومباعدتها وسميت افريقية بذلك لنزول افريقش من ولد حام بن نوح بها وافريقش هذا هو أبو البربر فالبربر كلهم من ولد حام ابن نوح خلا صنهاجة فانهم يرجعون الى حمير هذا كله قول أبي جعفر محمد بن جرير الطبرى فى تاريخـه من لدن ذكر افريقش الى ذكر صنهاجة فأول مدن افريقية المعمورة طرابلس المغرب والمتقدم ذكرها ومنها الى مدينة تسمى قابس عشر مراحل وقابس هذه على ساحل البحر الرومي وكذلك طرابلس وتنصب الى قابس هـذه أنهار من بعض تلك الجبال التي تليها فهى بذلك أخصب بلاد افريقية وأوسعها فواكه وأعناباً ومن قابس هذه الى مدينة صغيرة على الساحل أيضاً تسمي سفاقس أربع مراحل ومن سفاقس الى مهدية بني عبيد ثلاث مراحل وقد تقدمت صـفة المهدية فى أخبار أبي محمد عبد المؤمن بن على وبظاهر المهدية المذكورة وقريب منها جداً مدينة تدعي زويلة بناها بنو عبيد حين بنو المهدية فاختصوا المهدية لانفسهم وحشمهم وأعيان جندهم ووجوه قوادهم وأسكنوا زويلة هذه سائر الناس من الرعية والسودان وأراذل كتامة وغـيرهم من أتباعهم ولما ارتحل المعز الى مصر بعد أن افتتحها على يدى خادمه جوهر ارتحلت معه طائفة كبيرة من أهل زويلة هذه فاليهم ينسب الباب والحارة التى بالقاهرة اليوم ومن مهدية بني عبيد الى مدينة تسمي سوسة واليها تنسب الثياب السوسية مرحلتان ومن سوسة الى مدينة تونس ثلاث مراحل ولم تكن تونس هذه فى قديم الدهر على أيام الافرنج مدينة وانما بنيت فى أول الاسلام بناها عقبة بن نافع الفهرى لمصلحة رآها وانما كانت المدينـة الكبرى مدينة على الساحـل هناك تسمي قرطجنة بينها وبين تونس نحو من

أربع فراسخ وهذه المدينة أعنى قرطجنة هي كانت حاضرة افريقيــة أيام الروم وهي مدينة عظيمة ظهر فيها من قوتهم وشدة طاعة رعيتهم لهم وفرط جبروتهم مايعجب منه من تأمله ويعتبر فيه من وقف عليه وذلك أنهم جلبوا اليها المياه من بعد شديد وتحيلوا على ذلك بغرائب من الحيل يعجز عن أيسرها جميع من فى هذا العصر وكانوا يضاهون بها مدينة القسطنطينية العظمى المنسوبة الى قسطنطين بن هيلان ملك الافرنج ثم لما افتتح المسلمون افريقية فى أيام عثمان بن عفان رضى الله عنه خربوا هذه المدينة المذكورة واتخذوا مدينة القيروان دار ملكهم ومقر ولاتهم ومجتمع جندهم ومركز جيوشهم وأسسوا على ساحل البحر مدينة تونس المذكورة وكان هناك قبل ذلك دير معظم عند الروم يزورونه من أقاصي بلادهم فهدمه المسلمون وبنوه مسجداً وسموا المدينة تونس باسم الراهب الذي كان فى ذلك الدير فمازالت تونس معمورة الى وقتنا هذا ولما خربت مدينة القيروان على ماسيأتي الايماء اليه صارت مدينة تونس حاضرة افريقية ومقر ولاتها وموضع مخاطبة أولى الامر منهــا وكل ما بتونس من جيــد الرخام وخالص المرمر فمن مدينة قرطجنة المذكورة ومن مدينة تونس هذه الى مدينة صغيرة على ساحل البحر تدعي بونة ومعنى هذه اللفظة بلسان الافرنج جيدة ست مراحل وفيما بين تونس وبونة بليدة صغيرة تسمي بني زرت بينها وبين تونس يوم تام في البر للمجد ولبنى زرت هــذه شأن غريب وذلك انه يخرج فى بحرها كلمــا طلع هلال نوع من السمك لم يكن فى الشهر الذى قبل ذلك هذا متواتر عند أهلها لا يختلف فيه منهم أحد والمتفطنون من الصيادين يعرفون الشهور باختلاف السمك عليهم وان لم يروا الاهلة

وهذا منسوب الى الطلسمات اعتنى به من عنى بخدمة القمر ومن مدينة بونة الى مدينة قسطنطينة التى هي أحد حدى افريقية خمس مراحل وقسطنطينة بينها وبين البحر مرحلتان أو أكثر من ذلك قليلا هذا ما على ساحل البحر أو قريب منه من مدن افريقية وبها مما يلى الصحراء مدن أنا ذاكرها ان شاء الله تعالى اذا فرغت مما على ساحل البحر من بلاد المغرب ومن قسطنطينة المغرب الى بجاية خمس مراحل على الرفق وبجاية هذه هى دار ملك بني حماد الصنهاجيين الذين تنسب قلعة بني حماد اليهم وكانوا يملكون من قسطنطينة المغرب الى موضع يعرف بسيوسيرات وقد تقدم هذا الموضع بينه وبين بجاية قريب من تسع مراحل لم يزل بنو حماد يملكون بجاية وجهاتها الى أن أخرجهم عنها فى ولاية يحيي منهم أبو محمد عبد المؤمن بن على حسب ما سبق ومن مدينة بجاية الى مدينة صغيرة تدعى الجزائر وتنسب الى قوم يقال لهم بنو مزغنه قريب من أربع مراحل وهذه المدينة المعروفة بالجزائر على ساحل البحر الرومي وكذلك مدينة بجاية ومن الجزائر هذه الى مدينة صغيرة تسمى تنس أربع مراحل ومن مدينة تنس الى مدينة وهران سبع مراحل ومن مدينة وهران الى مدينة سبتة على التقريب ثماني عشرة مرحلة وبساحل سبتة هذه يلتقي البحران بحر مانطس الذي هو بحر الروم وبحر اقنابس الذى هو البحر الاعظم وهذا أول الخليج المعروف بالزقاق وسعة البحر فيما بين سبتة والأندلس ثمانية عشر ميلا ثم لا يزال يضيق الى أن ينتهى ذلك من عدوة البربر الى موضع يدعي قصر مصمودة بينه وبين سبتة نصف يوم ومن جزيرة الأندلس الى موضع يدعى جزيرة طريف مقابلا لقصر مصمودة المذكور فأضيق

ما يكون البحر هنالك وسعته فيما بين هذين الموضعين اثنا عشر ميلا
ترى رمال كل واحد من الشطين من الآخر في كل وقت من أوقات
النهار وقد ذكر المؤرخون ان الروم بنت في قديم الدهر قنطرة على
هذا الخليج ثم طغت المياه فغطتها فيذكر قوم من أهل جزيرة طريف
انهم يرونها أوان سكون البحر وهدوئه حين تصفو المياه ومن مدينة
سبتة الى مدينة طنجة يوم تام في البر وطنجة هذه آخر الخليج الذي
به يلتقي البحران وهي على ساحل البحر الاعظم الذي لاعمارة وراءه.
وهو المعروف عندنا بالبحر المحيط المتصل ببحر الهند والحبشة وطنجة
هذه آخر بلد بالمغرب المحقق وما بعدها من البلاد فانما هو في الجنوب.
كمدينة سلا ومدينـــة مراكش ثم لايزال دائراً في الجنوب الى أن
يأتي بلاد الحبشة والهند فأول بلاد المغرب مما على ساحل البحر الرومي.
مدينة انطابلس المعروفة ببرقة وآخرها مما على ساحل البحر الاعظم
مدينة طنجة ومسافة ما بين ذلك على التقريب ست وتسعون مرحلة.
فهذا ذكر المدن التي على ساحل البحر من بلاد المغرب

ثم نعود الى ذكر ماليس على الساحل من مدن افريقية والمغرب
فنقول من مدينة قابس المتقدم ذكرها الى مدينة تسمي قفصة ثلاث.
مراحل ومن مدينة قفصة الى مدينة توزر أربع مراحل وتوزر هذه.
هي حاضرة بلاد الجريد وأم قراها وبلاد الجريد التي يقع عليها هذا
الاسم تنقسم قسمين قسم يسمى قسطيلية وهـذا الأسم يقع على توزر
وأعمالها وقسم يسمي الزاب وهذا الاسم أيضاً يقع على مدينة بسكرة.
وأعمالها ومن مدينة توزر الى مدينة بسكرة أربع مراحل وبالقرب.

من مدينة بسكرة مدينة صغيرة تسمي نقاوس بينها وبينها مرحلتان فهذه المدن التى تلي الصحراء من بلاد افريقية ويتخللها قري كثيرة لم نذكرها لصغرها وفيما بين مدينة تونس وتوزر مدينة القيروان المشهورة منها الى الساحل ثلاث مراحل وهي كانت أعني القيروان دار ملك المسلمين بافريقية منذ الفتح لم يزل الخلفاء من بنى أمية وبني العباس يولون عليها الأمراء من قبلهم الى أن اضطرب أمر بني العباس واستبد الأغالبة بملك افريقية بعض الاستبداد وهم بنو أغلب بن محمد بن ابراهيم بن أغلب التميميون فاتخذوا القيروان دار ملكهم فلم يزالوا بها الى أن أخرجهم عنها بنو عبيد وملكوها أيام كونهم بافريقية ثم ولوا عليها حين ارتحلوا الى مصر زيرى بن مناد الصنهاجي فلم يزل زيرى وبنوه ملوكا عليها الى أن كان آخرهم الذى أخرجه العرب عنها تميم بن المعز بن باديس بن منصور بن بلجين بن زيرى بن مناد المذكور فانتهبها الأعراب وخربتها فهي كذلك خراب الى اليوم فيها عمارة قليلة يسكنها الفلاحون وأرباب البادية وكانت القيروان هذه في قديم الزمان منذ الفتح الى أن خربتها الاعراب دار العلم بالمغرب اليها ينسب أكابر علمائه واليها كانت رحلة أهله فى طلب العلم وقد ألف الناس فى أخبار القيروان ومناقبه وذكر علمائه ومن كان به من الزهاد والصالحين والفضلاء المتبتلين كتباً مشهورة ككتاب أبي محمد بن عفيف وكتاب ابن زيادة الله الطبنى وغيرها من الكتب فلما استولي عليها الخراب كما ذكرنا تفرق أهلها فى كل وجه فمنهم من قصد بلاد مصر ومنهم من قصد صقلية والاندلس وقصدت منهم طائفة عظيمة أقصي المغرب فنزلوا مدينة فاس فعقبهم بها الى اليوم فهذه نبذة من اخبار افريقية وفيها مدن كثيرة قد خربت

لاأعرف أسماءها لقلة معرفتي بتفاصيل أحوال افريقية لاني لم أدخل
منها الامدينة تونس خاصة أتيتها في البحر من الاندلس وذلك سنة ٦١٤
وانما نقلت ما نقلته من أخبارها حسب المستفيض من السماع وفي
خراب القيروان على ما تقدم يقول أبو عبد الله محمد بن أبي سعيد بن
شرف الجذامي

تري سيئات القيروان تعاظمت ... فجلت عن الغفران والله غافر
تراها أصيبت بالكبائر وحدها ... ألم تك قدماً في البلاد الكبائر

فقسطنطينة آخر بلاد افريقية ما يلي البحر منها وما يلي الصحراء وما
بعد قسطنطينة فهو من المغرب غير افريقية فأول ذلك بليدة صغيرة
قبلي بجاية في البر تسمي ميلة بينها وبين بجاية ثلاث مراحل ومن بجاية
الى قلعة بني حماد أربع مراحل وهي أيضاً أعني القلعة قبلي بجاية
وها أنا أذكر طريق السفار من بجاية الي مراكش فمن بجاية الى مدينة
تلمسان عشرون مرحلة وفيما بين ذلك بليدات صغار كمليانة ومازونة
ووهران وقد ذكرناها في بلاد الساحل وبين مدينة تلمسان وبين
البحر أربعون ميلا وذلك يوم للمجد ومن مدينة تلمسان الى مدينة
فاس عشر مراحل سبع منها الى المدينة التي تدعي رباط تازا وثلاث الى
فاس وقبلي مدينه تلمسان في الصحراء مدينة سجلماسة منها الى تلمسان
عشر مراحل وهذه المدينة أعني سجلماسة متوسطة في الصحراء مسافة
ما بينها وبين تلمسان وفاس ومراكش على حد سواء فمن حيث قصدت
اليها من أحد هذه البلاد كان ذلك مسافة عشر مراحل ومدينة فاس
هذه هي حاضرة المغرب في وقتنا هذا وموضع العلم منه اجتمع فيها علم
القيروان وعلم قرطبة اذ كانت قرطبة حاضرة الاندلس كما كانت القيروان

حاضرة المغرب فلما اضطرب أمر القيروان كما ذكرنا بعيث العرب فيها واضطرب أمر قرطبة باختلاف بني أمية بعد موت أبي عامر محمد بن أبي عامر وابنه رجل من هذه وهذه من كان فيهما من العلماء والفضلاء من كل طبقة فراراً من الفتنة فنزل أكثرهم مدينة فاس فهي اليوم على غاية الحضارة وأهلها في غاية الكيس ونهاية الظرف ولغتهم أفصح اللغات في ذلك الاقليم وما زلت أسمع المشايخ يدعونها بغداد المغرب وبحق ماقالوا ذلك فانه ليس بالمغرب شئ من أنواع الظرف واللباقة في كل معنى الاوهو منسوب اليها وموجود فيها ومأخوذ منها لايدفع لهذا القول أحد من أهل المغرب ولم يتخذ لمتونة والمصامدة مدينة مراكش وطناً ولا جعلوها دار مملكة لانها خير من مدينة فاس في شئ من الأشياء ولكن لقرب مراكش من جبال المصامدة وصحراء لمتونة فلهذا السبب كانت مراكش كرسى المملكة والافمدينة فاس أحق بذلك منها وما أظن في الدنيا مدينة كمدينة فاس أكثر مرافق وأوسع معايش وأخصب جهات وذلك انها مدينة يحفها الماء والشجر من جميع جهاتها ويتخلل الأنهار أكثر دورها زائداً على نحو من أربعين عيناً ينغلق عليها أبوابها ويحيط بها سورها وفي داخلها وتحت سورها نحو من ثلاثمائة طاحونة تطحن بالماء ولا أعلم بالمغرب مدينة لا تحتاج الى شئ يجلب اليها من غيرها الا ما كان من العطر الهندى سوى مدينة فاس هذه فانها لا تحتاج الي مدينة في شئ مما تدعوا اليه الضرورة بل هي توسع البلاد مرافق وتملأها خيراً ومن مدينة فاس الي مدينة مكناسة الزيتون يوم تام للمجد ومن مكناسة الزيتون الى مدينة سلا أربع مراحل ومدينة سلا هذه على ساحل البحر الاعظم المسمى اقنابس

وهي فى الجنوب كما ذكرنا ينصب اليها نهر يسمي وادى الرمان يصب فى البحر الاعظم المذكور وقد بني المصامدة على ساحل هذا البحر مما يلى مراكش مدينة عظيمة سموها رباط الفتح كان الذى اختطها أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن وأتمها ابنه يعقوب وبني فيها مسجداً عظيما قد تقدم ذكره وقيل انهم انما بنوها بأمر ابن تومرت اياهم بذلك وذلك أنه قال لهم تبنون مدينة عظيمة على ساحل هذا البحر يعنى البحر الاعظم ثم يضطرب أمركم وتنتقض عليكم البلاد حتى ما يبقى بأيديكم الا هذه المدينة ثم يفتح الله عليكم ويجمع كلمتكم ويعود أمركم كما كان فلهذا ماسموها رباط الفتح وبين هذه المدينة وبين سلا العتيقة النهر المذكور وقد بنو عليه قنطرة من الواح وحجارة يعبر الناس عليها حين يجزر النهر فاذا مد عبروا فى القوارب وبين مدينة سلا هذه ومدينة مراكش كرسى المملكة تسع مراحل فمراكش آخر المدن بالمغرب وكان الذى اختطها ملك لمتونة تاشفين بن على ثم زاد فيها بعده ابنه يوسف بن تاشفين ثم زاد فيها بعدهما على بن يوسف بن تاشفين ثم ملكها المصامدة فزادوا فيها حتي جاءت في نهاية الكبر فهي اليوم طولا وعرضاً قدر أربع فراسخ هذا اذا ضمت اليها قصور بني عبد المؤمن وأجرى المصامدة فيها مياها كثيرة لم تكن فيها قبل ذلك وبنوا فيها قصوراً لم يكن مثلها لملك ممن تقدمهم من الملوك فصارت بذلك فى نهاية الحسن وغاية الكمال كما قال الاول

ليس فيها ما يقال له كملت لو أنه كملا

وبهذه المدينة أعنى مراكش مسقط رأسى وهى أول أرض مس جلدى ترابها وكان مولدى بها لسبع خلون من ربيع الآخر سنة ٥٨١ فى

أول أيام أبي يوسف يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن بن على ثم فصلت عنها وأنا ابن تسعة أعوام الى مدينـة فاس فلم أزل بها الى أن قرأت القرآن وجودته ورويته عن جماعة كانوا هنالك مبرزين في علم القرآن والنحو ثم عدت الى مراكش فلم أزل مترددا بين هاتين المدينتين ثم عبرت الى جزيرة الاندلس في أول سنة ٦٠٣ فادركت بها جماعة من الفضلاء من أهل كل شأن فلم أحصل بحمد الله من ذلك كله الا معرفة أسمائهم ومواليدهم ووفياتهم وعلومهم انفردوا دونى بكل فضيلة ولا مانع لما أعطى الله ولا معطي لما منع ﴿ يختص برحمتـه من يشاء وهو ذو الفضل العظيم ﴾ فمراكش هذه آخر المدن الكبار بالمغرب المشهورة به وليس وراءها مدينة لها ذكر وفيها حضارة الا بليدات صغار بسوس الأقصى فمنها مدينة صغيرة تسمى تارودانت وهي حاضرة سوس واليها يجتمع أهله ومدينة أيضاً صغيرة تدعى زجندر هي على معدن الفضة يسكنها الذين يستخرجون ما في ذلك المعدن وفي بلاد جزولة مدينة هي حاضرتهم تسمى الكست وفي بلاد لمطة مدينة أخرى هي حاضرتهم أيضاً تسمى نول لمطة فهذه المدن التي وراء مراكش فاما تارودانت وزجندر فدخلتهما وعرفتهما ولم أزل أعرف السفار من التجار وغيرهم وخاصة إلى مدينة المعدن المعروفة بزجندر وأما مدينـة جزولة ومدينة لمطة فلا يسافر اليهما الا أهلها خاصة

﴿ ذكر ما بالمغرب من معادن الفضة والحديد والكبريت والرصاص والزيبق وغير ذلك وأسماء مواضعها ﴾

قد تقدم ذكر معدن الكبريت الذي بين برقة وطرابلس وأنه بالقرب من حصن يدعي طلميثة وفيما بين سبتة ووهران موضع قريب من ساحل البحر يسمي تمسامان فيه معدن حديد وفيما بين سلا ومراكش قريباً من ساحل البحر الاعظم بمقدار يوم أو أكثر قليلا موضع يدعي إيسنتار فيه معدن حديد أيضاً وليس هذا الموضع على طريق السفار انما يقصده من أراد حمل الحديد منه وبالقرب من مكناسة الزيتون على ثلاث مراحل منها حصن يدعى وركناس فيه معدن فضة وقد ذكرنا معدن زجندر الذي بسوس غير أن فضته ليست هناك أعني فضة معدن زجندر وبسوس أيضاً معدنان للنحاس ومعدن توتيا وهي التوتيا التى يصبغ بها النحاس الاحمر فيصير أصفر فهذا جملة مابالعدوة من المعادن وبجزيرة الاندلس معادن أيضاً فمنها معدن فضة ببلاد الروم فى الجهة المغربية بموضع يدعى شنترة وعلى أربع مراحل من مدينة قرطبة موضع يسمى شلون فيه معدن زيبق منه يفترق الزيبق على جميع المغرب وفى أعمال المرية وعلى يوم ونصف منها بموضع يعرف بدلاية فيه معدن رصاص وفى أعمال المرية أيضاً على يوم ونصف منها موضع يسمي بكارش فيه معدن حديد أيضاً وما بين دانية وشاطبة موضع يسمي أوربة على نصف يوم من دانية فيه معدن حديد فهذا أيضاً جملة مابالاندلس من المعادن فاما الذهب فسوق اليها من بلاد السودان

ذكر أسماء الأنهار العظام التي بالمغرب

فأول ذلك نهر ببلاد افريقية علي نصف مرحلة من مدينة تونس يسمى بجردة ينصب من جبل هنالك ينتهي الى البحر الرومى ونهر بجاية الذى يسمى الوادي الكبير هو متنزهها وعايه بساتينها وقصورها ونهر آخر فيما بين تلمسان ورباط تازا يدعي وادى ملوية يصب في البحر الرومى أيضاً ونهر يدعى سبو هو محيط بمدينة فاس من شرقها وغربها ويجاور نهر سبو هذا نهر آخر كبير يسمى ورغة وهذان النهران ينصبان الى البحر الاعظم بحر اقنابس بعد أن يلتقيا بموضع يدعى المعمورة وفيما بين مكناسة وسلا نهر يدعي بهتاً ينصب الى البحر الاعظم أيضاً ونهر سلا المتقدم الذكر وفيما بين سلا ومراكش وعلى ثلاث مراحل من مراكش نهر عظيم يدعي أم ربيع ينصب من جبال صنهاجة من موضع يدعى وانسيفن يصب في البحر الاعظم أيضاً ونهر على أربعة أميال من مراكش عليه قنطرة عظيمة يسمى تانسيفت ونهر سوس الاقصي ونهر ببلاد حاحة يسمى شفشاوة هذه الانهار كلها تصب الي البحر الأعظم فهذه جملة الانهار الكبار التي بالمغرب التى لايقل ماؤها ولا ينقطع شتاء ولا صيفاً ولم تتعرض لذكر الاودية الصغار والانهار التى تيبس في الصيف

ذكر جزيرة الاندلس وأسماء مدنها وأنهارها

فأما جزيرة الاندلس فهى المعروفة فى قديم الزمان عند الروم

بجزيرة أشبانية وقد تقدم ذكر حدودها في صدر هذا الكتاب فاغني ذلك عن اعادته ههنا وكان دين أهلها فى الدهر القديم دين الصابية من عبادة الكواكب واستنزال قواها والتقرب اليها بأنواع القرابين شهدت بذلك طلسمات وجدت بها وضعتها القدماء من أهلها ثم انتقل أهلها الى دين النصرانية حين ظهر على أيدى أصحاب المسيح عليه السلام وكانت هذه الجزيرة أعنى الاندلس منتظمة في مملكة صاحب رومية يستعمل عليها من شاء من أصحابه فلم تزل كذلك والروم يملكونها وقاعدة ملكهم منها مدينة تسمي طالقة على فرسخين من إشبيلية وهي مدينة عظيمة باق أثرها الى هذا اليوم الى أن غلبهم عليها القوطا وهي قبيلة من قبائل الافرنج فأخرجوهم عن الجزيرة وألحقوهم برومية مدينتهم العظمي وانفرد القوطا هؤلاء بمملكة الجزيرة فملكوها أضخم ملك قريباً من ثلاثمائة سنة وكانت دار ملك القوطا مدينة طليطلة وهي فى قريب من وسط الجزيرة فلم يزالوا بها وطليطلة دار ملكهم كما ذكرنا الى أن افتتحها المسلمون فى شهر رمضان من سنة ٩٦ من الهجرة على ما تقدم في صدر الكتاب فلما افتتحها المسلمون تخيروا قرطبة دار ملكهم ومقر تدبيرهم وموضع حلهم وعقدهم فلم تزل قرطبة على ذلك الى أن انتشرت الفتنة واضطرب أمر بني أمية بالاندلس بموت الحكم المستنصر وتغلب أبي عامر محمد بن أبى عامر وابنه على هشام المؤيد بن الحكم المستنصر حسب ماتقدم فى صدر هذا الكتاب فهذا تلخيص أخبار جزيرة الاندلس وأنا ذاكر ان شاء الله أول ما يلقاه من يعبر اليها من حدودها ومدنها فأول ذلك أني أقول قد تقدم أن البحرين بحر الروم وبحر اقنابس يلتقيان بساحل سبتة ثم يضيف الخليج

ويتقارب العدوتان حتى ينتهي ذلك الى قصر مصمودة من العدوة وجزيرة طريف من الاندلس ثم يأخذ في السعة وأول هذا الخليج مما يلي طنجة الجبل الخارج فى البحر الاعظم المعروف بطرف اشبرتال وآخره الجبل الذى شرقى سبتة فاذا عبرت الى جزيرة الاندلس من سبتة كان الذى تنزل به المدينة المعروفة بالجزيره الخضراء واذا عبرت من قصر مصمودة وقعت الى جزيرة طريف فالمدينة المعروفة بالجزيرة الخضراء هى فى التحقيق على ساحل البحر الرومى وجزيرة طريف على ساحل البحر الاعظم وبين الموضعين أعنى الخضراء وطريف ثمانية عشر ميلا وفي شرقى الجزيرة الخضراء الجبل المعروف بجبل الفتح ويسمي أيضاً جبل طارق وله طرف خارج في البحر يسمي طرف الفخ وعنده يلتقى البحران بجزيرة الاندلس فهذا تلخيص التعريب بخبر مجاز الاندلس فاما ذكر مدنها فقد كانت فيها مدن كثيرة تغلب النصارى على أكثرها فأنا ذاكر أسماء المدن التي بأيدى النصاري فى وقتنا هذا ومواضعها من الجزيرة من مشرق ومغرب من غير تعرض الى ما بينها من المسافات اذ كان كون النصارى بها مانعاً من معرفة ذلك فأول المدن فى الحد الجنوبى المشرقي على ساحل البحر الرومى مدينة برشنونة ثم مدينة طركونة ثم مدينة طرطوشة هذه البلادُ التى على ساحل البحر الرومي المذكور أعادها الله للمسلمين والمدن التى على غير الساحل فى هذا الحد المذكور مدينة سرقسطة ولاردة وافراغة وقلعة أيوب هذه كلها يملكها صاحب برشنونة لعنه الله وهى الجهة التى تسمى أرغن وفى الحد المتوسط ما بين الجنوب والمغرب من المدن مدينة طليطلة وكونكة واقليج وطلبيرة ومكادة ومشريط ووبذ وأبلة وشقوبية هذه كلها يملكها

الادفنش لعنه الله وتسمي هذه الجهة قشتال وتجاور هذه المملكة فيما يميل الي الشمال قليلا مدن كثيرة أيضاً وهي سمورة وشلمنكة والسبطاط وقلمرية هذه كلها يملكها رجل يعرف بالببوج لعنه الله وتسمي هذه الجهة ليون وفي الحد المغربي الذي هو ساحل البحر الاعظم اقنابس مدن أيضاً منها مدينة الاشبونة وشنترين وباجة وشنترة وشنتياقو ومدينة يابرة ومدن كثيرة ذهبت عني أسماؤها يملكها رجل يعرف بابن الريق لعنه الله فهذا ما بأيدي النصارى من مدن جزيرة الاندلس مما يلي بلاد المسلمين ووراء هذه المدن مما يلي بلاد الروم مدن كثيرة لم تشتهر عندنا لبعدها عنا وتوغلها في بلاد الروم لم يملكها المسلمون قط لانهم لم يملكوا الجزيرة بأسرها حين افتتحوها وانما ملكوا معظمها واستولوا على أكثرها وأنا ذاكر بعد هذا ما بقي بأيدي المسلمين من البلاد وعدد المراحل التي بينها وقربها من البحر وبعدها حتى يبين ذلك ان شاء الله تعالى فأول شيء يملكه المسلمون بجزيرة الاندلس اليوم حصن صغير علي شاطيء البحر الرومي يسمى بنشكلة بينه وبين مدينة بلنسية ثلاث مراحل وهذا الحصن مما يلي بلاد الروم بينه وبين طرطوشة مرحلتان أو أكثر قليلا ثم مدينة بلنسية وهي مدينة في غاية الخصب واعتدال الهواء كان أهل الاندلس يدعونها في ما سلف من الزمان مطيب الاندلس والمطيب عندهم حزمة يعملونها من أنواع الرياحين ويجعلون فيها النرجس والآس وغير ذلك من أنواع المشمومات سموا بلنسية بهذا الاسم لكثرة أشجارها وطيب ريحها وبين بلنسية هذه وبين البحر الرومي قريب من أربعة أميال ثم بعدها مدينة تدعى شاطبة بينها وبينها مرحلتان وبينها مدينة صغيرة تدعى جزيرة الشقر وسميت

جزيرة لانها فى وسط نهر عظيم قد حف بها من جميع جهاتها فلا
طريق اليها الا على القنطرة ومن شاطبة هذه الى مدينة دانية التي على
ساحل البحر الرومى يوم تام ومن شاطبة الى مدينة مرسية ثلاثة أيام
ومن مرسية الى البحر الرومى عشرة فراسخ ومن مدينة مرسية الى
مدينة أغرناطة سبع مراحل وبين ذلك بلاد صغار أولها مما يلى مرسية
حصن لرقة ثم حصن آخر يدعى بلس ثم حصن آخر يدعى قلية ثم
بليدة صغيرة تسمى بسطة ثم بليدة أخرى على مسيرة يوم من غرناطة
تسمى وادى آش ويقال لها أيضاً وادي الأشى هكذا سمعت الشعراء
ينطقون بها فى أشعارهم فهذه البليدات التى بين اغرناطة ومرسية وفى
مقابلة وادي آش على ساحل البحر الرومى مدينة المرية مخففة الراء وهى
مدينة مشهورة تضرب أمواج البحر فى سورها بينها وبين وادى آش
هذه مرحلتان للمجد وبعد المدينة المعروفة بالمرية على ساحل البحر
الرومى حصن منكب وهى بليدة صغيرة يضرب البحر أيضاً في سورها
بينها وبين المرية أربع مراحل وبين حصن منكب هذا وبين مدينة
مالقة ثلاث مراحل وبين مالقة وبين الجزيرة الخضراء ثلاث مراحل
للمجد وبالجزيرة الخضراء أو بجبل الفتح يلتقى البحران كما ذكرنا
فالذى على ساحل البحر الرومى من بلاد المسلمين بالأندلس الجزيرة
الخضراء ومالقة ومنكب والمرية ودانية وبين المرية ودانية نحو من
ثمان مراحل ووراء دانية الحصن الذى يسمى بنشكلة وقد تقدم ذكره
فهذا ما على الساحل من بلاد المسلمين بالاندلس أعنى مايضرب الموج
فى سوره فأما مدينة بلنسية فبينها وبين البحر كما ذكرنا قريب من
أربعة أميال ثم نعود الى ذكر البلاد التى ليست على الساحل فنقول

من مدينة أغرناطة الي البحر قريب من أربعين ميلا وذلك مسيرة يوم
تام أو يومين على الرفق ومن مدينة أغرناطة الى مدينة جيان مرحلتان
فبين جيان وبين البحر الرومي ثلاث مراحل ومن مدينة جيان الى
مدينة قرطبة مرحلتان وقد تقدم ذكر قرطبة هذه وانها كانت دار ملك
المسلمين ومقر تدبيرهم الي أن نشأت الفتنة واختل أمر بنى أمية
بالاندلس وبلغت قرطبة هذه من القوة وكثرة العمارة وازدحام الناس
مبلغاً لم تبلغه بلدة حكي عن ابن فياض فى تاريخه فى أخبار قرطبة قال
كان بالربض الشرقى من قرطبة مائة وسبعون امرأة كلهن يكتبن
المصاحف بالخط الكوفى هذا مافى ناحية من نواحيها فكيف بجميع
جهاتها وقيل انه كان فيها ثلاثة آلاف مقلس وكان لايتقلس عندهم فى
ذلك الزمان الا من صلح للفتيا وسمعت ببلاد الاندلس من غير واحد
من مشايخها أن الماشى كان يستضىء بسرج قرطبة ثلاث فراسخ لاينقطع
عنه الضوء وبها الجامع الأعظم الذى بناه أبو المطرف عبد الرحمن بن
محمد المتلقب بالناصر لدين الله وزاد فيه بعده ابنه الحكم المستنصر بالله
فزيادة الحكم معروفة الي اليوم وحكي أبو مروان بن حيان رحمه الله
فى أخبار قرطبة أن الحكم لما زاد زيادته المشهورة فى الجامع اجتنب
الناس الصلاة فيها أياماً فبلغ ذلك الحكم فسأل عن علته فقيل له انهم
تقولون ماندرى هذه الدراهم التي أنفقها فى هذا البنيان من أين اكتسبها
فاستحضر الشهود والقاضى أبا الحكم المنذر بن سعيد البلوطى المتقدم
الذكر فى قضائه واستقبل القبلة وحلف باليمين الشرعية التي جرت العادة
بها انه ما أنفق فيه درهماً الا من خمس المغنم وحينئذ صلى الناس فيه

لما علموا بيمينه ومن الخمس أيضاً كان أبوه بناه وزاد فيه أبو عامر محمد ابن أبي عامر زيادة أخرى من هذه النسبة فهو مسجد لم ينفق فيه درهم الا من خمس المغنم وهو معظم القدر عند أهل الأندلس مبارك لا يصلى فيه أحد ويدعو بشيء من أمر الدنيا والآخرة الا استجيب له قد عرف ذلك من أمره واشتهر وحكى غير واحد ان الأدفنش لعنه الله لما دخلها في شهور سنة ٥٠٣ دخل النصارى في هذا المسجد بخيلهم فاقاموا به يومين لم تبل دوابهم ولم ترث حتى خرجوا منه وهذه الحكاية مما تواتر عندهم واستفاض بقرطبة وقد جمع أهل الاندلس كتباً في فضائل قرطبة وأخبارها ومن كان بها أو نزلها من الصالحين والفضلاء والعلماء ومن مدينة قرطبة الى مدينة اشبيلية ثلاث مراحل واشبيلية هذه هي حاضرة الاندلس في وقتنا هذا وهي التي تسمى عندهم في قديم الزمان حمص سميت بذلك لنزول أجناد حمص اياها حين افتتح المسلمون الاندلس وقد زاد أمر هذه المدينة على صفة كل واصف وأتى فوق نعت كل ناعت وهي على شاطئ نهر عظيم ينصب من جبل شقورة وتنصب فيه أنهار كثيرة فلا يصل الى اشبيلية الا وهو بحر خضم تصعد فيه السفن الكبار من البحر الاعظم ترسى على باب المدينة بينها وبين البحر الاعظم سبعون ميلا وذلك مرحلتان وهذه المدينة كانت قاعدة ملك بني عباد حسب ما تقدم ثم صيرها المصامدة منزلا لهم أيام كونهم بالاندلس منها ينفذ أمرهم وفيها يستقر ملكهم وبنوا بها قصوراً عظيمة وأجروا فيها المياه وغرسوا البساتين فزاد ذلك في حسن هذه المدينة أعني اشبيلية ومن اشبيلية الى مدينة شلب التي على ساحل البحر الاعظم خمس مراحل وبين ذلك بليدات صغار كمدينة لبلة وحصن مرتلة

ومدينة طبيرة ومدينة العليا والمدينة المعروفة بشنتمرية هذه البلاد كلها فيما بين شلب واشبيلية من مغرب الاندلس وبين قرطبة وبين الرومى خمس مراحل وقرطبة أيضاً على ساحل هذا النهر الذى ينصب الى اشبيلية الا أنه عند اشبيلية يعظم جداً حتى تصعد فيه السفن كما تقدم ويحدر من أراد فى القوارب من قرطبة الى اشبيلية ويصعدون من اشبيلية الى قرطبة كهيئة النيل وبين مدينة اشبيلية ومدينة شريش مرحلتان وبين شريش وبين البحر ثلاث مراحل فهذه جملة أخبار بلاد المغرب وجزيرة الاندلس ومسافات الابعاد التى بين كل بلد وبلد على التقريب منها ما سافرت فيه بنفسى ومنها ما نقلته مستفيضاً عن السفار المترددين

(فصل) وقد رأيت أن أذكر ههنا جملة أنهار الاندلس الكبار المشهورة بها فأول ذلك مما يلى المشرق نهر طرطوشة وهو نهر عظيم ينصب من جبال هناك الى مدينة طرطوشة ثم يصب فى البحر الرومى وبين طرطوشة وبين البحر الرومى اثنا عشر ميلا ثم مرسية وهو يصب أيضاً فى البحر الرومي منبعه من جبل شقورة وهو قسيم نهر اشبيلية منبعهما واحد ثم يفترقان فينصب هذا الى اشبيلية وهذا الى مرسية ثم نهر اشبيلية الاعظم وقد تقدم ذكر منبعه ثم تنصب فيه قبل وصوله الى اشبيليه أنهار كثيرة فيعظم حتى يصير بحراً كما ذكرنا ثم يصب فى البحر الاعظم المسمى اقنابس ثم نهر عظيم ببلاد الروم يسمى تاجو وهو الذى عليه مدينة طليطلة وشنترين وبين هاتين المدينتين قريب من عشر مراحل وعلى هذا النهر أيضاً مدينة الاشبونة وبينها وبين شنترين ثلاث مراحل ثم ينصب هذا النهر الى البحر الاعظم فهذه جملة

أنهار الاندلس المشهورة بها وقد نجز بحمد الله جميع هذا الاملاء حسب ما رسمه مولانا وجريت فى ذلك كله على عادتى فى التلخيص وتركت أسماء القرى والضياع والانهار الصغار وغير ذلك مما لا تدعو اليه الحاجة ولا يخل بالتصنيف تركه فان وافق غرض مولانا ولاق بنفسه وأتى وفق مراده فهى البغية الكبرى والامنية العظمى التي لم أزل أكدح لها وأسعى فيها وأسابق اليها وان يك غير ذلك فما أنا بأول من اجتهد فحرم الاصابة ولم يقع على المراد ولا وفي بالمقصود وبالله اعتصم واياه استرشد وعليه اعتمد وهو حسبي ونعم الوكيل.

وكان الفراغ من طبع هذا الكتاب فى شهر
شعبان من سنة ١٣٢٤ والحمد لله
رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد
وعلى آله وصحبه أجمعين
وحسبنا الله ونعم
الوكيل
تم

﴿ فهرست كتاب تاريخ الاندلس ﴾

صحيفه

صحيفه

(تمت)

